قصة
الأدب في مصر

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الخامس

دار الجيل
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

من اعلام الكتاب فى هذا العهد :

مصطفى لطفى المنفلوطى

١٨٧٦ — ١٩٢٤

حياته وأدبه :

علم من أعلام الأدباء والكتاب ، فى العصر الحديث ، وصاحب آثار أدبية مرموقة ، كانت مدرسة كاملة ، تخرج عليها الكثير من الأدباء الموهوبين ، شهد له الناس بالتفوق ، وقالوا عنه : إن مولده كان فى بيت كريم بالدين ، جليل بالفقه توارث أهله الشريعة ، ونقابة الصوفية مائتى عام . قال عنه معاصروه : إنه أعظم أدباء النهضة الفكرية الأخيرة ، وأبلغ من كتب فى العصر الحديث من حيث رشاقة العبارة ورقة التعبير وتصوير الحوادث تصويراً حقيقياً ، يضرب به المثل فى متانة التركيب وحسن اختيار الألفاظ . ولقد امتاز على الخصوص بأنه يصوغ المعنى الدقيق فى القالب الرقيق ، فيظهر أبدع صحيفة من صحف الإحساس ، وأجل أثر من آثار الشعور الطيب ، ومما زاد فى نبوغه ودل على مقدرته العجيبة ، أنه عمد إلى الأفكار فحللها وشرحها واستجلى أدق خفاياها ، وإلى العواطف فعبر عنها بتعابير لم تتفق لواحد غيره من كتاب عصره . فكل ما تتأثر به النفس وكل ما يخفق له القلب وتهتز له الجوارح وجدله صوراً تمثله بأجلى بيان للتصور . وقد أخضع أعنة الألفاظ لعواطفه وتصوراته وأبرزها مخدرات معان لم يوح بها إلا إليه . وكان أول من أعاد للعربية رونقها وبهاءها بأساليب جيدة وأفكار عصرية ، وقد جعل لها حياة حية بمؤلفه النظرات ، وهو عبارة عن سلسلة مقالات فى التربية والأخلاق والشؤون العامة يمر عليها القارىء فيتراوح بين تلاوة الحكم المستعذبة والنثر البديع ويحكم بأن النظرات وكتاب أدب ومحاضرة ، وكتاب حكمة وفلسفة ، يتنقل فيه بين الاستفادة من وترويح النفس بتلك . وعلى الجملة إذا نظرت فيه إلى الكاتب رأيته مغيراً نظام هذه الكتابة القديمة ، وناهجاً طريقة جديدة فى الإنشاء ، جرى عليها السواد الأعظم من الكتاب . وإذا نظرت إلى آرائه رأيت لها قوة ، ولمعانيه تأثيراً .

وكتب لطفى السيد عن « نظرات المنفلوطى » يقول : « يكتب الكاتبون عندنا وفى البلاد الأخرى فيقع بعضهم على بعض فى كيفية استحضار الأفكار وصوغ العبارات وفى الأسلوب الكتابى ، إلى حد يختلط فيه أمرهم ، وتفنى به شخصيتهم ، فلا تكاد تفرق بين أحدهم وبين الآخر إلا باختلاف الاسم . وهذا الصنف من الكتاب فى كل أمة كثير وكتاباتهم أكثر ، ولكن الزمان نقاد غير متسامح لا يبقى فى كفه من تلك الأسفار الكثيرة إلا القليل .

ومن الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى فى بيئة الكتاب . لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة . بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس فى الثوب الذى يناسبها على تفصيل مودة الأذواق الحاضرة ، وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل إلا أن كتاباتهم على قلتها هى المرقى الوحيد للأمم ، والعلل الأولى التى تدفعها إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح ، وهى خير اللغات وأبقاها . وإن من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطى . أكاد لا أجد له فى طريقته مثيلا بين كتابنا فإنه يمتاز بالمساواة وقل من يعرف بالمساواة . يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى إلا لفظه الذى يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر ، يطرق الموضوعات الصعبة البعيدة فيقربها من القارئ ، ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبل .

أقول من غير محاباة وفى يدى نظرات المنفلوطى إن السيد مصطفى هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابى الحاضر ، جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الأصيل ، فكان كتابه النظرات بذلك إحدى المعجزات عند من يظنون أن الغرب غرب والشرق شرق ، وأنهما لا يزالان كذلك ما بقى البعد بين مطلع الشمس وبين مغربها » .

ووالد المنفلوطى عربى صريح النسب إلى عترة الحسين ، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة « الجوربجى » . ونهج المنفلوطى سبيل آبائه فى الثقافة ، فحفظ القرآن فى المكتب ، وتلقى العلم فى الأزهر . إلا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نبوة فى بعض الحالات عن إرادة الوراثة والنشأة ، فهم يصدفون — فى منتصف الطريق — عن دروس الفقه والأصول والعقائد . فكان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى — على الكره من ورع قلبه ، ورعاية أبيه — لا يلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان ، وفنون الأدب ، فهو يحفظ الأشعار ، ويتصيد الشوارد ، ويصوغ القريض ،

وينشىء الرسائل، وتسير له شهرة بين الأزهريين بذكاء القريحة ، وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ الإمام ، ويرسم له الطريقة المثلى إلى النهاية من الأدب والحياة ، ثم يستفيد المنفلوطى من قربه إلى الإمام صلته بسعد ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تفوقه لدى « المؤيد » ، فالإمام المجتهد محمد عبده ، والسياسى الخطيب سعد والصحفى الكاتب على يوسف : كانوا أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطى الأديب ، بعد استعداد فطرته ، وإرشاد والده . وأولئك الثلاثة كانوا — على ما بينهم من التفاوت فى نواحى النبوغ — أفهم رجال العصر الحديث لحقيقة الأدب ، وأشدهم حدباً على بؤس أهله . وكان المنفلوطى يعتمد فى نيل شهادة الأزهر على جاه الإمام . والإمام المفتى — مفسر وحى الله ، وشارح فن عبد القاهر ، ومعيد الأدب إلى الأزهر — كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه بجانب مقياس أبى حنيفة . فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطى فيه على سنده وأمله ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده ، ثم أنعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب يبتغى فى المؤيد الوسيلة إلى النباهة والنجح ، وأوى من الوزير سعد زغلول إلى ركن منيع ، فخلق له منصب التحرير ، فضمن له به رغد العيش ، ووفرة الإنتاج ، حتى اختار الله له ما عنده : وتوفى عام ١٩٢٤ .

وقد كان المنفلوطى أديبا موهوباً ، حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة ، لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ، ولا أديباً ممتازاً ، ولا طريقة مستقلة . والنثر الفنى كان على عهده لوناً حائلا من أدب القاضى الفاضل ، أو أثراً ماثلا لفن ابن خلدون ، يتمثل الأول قوياً فى طبقة المويلحى وحفنى ناصف ، ويظهر الآخر ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ، ولطفى السيد . ولا يستطيع ناقد أن يقول : « إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين » . إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره — كأسلوب ابن خلدون فى عصره — بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال . والفرق أن بلاغة « النظرات » مرجعها إلى القريحة ، وبلاغة مقدمة ابن خلدون مرجعها إلى العبقرية . وقد تأثر فى القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفى الحديث بجبران ونعيمة ، ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الإيحاء ، لا دخول التقليد والاحتذاء ، فله من الأولين إشراق الديباجة ، وقوة النسج ، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة ، ولكنك ، لا تتذكر وأنت تقرؤه أحداً من

أولئك جميعا . وقد عالج المنفلوطى الاقصوصة أول الناس ، وبلغ فى إجادتها شأوا لا ينتظر من نشأة كنشأة فى جيل كجيله.

والمنفلوطى ، رحمه الله ، كان دقيق الحس ، رقيق العاطفة ، رحيم القلب ، يغمره الشعور بالأسى من كل ما يتغير على هذا العالم من ضروب الويل والشقاء . لهذا ترى قلمه أجود ما يكون فى صفة مدنف عان ، أو يتيم محروم ، أو متهم مظلوم . ونحو هذا من مآسى الحياة . وهو رشيق القلم ، سهل البيان ، حلو العبارة ، متين نظم الكلام . إذا هبطت عليه السجعة فذاك ، وإلا لم يتكلف طلبها ولم يتعمل . وكان شديد التذوق لبلاغات العرب ، يحتفل للجملة البارعة ، والصيغة الرائعة ، فيفسح لها فى خلال نثره مكانها المقسوم . وقد جمع قدراً عظيما من مقالاته فى كتابه « النظرات » وأخرى فى كتابه « العبرات » . وله مختارات بديعة من أشعار المتقدمين ومقالاتهم دعاها «مختارات المنفلوطى» . وهى تدل على حسن ذوقه ودقة اختياره . وترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية رواية (مجدولين) ، فجود فى العربية صياغتها ، وصقلها صقلا جميلا .

وسر الذيوع فى أدب المنفلوطى ظهوره على فترة من الأدب اللبـاب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ، ويمثل العيوب فى أسلوب طلى ، وسياق مطرد ، ولفظ مختار .

وقد كانت الكتابة العربية فى بيئة لا تزال تتشح بمطارف من التزويق القديم ، ولم يكن الجمهور العلمى يفهم من الأدب إلا الجرى على سنن القدماء من أئمة اللغويين والمترسلين ، فلما أدرك المنفلوطى لم تطق نفسه التقييد بقيودهم فأفلت يعدو فى طريق غير طريقهم ، وإلى ذلك يشير فى مقدمة نظراته إذ يقول : « فالحمد لله أولا وللأدب ثانياً على نجاتى منهم فيما كانوا يرومون بى ويحاولون منى ، بل أحمد الله إليهم كذلك فقد كفيت بسوء رأيهم فى الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بينى وبين نفسى فى المفاضلة بين شاعر وشاعر وكاتب وكاتب ، والموازنة بين أسلوب وأسلوب وديباجة وأخرى . فلم يكن لى عون على ذلك كله غير شعور نفسى وخفوق قلبى خفقة السرور والألم إن مر بى ما أحب أو أكره من حسنات القول أو سيئاته . فكنت لا اقرأ إلا ما أفهم ، ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس فإذا هو فى كبد الرمية ولبها » .

صور من أدبه :

١ — ومن نماذج نثر المنفلوطي ما كتبه بعنوان « يوم العيد » :

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان ، أن امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس ، يطرقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار ، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله . فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً ، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار ، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير ، الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد كما وعدته .

فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة ، والرجل يغالي به مغالاة شديدة . حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه ، وأنها لا تستطيع العودة بدونه ، فساقتها الضرورة — التي لا يقدرها قدرها إلا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم ، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها — إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها . ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آن خفقتين مختلفتين : خفقة الجزع من عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها . وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته . فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها ، حتى عرف منزلها ، ثم تركها وشأنها ، وذهب إلى مخفر الشرطة ، فجاء منه بجنديين للقبض عليها . وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها ، ففاجأها وهي جالسة بين يدي ولدها ، تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور . فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظيمة ، لا على التمثال الذي انتزع منه بل على أمه المرتعدة بين يديه . وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل : « رحماك بأمي يا مولاي ! » ، وظل يبكي بكاء شديداً ، فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق إطراقاً طويلاً . وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق العيد ، فانتفض انتفاضة شديدة ، وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما : « أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة ،

فإنى لا أبيع هذا النوع من التماثيل » . فانصرفا لشأنهما ، والتفت هو إلى الولد ، فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه ، ثم مشى إلى الأم . فاعتذر إليها عن خشونته وشدته فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفض عرقاً ، حياء من فعلتها . ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان.

لا تأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سمائها نجمان مختلفان : نجم سعود ونجم نحوس، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتماثيل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم ، تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء . وأما الآخرة فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى ، يئنون فى فراشهم أنيناً يتصدع له القلب . ويذوب له الصخر ، حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم ، يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم ماذا أعدوا لهم فى هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزينون بها متاعدهم ، فيمطلونهم بوعود يعلمون أنهم لايستطيعون الوفاء بها .

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد الـــنزر القليل مما أعطاهم الله ، ليسجلوا لأنفسهم فى باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل ؟

إن رجلا يؤمن بالله ورسله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء . ولا قلبه من الخفقان . عند ما يرى فى يوم العيد — فى طريقه إلى معبده ، أو منصرفه من زياراته — طفلة مسكينة بالية الثوب ، كاسفة البال ، دامعة العين ، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلىء به أيديهن ، فلا يجد بدأ من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لايوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه ، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها .

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم . فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين .

٢ ــ آراء للمنفلوطي في الأدب والحياة :

الأديب :

. . . إن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه لهذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده من أبنائه وشيعته وذوي رحمه صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح أحلامه . . . والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم، ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم .

خير الأدب :

أغزل الغزل عندي غزل العاشقين ، وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأشرف المدح مدح الشاكرين ، وخير العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

التفلت من القيود :

. . . ليعلموا إني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل التي يعلمونها بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون الفضل فيه إلا لأني استطعت أن أتفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها على ، وعجزها عن أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي .

الصـــديق :

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك ، وحلمك وجهلك ، وصوابك وسقطك ، ليس ممن يغتبط بمودته أو يوثق بصداقته ، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتتكشف لك عن نفسك وتصدقك عن زينك وشينك ، وحلوك ومرك .

الحـــــرية :

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً فى الحرية من الحيوان الناطق . فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته ، وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدا بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ذكياً ناطقاً .

يحلق الطير فى الجو ويسبح السمك فى البحر ويهيم الوحش فى الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد .

الشـــــعر :

إن البذور تلق فى الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافلها ، وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته وتخللت أجزاءه وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

البيـان :

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم فى النفس وتصويره فى نظر القارىء أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ولا يقصر عنه . فإن علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العى والحصر .

علموا المرأة :

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها ليتربى فى حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

أحسن الإحسان :

الإحسان فى مصر كثير ، ووصوله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل ، فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع فى ظلمة الليل شكاة بائس ولا أنة محزون .

رفقا بالنساء :

يا أقوياء القلوب من الرجال رفقاً بضعفاء النفوس من النساء . إنكم لاتعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن وعفتهن أى قلب تفجعون ، وأى دم تسفكون .

كل شيء :

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء .

أيها العظماء :

ليست العظمة التى تعرفونها لأنفسكم إلا منحة من منح الفقراء عليكم وحسنة من حسناتهم إليكم فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم ، ولولا تصاغرهم فى حضراتكم مااستكبرتم ، فلا تجزوهم بالإحسان سوءا ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر ، تستدفعوا النقم وتستديموا النعم .

الحسد :

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة آتية يتألم لها . فالشارب يتألم عند حلول مرضه ، والمقامر يوم نزول فقره ، والسارق يوم زيارة سجنه . أما الحاسد فعقوبته حاضرة ، لاتفارقه ساعة واحدة .

الحياة الذاتية :

أكثر الناس يعيشون فى نفوس الناس أكثر مما يعيشون فى نفوسهم ، أى أنهم لايتحركون ولايسكنون ولا يأخذون ولايدعون ، إلا لأن الناس هكذا يريدون .

الوطنان :

الفضيلة للانسان أفضل الأوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحر به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران .

الدعوى :

إن أردت أن تكون فى الأمة الجاهلة كل شىء فادع لنفسك كل شىء ، تنال بقولك فى الزمن القصير مالا ينال غيرك بفعله فى الزمن الطويل ، فإن الكاذب لايزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم لايزال يكذب حتى يصدق نفسه .

الغنى :

أنا لا أغبط الغنى على غناه إلا فى موطن واحد من مواطنه ، فأغبطه إن رأيته يشبع الجائع ويواسى الفقير ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذى سلبه الدهر أباه والأرملة التى فجعها القدر فى عائلها ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ، ثم أرثى له بعد ذلك فى جميع مواطنه الأخرى .

سارق وسارق :

أنا لا أستطيع أن أتصور الفرق بين رجل يمد يده إلى خزينة من خزائن بيتى فيسرق مالى وآخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفى فيستلبه ، كلاهما مجرم فاتك وكلاهما لص مغتال ، وإن كان أولهما فى نظر القانون - وفى نظر الناس أكبرهما إثماً وأسوأهما أثراً .

الشقاء :

السبب فى شقاء الإنسان أنه دائماً يزهد فى سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع اليه من سعادة غده فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه فهو لاينفك شقياً فى حاضره وماضيه .

الاستقلال :

لاسبيل للانسان إلى الخلاص من الاندفاع فى تيار الجماعات وضلالها مهما كان ذكياً أو مفكراً إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام إليها أو كان له من عزيمة الرأى وقوة النفس مايمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له فيحضرها شاهداً كغائب ومجتمعاً كمنفرد .

الرأى العام :

ليس إجماع ألف أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين من روح واحدة على رأى من الآراء دليلا على صحة ذلك الرأى ، لأنه قد يكون رأى واحد تأثر به الباقون تقليداً وعدوى ورأى الواحد مترجح بين الخطأ والصواب .

الزعامـة :

لايشترط فى قيادة الجموع أن يكون القائد مفرطاً فى الذكاء او العقل أو الدهاء بل يكفيه عن ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وميولهم وسبل الوصول إلى قلوبهم لايزيد على علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم .

أسعد النـاس :

أسعد النـاس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ، ونظر إليها نظرة المستريب بها ، وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها .

٣ — ومن فصل له بعنوان «نفس الشاعر» من رواية «الشاعر» يخاطب فيه سيرانو ليريه الذى ينصحه بحسن السياسة والمداراة : أتريد أن اعتمد فى حياتى على غيرى ، وأن أضع زمام نفسى فى يد عظيم من العظماء ، أو نبيل النبلاء ، يصطنعنى ويجتبينى[1] ، ويكفينى مئونة عيشى ، ويحمل عنى هموم الحياة وأثقالها ، فيكون مثل مثل شجرة «اللبلاب» لاعمل لها فى حياتها سوى أن تلتف بأحد الجذوع تلعق[2] قشرته ، وتمتص مادة حياته ، بدلا من أن تعتمد حياتها على نفسها ؟

ذلك مالا يكون ! أتريد أن احمل نفسى على عاتقى ، كما يحمل الدلال سلعته ، وأدور بها فى الأسواق مناديا عليها : من منكم أيها الأغنياء والأثرياء[3] ، والوزراء والعظماء ، وأصحاب الجاه والسلطان ، يبتاع نفسا بذمتها وضميرها ، وعواطفها ومشاعرها ، بلقمة عيش ، وجرعة ماء ! ؟

---

(١) يجتبينى : يختارنى .

(٢) لعق الشيء : أخذه بطرف لسانه

(٣) الأثرياء : جمع ثرى ، وهو من عنده مال كثير .

أتريد أن تستحيل قامتى إلى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تتهدل أجفانى من كثرة الاطراق والإغضاء ، وأن تجتمع فوق ركبتى طبقة سميكة من كثرة السجود والجثو[1] بين أيدى العظماء ؟ ! أتريد أن يكون لى لسانان : لسان كاذب أمدح به ذلك الذى صنعنى واجتبانى ، ولسان أعدد به عيوبه وسيئاته . وأن يكون لى وجهان : وجه راض عنه ، لأنه يذود عنى ويحمينى ، ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدنى ويسترقنى ؟ !

ذلك ما لا يكون ؟ أريد أن أعيش حرا طليقا ، أضحك كما أشاء وأبكى كما أريد ، وأحتفظ بنظرى سليما ، وصوتى رنانا ، وخطواتى منتظمة ، ورأسى مرفوعا ، وقولى صريحا ، أنظم الشعر فى الساعة التى أختارها ، وفى الشأن الذى أريده ، فإن أعجبنى ما ورد على منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت فى نظم غيره بدلا من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه ! ! ، أريد أن أعيش حراً طليقا ، أناضل[2] من أشاء ، وأجادل من أشاء ، وأنتقد من أشاء . وأن وأن أقول كلمتى الخير والشر للأخيار والأشرار فى وجوههم ، لا متملقا أولئك ولا خاشياً هؤلاء .

٤ — وكتب أيضاً بعنوان «الشاعر» : إنما يشقى فى هذا العالم أحد ثلاثة : حاسد يتألم لمنظر النعم التى يسبغها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى . وطماع لا يستريح إلى غاية من الغايات حتى تنبعث نفسه وراء غاية غيرها ، فلا تفنى مطامعه ولا تنتهى متاعبه . ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف ، لا يفارقه خيالها حيثما حل وأينما سار . وما أنت يا سيدى بواحد من هؤلاء ، فمن أى باب من الأبواب يتسرب الشقاء إلى قلبك ؟ أنت شاعر يا مولاى ؛ وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك[3] السعادة ففتش عنها فى أعماق قلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه .

---

(١) جثا الرجل يجثو جثوا : جلس على ركبتيه .
(٢) أناضل : أدافع وأغالب .
(٣) أعوزتك : احتجت إليها .

السماء جميلة ، والشاعر هو الذى يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته أديمها[١] الأزرق الصافى ، فيرى فى ذلك العالم العلوى النائى ما لا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر . والبحر عظيم ، والشاعر هو الذى يشعر بعظمته وجلاله . ويرى فى صفحته الرجراجة[٢] المترجحة[٣] صور الأمم التى طواها والمدن التى محاها ، والدول التى أبادها . وهو باق على صورته لايتغير ولايتبدل ، ولايبلى[٤] على العصور والأيام .

والليل موحش(٥) ، والشاعر هو الذى يسمع فى سكونه وهدوئه أنين الباكين وزفرات(٦) المتألمين ، وأصوات الدعاء ، المتصاعدة إلى آفاق السماء ، ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ، وخيالات السعادة أو الشقاء الحائمة(٧) فى رؤوس رءوس المجدودين(٨) والمحدودين(٩) . الشاعر يرى الجمال فى كل شىء يتناوله سمعه وبصره ، حتى فى الزهرة الذابلة ، والنبتة الحائلة(١٠) ، والنحلة الطائرة ، والفراشة الحائمة(١١) ، وفى مدارج(١٢) النمال وأفاحيص(١٣) القطا(١٤) ، والنؤى(١٥) المتهدم ، والجدث البالى ، والشبح المخيف ، والخيال الرائع ، وفى الضفدعة الملقاة

---

(١) الأديم : الجلد . وأديم الأرض والسماء : ما ظهر منها .
(٢) الرجراجة : المتحركة المتاوجة . (٣) المترجحة : المهتزة المضطربة .
(٤) بلى الشىء : تهيأ للبناء .
(٥) موحش : مظلم يبعث على الوحشة والانقباض .
(٦) زفر الرجل : أخرج نفسه مع مده إياه ، من ضيق وحزن .
(٧) الحائمة : الطائفة . (٨) المجدودين : جمع مجدود ، وهو ذو الحظ الموفق.
(٩) المحدودون : جمع محدود ، وهو ضد المجدود . (١٠) الحائلة : المتغيرة .
(١١) الحائمة : أى التى لا تفتأ تدور حول النار أو النور .
(١٢) المدارج : جمع مدرج ، موضع الدروج ، وهو المشى .
(١٣) الأفاحيص جمع أفحوص بضم الهمزة ، وهو الموضع الذى تفحص القطاة التراب عنه ، لتبيض فيه . (١٤) القطا : جمع قطاة ، وهى طائر فى حجم الحمام.
(١٥) النؤى : الحفرة التى تحفر حول الخيام ليذهب فيها السيل .

على شاطىء البحر ، والدودة الممتدة فى باطن الصخر ، فهو من خياله الواسع فى نعمة دائمة لاتنفد ولا تبلى .

أنت كالطائر السجين فى قفصة ، فزق عن نفسك هذا السجن الذى يحيط بك ، وطر بجناحيك فى أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت فى جنباته وأكنافه(١) ، واهتف(٢) بأغاريدك(٣) الجميلة فوق قمم(٤) جباله ، ورءوس أشجاره ، وضفاف(٥) أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد .

إبراهيم بك المويلحى

المتوفى ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م

أديب فحل ، وكاتب مطبوع ، ومثقف واسع الثقافة ، ذلك هو إبراهيم بك ابن السيد عبد الخالق المويلحى . أصل أجداده من مرفأ المويلح ببلاد العرب ، وقد انحدروا إلى مصر من زمان بعيد . وولد إبراهيم فى مصر ونشأ بها . وكان أبوه من كبار المتجرين فى الحرير . وبيته ، على العموم ، معروف بالحسب والغنى . ولما نال حظاً من التعليم الابتدائى أراده أبوه على التحرر للتجارة ، ولكن رغبته فى العلم وشغفه بالأدب ، دفعا به ، مع اشتغاله بالتجارة ، إلى مطالعة الكتب ودواوين الشعر .

وكان من أول من تهدوا فى هـــذه النهضة إلى الأدب القديم ، وأخذوا بروعة بلاغته وسحر بيانه . وأخذ عن السيد جمال الدين الأفغانى ، وصاحب كبار العلماء والأدباء فى مصر فتروى عنهم وروى لهم ، وحذق الفرنسية والتركية ، وجود التاريخ القديم ، والحديث . وقرأ من الكتب فى الوان العلوم والفنون ماشاء الله ان يقرأ . وما برح يروض قلمه على البيان متحللا من قيوده فى ذلك

---

(١) أكنافه : نواحيه . (٢) اهتف : مد صوتك .

(٣) الأغاريد : جمع أغرودة ، وهى غناء الطائر .

(٤) القمم : جمع قمة وهى أعلى الجبل .

(٥) الضفاف : جمع ضفة ، وضفة النهر ، جانبه .

العصر شيئا فشيئا ، مترسما أثر الجاحظ وغيره من فحول الكتاب ، مع رعاية العصر وأسبابه ، حتى أوفى على الغاية من صناعة القلم .

وكان المويلحي ملتهب الذكاء ، حاضر البديهة ، شديد الطبع ، عضب اللسان ، مغامرا ، لايرى الرضا بما يجيء من العيش إلا ضربا من العجز والسكون إلى ما يسكن به الناس إلا من ضعف الهمة ، فالحياة عنده وثب ومجازفة وانتزاع ، فلما قضى أبوه غامر بتجارته فأتت مغامرته على رأس المال ، فنفحه الخديو إسماعيل بمال جليل إبقاء على هذا البيت القديم ، ولكريم موضعه عنده . فالبث هذا المال أن ضاع أيضا . فأقامه عضوا فى مجلس الاستئناف ، وتقلب فى مناصب أخرى ، واشترك فى تأليف جمعية دعيت (جمعية المعارف) لإحياء الكتب القيمة . وأنشأ فى سنة ١٢٨٥ هـ مطبعة لطبع تلك الكتب . وأنشأ مع المرحوم محمد عثمان جلال بك جريدة (نزهة الأفكار) لكنها عطلت ، على أنه لم ينقطع عن الكتابة فى الصحف إلى أن أدركته الوفاة ، ولما غادر الخديو إسماعيل مصر إلى إيطاليا دعا به ليتخذه كاتب سره ، فلبث هناك بضع سنين ثم رحل إلى الآستانة ، فأكرم السلطان وفادته ، وأقامه عضوا فى مجلس المعارف ، فلبث هناك بضع سنين كذلك . ثم عاد إلى مصر وأنشأ صحيفة أسبوعية دعاها (مصباح الشرق) كانت نموذجا من أعلى نماذج الأدب الحر فى هذا العصر يتطلع إليها المتأدبون فى شوق ولهف . لما تطالع به من مصفى الكلام ومنتقاه ، وأبدع البيان وأحلاه فى أبواب السياسة والعلم والفلسفة والأدب ويترقبها الكبراء فى قلق ووجيب قلوب ، كل خشية أن تدمغه بنقدها المر الأليم . فلقد كان المويلحي أقدر كتاب العربية على النقد وأمرهم ، وأوجعهم فى غير ما نهش للعرض ، ولا نشوز على احكام القانون . وكان يعاونه فى تحرير هذه الصحيفة ولده محمد بك المويلحي الذى كان يكتب رسائل (حديث عيسى بن هشام) . واخيرا توفى عام ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م .

والمويلحي يمتاز بجزالة اللفظ ، وحلاوة العبارة ، ودقة الوصف ، والتفطن إلى الدقائق التى لايتفطن إليها كثير ، والوقوع على المعانى الغريبة التى تثير فى النفس عجبا ، وتشيع فيها طربا ، وحضور الشاهد على كل ما يكتب من شعر قديم ، أو حكمة مأثورة ، أو حادثة كثيرا ما تكون راكدة فى إحدى زوايا التاريخ ، حتى

يبعثها المويلحي ليكمل بها غرضه في رشاقة لاتتهيأ إلا للأقلين من الناس . أما قدرته على النقد فقد أوفى بها على الغاية . وقد شرع المويلحي أسلوبا من البيان لم يكن للناس عهد به . وهو يعد ، بحق ، من أقوى دعائم النهضة الأدبية الحديثة . وله شعر جزل بديع . وله كتاب اسمه (ماهنالك) لم يضف إليه اسمه ، وصف فيه بلاط السلطان وحال الحكم التركي في تلك الأيام .

ومن نماذج كتابته في الشكوى بلسان حاج يصف ما رأى إحدى السنين في الحج من فتك الوباء [١] بالحجاج وإهمال السلطات شأنه وشأنهم . وقد ترجمه إلى التركية ، وعرضت على السلطان عبد الحميد :

كذا فليجل[٢] الخطب وليفدح[٣] الأمر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

يقول الشاعر البيت الجزل من الشعر لغرض له حقير ، ثم يتركه ويأتي من بعده من يضعه موضعه اللائق به من حوادث الزمان . وإن هذا البيت لايحل محله في رثاء واحد من الناس ، وإنما يقال ليبكى به ما أصاب المسلمين في مكة هذا العام . ولا غرو [٤] أن ترتعد اليد ويقف القلم ، ويتلعثم اللسان عند وصف ما فعلته المنية ، حين قامت تفتك في الأرواح ، وتهتك في الأشباح[٥] ، حتى فرشت الأزقة بالموتى ، وأقامت منهم كثبانا [٦] تشهد على عجز القوم عن تدارك الأمور .

ولقد رأيت من المناظر المدهشة ما تتصاغر عنده عظيمات النوائب ، وتتضاءل لديه جسيمات المصائب . فمن ذلك أني رأيت شابا عليه شارة[٧] الحشمة والنجابة ، يتخبط في التراب ، ولا يستطيع إشارة ولا كلاما ، وإنما كان يطلب بعينيه المملوءتين بالدمع أن يدنو منه أحد المارة ، فدنوت منه فوجدته قد مات . فأبكاني موته غريبا عن أهله وقومه على تلك الحالة المؤلمة ، فطلبت بالأجرة من يدفنه فلم أجده

---

(١) الوباء : المرض العام ينزل بالبلد فيصيب أهلها ويتفشاهم .
(٢) فليجل : فليعظم .
(٣) فدح الأمر : ثقل وصعب احتماله .
(٤) لاغرو : لا عجب .
(٥) المراد من الأشباح هنا : الأجسام .
(٦) الكثبان : جمع كثيب ، وهو التل من الرمال .
(٧) الشارة : العلامة والدلالة .

أحداً ، على إفراط حب المال في هذا البلد . فكتبت ورقة وأرسلتها إلى قاضي مكة أسأله المعونة على دفن هؤلاء الغرباء المطروحين تحت أقدام الناس في الطريق ، فأجابني بأن هذا لا يعلق[1] بشيء من وظيفته ، ولا يخصه الاشتغال به ! فسألت عن غيره من أصحاب الحل والعقد[2] ، فوجدتهم قد طاروا إلى الطائف وتركوا مكة للقتل العام . وبينا أنا حيران في وسط هذه المقبرة المكشوفة ، إذ لاحت مني التفاتة إلى الموتى فرأيت ، وليتني لم أر ، امرأة اختطفتها المنية من بنت لها صغيرة لم تبلغ سن التمييز بين النوم والموت ، وقد شرعت تلك الصغيرة تحرك أمها بيديها لإيقاظها ، وتبكي لعدم إجابتها ، بعيون تقسمت نظراتها بين السماء والأرض ، وتمدها في خلال تلك النظرات المبهمة أنها لا تعود لشيء كانت نهتها عنه ، بعبارات تستخرج الحنو[3] والشفقة من القلوب الصخرية . فأمسكت بالبنت ولا أقدر أن أصف لك كيف وصلتها عن رمة[4] أمها ، وكيف كان حالها وحال من يراها عند آخر نظرة نظرتها إلى والدتها وكافلتها[5] .

ثم قفلنا إلى جدة مشتتين . فعلمنا أن الدولة قد أرسلت وابورا لنقل الحجاج وليتها لم ترسل ، فإن قبطان الوابور كان أشد قسوة على الحجاج من الموت ؛ أمر أولا بإلقاء قسم مما كان معهم من الأزواد[6] في البحر بدعوى المحافظة على الصحة ثم أخذ يبيع لهم ثانيا ، وهم في اللجة[7] مما احتكره من القوت . بيع القحط اليوسفي[8] ، ولما لم يبق معهم من النقد شيء ، شرع يبيع لهم بما معهم من الهدايا والسبح . وكان الجبار لا يحب أن يسمع بمريض في السفينة ، ولهذا اضطر كثير

---

(١) يعلق : يتصل ، أي ليس من شأنه .

(٢) المراد أهل التصرف في الأمور ، وهم رجال الحكومة .

(٣) الحنو : الحنان

(٤) الرمة : الجثة .

(٥) الكافلة : التي تكفله وتقوم على أمره .

(٦) الأزواد : جمع زاد ، وهو ما يتخذ من الطعام للسفر .

(٧) أي في عرض البحر .

(٨) القحط الذي أصاب مصر ، وذكر في القرآن في سورة يوسف .

أن يكتموا أمراضهم . وما زلنا معه على شفا[١] الخطر إلى أن وصلنا إلى الطور ، فلقينا هناك من كبرياء الأطباء وعظمتهم ما تمنينا له أن نكون طعما[٢] للحيتان ، فإنهم كانوا يأنفون أن يمسوا أيدي الحجاج بأيديهم ، وكانوا يكتفون بالنظر الشزر[٣] إليهم، وكثيراً ما كانوا يعترضون على الحجاج . فاعتقدت أن الخير ارتفع إلى السماء ، وأن الأرض أصبحت قاعا صفصفا[٤] من نوع الإنسان . وأن الذين تراهم هم شياطين على صورة البشر

وقصارى القول أنا فى زمن أصبح القابض على دينه فيه كالقابض على الجمر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن كتاب له :

« أكتب كتابى هذا إليك ، ونفسى تنظر إلى نفسك فى علوها وارتفاعها نظر السلحفاة إلى الأجدل[٥]، فوق شرفات المجدل[٦] ، وتحدثنى : لو مدّ لى طريق قضبانه من الذهب لا الحديد ، ومركباته من اليواقيت ، وسائق آلته جبرائيل ، ليبلغنى بلداً أساكن فيه هؤلاء القوم ، لفضلت الجلوس حيث أنا الآن ، أكتب لك هذا الكتاب تحت ظل هذه الشجرة ، لا أظلم ولا أظلم ! »

---

(١) الشفا : حرف كل شيء .

(٢) الطعم : الطعام .

(٣) النظر الشزر : هو النظر بجانب العين دليلا على الإعراض أو الغضب .

(٤) الصفصف : المستوى المطمئن ، والمراد : أنها خالية لا أحد بها .

(٥) الأجدل : الصقر .

(٦) المجدل بكسر الميم وفتح الدال : القصر .

محمـــد بك المويلحي

المتوفى عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م

بدأ المويلحي حياته الأدبية عقب الثورة العرابية، وقد انتهت إلى غير ما قدره رجالها وأنصارها، دكت صروح ظلم وهتكت أستار جور وختمت عهد فساد وأذكت شعلة وطنية، ولكنها لم تخلص بالمصريين إلى فضاء الحرية الرحب، وبدلت مصر قيداً بقيد وغلاً بغل، وعلم أنها ستكون فترة جمام وتجمع، يعقبها هبة فسكالك وتحرر، فهو يرجو ألا تطول هذه الفترة؟ وود المويلحي أن لا تكثر فيها محن الأمة. وخشي أن تشتبه عليها السبل فتطول الشقة ويضنى السير، فهو يهدى إلى أقوم سبيل وأقرب طريق، وخاف أن تلتبس عليها الوسائل فهو يميز لها الحق من الباطل والصالح من الفاسد، ويرى في كل ذلك الرأي الناضج الراجح. قد تخالفه في بعضه ولكنك لا تستطيع أن تصرف له رأياً بابتسامة أو هزة كتف، بل لا بد لك أن تحتفل وتقرع الدليل بالدليل وتدفع الحجة بالحجة.

وهكذا أخرج للمصريين حديث عيسى ابن هشام نجماً في مصباح الشرق، وجلى للناس تلك الطليقة الموسوية كما قال السيد جمال الدين، يبدأ الكتاب بلمحة إلى الماضي فإذا هو صورة قاتمة كريهة، مصر فيها بقرة حلوب يسرف في حلبها ولو عجفت ويستأثر رعاتها بدرتها ولو هلك صغارها، ثم تلفت والمصري فلاح ممتهن، خلق في رأي السادة للمحراث والساقية والبذر والحصاد، يقتل في هفوة، ويضرب في غير جريرة، وليس له مما تخرج يده من كنوز أرضه إلا ما يقيم الصلب، وحسبه من مطامع الحياة أن يطمع في حق العيش، والحكم صولة عاتية على أهل البلاد، واستخذاء ذليل للأجنبي، ووسيلة لابتزاز المال ظلماً وبغياً وكنزه لعصبية لم تقومهم تربية ولم يثقفهم علم، ليعيثوا فيه بعد من جمعه فساداً، وليجعلوه طعمة لشذاذ الآفاق من غـــير المصريين. والعلم تفكك لا تفقه، والبراعة فيه التماس وجوه الحيل إرضاء لأهواء المتسلطين، واستدراراً لبرهم، فهو ظلمات بعضها فوق بعض، حتى ما فقد بمجيئه لأهل ذاك الزمان من الوقار وحسن السمت

وجلال المجلس بمكره سخف الحديث وخفة العقل وفسولة الرأى .

يفرق المويلحى ذلك فى صحائف كثيرة ويفصله فى سخرية مرة حزينة ، ثم يجمعه جملة فيصبه على رأس الباشا ـ الذى نشره من القبر ليمثل ذلك العصر ـ جاما كاويا محرقا ، وليس من المستطاع فى هذا المقام دون إخلال أو املال تلخيص آرائه السديدة التى بثها فى صحائف عديدة بارعة ، راوح فيها بين الجد الرصين والدعابة الرقيقة ، والسخرية اللاذعة وتناول بها ماجل ومادق من شؤون الحياة باللمحة الدالة حينا ، والتفصيل المحيط أحيانا ، وتغلغل فيها إلى أعماق النفس المصرية درسا وتحليلا على اختلاف الطبقات فى المراتب وتفاوت الدرجات فى العلم وتباينها فى أسباب المعايش ، وقد خشيت أن أطيل بتلخيص آراء المويلحى كلها ، ولعل مما يروق أن أشير إشارة سريعة إلى بعض مارآه ذلك المفكر المدقق منذ ثلاثين سنة فى شؤون بدأنا نعالجها منذ عهد قريب وما زالت تشغل الأذهان إلى الآن .

كان التعليم نتفا وأشتاتا يحشى بها رأس الطالب دون أن يفقه لها مزية فى ذاتها ، أو يذوق لها حلاوة فى طعمها ، ليؤديها كالببغاء عند الامتحان ، فإذا أسعده الحظ بالنجاح نفض منها يده ، وتأبط صك الشهادة يطوف الدواوين طلبا للمنصب ، فإن هو بلغ اربته أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء ؛ وهذه المناصب التى افتتن بها الشباب أصغر من أن تكون المطمح الذى تنتهى إليه الآمال ، فهى حرية مغلولة لقاء كسب يسير يعد له الموظف ساعات اليوم وأيام الشهر ، ويربحه أرباب الأعمال فى يوم واحد وهم أهنأ عيشا وأوفر كرامة . وعلماء الدين يجب أن يتوسعوا فى الاطلاع ويتبحروا فى العلوم الحديثة دون أن يثنيهم ذلك عن العلوم الشرعية ، فإنه ليس هناك دين يحث أهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأى وجه من الوجوه كالدين الإسلامى . والوقف لا يحصن مالا ، ولا يصون ثروة ، وطالما اغتال النظار حقوق المستحقين ، وطالما ذهب ضياعا بين القضايا والدعاوى والديون ، وآل ريعه جملة إلى المرابين ، وخير ما ترك للأبناء من ميراث : إحسان تعليمهم وتهذيبهم ورياضتهم على معرفة قدر المال .

وقد وصفه شوقى فى مرثية له فيه فقال :

كاتب محسن البنان صناعه   استخف العقول حينا يراعه

ابن مصر وإنما كل أرض   تنطق الضاد مهده ورباعه
إنما الشرق منزل لم يفرق   أهله إن تفرقت أصقاعه
وطن واحد على الشمس والفصـ   حى، وفى الدمع والجراح اجتماعه
علم فى البيان وابن لواء   أخذ الشرق حقبة إبداعه
حسبه السحر من تراث أبيه   إن تولت قصوره وضياعه
إنما السحر والبلاغة والحكـ   ـمة بيت كلاهما مصراعه
فى يد النشء من بيان المويلحى   مثل يتفع الشباب اتباعه
صور من حقيقة وخيال   هى إحسان فكره وابتداعه
رب سجع كرقص الشعر لما   يختلف لحنـــه ولا إيقاعه
أو كسجع الحمام لو فصلته   وتأنت به ودق اختراعــــه
هو فيـــه بديع كل زمان   ما بديع الزمان ، ما أسجاعه
عجب الناس من طباع المويلـ   حى وفى الأسد خلقه وطباعه
فيه كبر الليوث ـ حتى على الجو   ع ، وفيها إباؤه وامتناعه
تعب الموت فى صبور على النز   ع ، قليل إلى الحياة نزاعه
صارع العيش حقبة ليت شعرى   ساعة الموت كيف كان صراعه ؟
قهر الموت والحياة وقد نحـ   كم فى رائض السباع سباعه
مهجـــة حرة وخلق أبى   عى عنه الزمان وارتد باعه
فى الثمانين يا محمـــد علم   لعليم وإن تناهى اطلاعه
لم تقاعدت دونها وتعالى   سائق الفلك واضمحل شراعه
نعم فاتت البيان وخير   كان غبنا على العقول ضياعه
رب شيب بنت صروح المعالى   سنتاه وشادت المجد ساعه
فيه من همة الشباب ولكن   ليس فيه جماحه واندفاعه
سيد المنشئين حث المطايا   ومضى فى غبـــاره أتباعه
حطهم بالإمام الموت ركب   يتـــلاقى بطاؤه وسراعه
فتحوا بالتراب وجها كريما   كان من رقعة الحياء قناعه

كسنا الفجر فى ظلال الغوادى ... كرم صفحتاه ، هدى شعاعه
يا وحيداً كأمس فى كسر بيت ... ضيق بالنزيل رحب ذراعه
كل بيت تحله يستوى عنـ ... ـدك فى الزهد ضيقه واتساعه
نم مليا فلست أول ليث ... بفلاة الإمام طال اضطجاعه
حولك الصالحون طابوا وطابت ... أكلات الإمام منهم وقاعه
قلدوا الشرق من جمال وخير ... ما يؤود المفنـــدين انتزاعه
أسست نهضة البناء بقوم ... ويقوم سما وطال ارتفاعه
كل حى وإن تراخت منايا ... ه ، قضاء من الحياة انقطاعه
والذى تحرص النفوس عليه ... عالم باطل قليل متـــاعه

ورثاه حافظ فقال من مرثية طويلة :

لو شهدتم محمــداً وهو يملى ... آى عيسى ومعجزات الكتاب
وقفت حوله صفوف المعانى ... وصفوف الألفاظ من كل باب
لعلمتم بأن عهد ابن بحر ... عاود الشرق بعد طول احتجاب
أدب مستو وقلب جميع ... وذكاء يريك ضوء الشهاب
عند رأى موفق ، عند حزم ... عند علم يفيض فيض السحاب
جل أســلوبه النقى المصفى ... عن غموض ونفرة واضطراب
وسما نقده النزيه عن الهجر ... فما شيب مرة بالســباب
ذقت فى غربة الحياة عناء ... فذق اليوم راحة فى الإياب
بلغ البابلى عنى ســلاما ... كعبير الرياض أو كالملاب
كان تربى وكان من نعم المبدع ... ســبحانه على الأتراب
فارس فى الندى إذا قصر الفر ... سان عنه أو فارس فى الجواب
يرسل النكتة الطريفة تمشى ... فى رقيق الشعور مشى السراب
قد أثار المحمدان دفينـــا ... فى فؤادى ، وقد أطارا صوابى
خلفانى بين الرفاق وحيدا ... مستكينا ، وأمعنا فى الغياب

وكتب عبد العزيز البشرى عنه يقول : من أكثر من ثلاثين سنة خلت ، ولما أزل بعد فى أيام الفتوة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم « مصباح الشرق » فى أربع صفحات دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة . ويقوم بتحريرها إبراهيم بك المويلحى وابنه السيد محمد المويلحى ، وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفسولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات حدا بعيدا .

لقد كان « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً ، لقد كان أبلغ من طريف ، فإنه لأعجوبة حقاً ، لقد كان « مصباح الشرق » أبلغ أعجوبة . إنه لشيء يكاد يتصل بحكم الخوارق فى تلك الأيام ! بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخير ، وديباجة مشرقة ، وصيغ مونقة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه السهل الممتنع . أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة فى سياسة الأمم وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكر المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف اللغات ، فى عبارة عربية بليغة سلسة ناصعة واضحة لا تستروح منها أى ريح للاستعجام . وهل رأيت قط ترجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف فى النقد ، نقد الأشخاص ، لا عهد للأدب العربى به من قديم الزمان ، بل لعله لا عهد له به من أول الزمان ! لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثا حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة فى هذه البلاد ! لا يدخل الأصيل فى يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرشت جباه ، وتقلصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، ووجفت قلوب . هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس . ؟ هكذلك كان يترقب الخاصة مشرق « المصباح » ، وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان ما يشيع البصر كله فى مساحة النقد كلها ، لا يستقر على موضوع خاص ، ولا يتحيز فى حديث معين . بل إنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلحى اسم صاحبه فيمن شك أم أرسله فى جملة الطلقاء ؟ ! حتى إذا اطمأن الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة بجمته ، ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نفسه ، ويبسط من خلقه ما تقبض ، ويفرخ من روعه ما تحبس . وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيين ، فاحكم أنت ، عصمنا الله وإياك ، كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ؛ على أنه مما ينبغى أن يذكر هنا ، أن « المصباح » لم يكن

يعرض قط لأعراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتدسس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم ، بل لا يتناول من أمورهم إلا ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم ، وظاهر أعمالهم . فلقدكان « المصباح » أجل من ذاك موضعاً وآنف كرامة . وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لاعهد لأدب مصر به بل لا عهد به للأمم العربية جمعاء . وهـــذا النوع من النقد يقوم فى الجملة ، على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل ، فيعرضه بالقلم فى صورة « كاريكاتورية » يزيد فى تشويهها ما يتوافق لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يحضره من فنون الاستشهاد والتمثيل ، ولا يبرح يمط الموضوع فى هـذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة ، والملابسات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهى إلى ما لا ينتهى إليه أحد من الناقدين ! .

ولقد كان هـذا من « مصباح الشرق » الأصـل الثابت لهذا اللون من النقد « الكاريكاتورى » فى مصر . كما كانت صحيفة المويلحيين « أبوزيد » أول ماعرف، فيما أعرف أنا ، من التصوير « الكاريكاتورى » فى هذه البلاد .

لم يقف خطب « مصباح الشرق » إلى هذا الموضع فحسب ؛ بل لقد كان ـ على أنه صحيفة لا تظهر فى جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ـ يروى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة ما لا تبلغه الصحف اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذكاء عيونها الكثيرة فى طلبه وتقصيه ، فكانت أمهات الصحف اليوميـــة لا تتحرج فى كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار نقلا عن « مصباح الشرق » الأسبوعية مضافة إليها معزوة لها . وفضل « المصباح » فى هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم بك المويلحى عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار . ولا أحب أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « المصباح » أول من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقرية ابن الرومى ، بما كان يختاره لها من بدائع المنثور وروائع المنظوم ، قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان ، وأول من عالج النقد الأدبى لما تتضح به قرائح الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع العالى ، الذى جمع بين أساليب النقد فى أزكى عصور العربية وبين طرائقه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان .

وعلى الجملة ، فلقد فتح « المصباح » فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى « مصباحا » حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام . وبهذا وهذا أصبح « مصباح الشرق » أكبر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد . ومما ينبغى أن يذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء تعاظمتهم سطوة « المصباح » فى باب النقد ، فحسبوا له كل حساب ، ويا ويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والإحسان . ولست أغلو إذا زعمت أنى فى مطلع نشأتى الأدبية كان « مصباح الشرق » عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى . وبهذا كنت شديد الإكباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيغه ، وطرائف عباراته . حتى لقد كنت أشعر أنى أترشفها ترشفاً لتدور فى أعراق وتخالط دمى ، وتطبع ملكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل النافذ الطريف . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ! ولقد كنت فتى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح « أحاديث عيسى بن هشام » زادنى وزاد لداتى به فتونا .

ومحمد بك هو ابن إبراهيم بك المويلحى ، ودراسته المنظمة لم تتجاوز التعليم الإبتدائى ، ثم جعل يتعلم على أبيه ، وبكب على قراءة الكتب فى العلوم والآداب ، ثم اتصل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب : من أمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وغيرهم من أعلام عصره ، فحذق العربية وبرع فيها ، وجود البيان أيما تجويد ، وهيأ له جده واضطرابه فى أسفاره بين الشرق والغرب تجويد اللغات الفرنسية ، والتركية والإيطالية ، كما أصاب حظاً من الإنجليزية واللاتينية . وكان كثير القراءة إلى غاية الهمات ، فلا تكاد تقتحم عليه إلا رأيته يعالج بالتنسيق حديقته ، أو يقرأ فى كتاب يجرى فى إحدى هذه اللغات .

ومن نماذج كتابته ما كتبه من مصر إلى منيف باشا وزير المعارف فى تركيا يعزيه فى ابنته : إلى الوزير الذى ترتعش بنظرة منه عقد السياسة ، حتى تنحل من شدة الارتجاف ، والأمير الذى يتعش به سروراً دست[1] الرياسة ، حتى يقيه

---

(١) الدست : الكرسى .

على الأسلاف ، والفيلسوف الذى تفرعت عنه أصول الحكم ، والهمام الذى أعيا النجوم أن تباريه فى علو الهمم ، والرفيع الذى سارت عنه أمثال المجد المؤثل[١] وانتشر على السمار[٢] حديث فضله المرتل :

إلى قطب[٣] الدنيا الذى لو بفضله مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله

من عبد لدولته ، له الشرف الأسنى بهذه النسبة بعد أبيه ، والفخر الأعلى بذلك وأفانين التيه[٤] . دهمه خبر المصاب الذى أنقض[٥] ظهره ، وأرضى دهره[٦] ، على أن الموت ـ أطال الله بقاء المجد بطول بقائك ، وأدام رونق الفضل بدوامك ـ باب من أبواب الطبيعة لا مفر للانسان من ولوج فيه ، وعون من أعوان الحياة لابد للحى من توافيه[٧] . واسم الحياة لا معنى له بغير اسم الموت ، ولفظ العيش متضمن للفظ الفوت[٨] . ولقد قيل لحكيم مثلك : ما سبب موت فلان ؟ قال : كونه[٩] ! فعجيب بعد ذلك أن ابن آدم فى ثكله حزنه . وإنى أتيقن أن مولاى الوزير ما تجاسر أن يلبس أذياله رسول الحزن والأسى ، ولا عارض نور حكمته عارض من ظلمة ذاك الدجى[١٠] ، وما تسنى لطفيلى الفزع أن يتلمظ[١١] على مائدة حلمه بعد ارتقاء هضباته[١٢] ، ولا طمع أشعب[١٣] الجزع فى استجداء من معدن وقاره وثباته . لكنها الفقيدة التى اختارت روحها فداء لبنات معاليك ومجدك ، ورضيت أن تكون نفسها زكاة لكنوز فضائلك وسعدك ، تستوجب من جهتين

---

(١) المؤثل : الأصيل الثابت .

(٢) السمار : المتسامرون ، المتحدثون ليلا . وفى الليل يجتمع الناس عادة للتحدث

(٣) قطب الشىء : مداره وملاكه الذى يعمل به . وقطب القوم : سيدهم الذى يدور عليه أمرهم .

(٤) التيه : الكبر والخيلاء .

(٥) أنقض ظهره : أثقله .

(٦) كل امرىء يحسب دهره عاملا على إيذائه يرضيه أن يتوالى عليه الضرر ، وينزل به المكروه .

(٧) توافى إلى المكان : حضر إليه .

(٨) الفوت : الهلاك .

(٩) كونه : أى حياته .

(١٠) الدجى : الظلمة .

(١١) تلمظ الشىء : تذوق قليلا منه .

(١٢) هضبات : جمع هضبة ، وهى المكان المرتفع .

(١٣) أشعب : اسم رجل يضرب به المثل فى الطمع .

لا من جهة ، أنواع الأسف ، وينبغي لها إرسال الدمع المنذرف(١) ، واحتراق الكبد عليها من طرفين لا من طرف : الأول : أن الوردة قد اقتطفت قبل إبانها(٢) ، وانتزعت من أفنانها(٣) قبل أوانها ، واقتنصت الظبية من حبائلها ، قبل استكمال مخايلها(٤) ، واختطفت الحمامة من وكرها قبل أن يطوق جيدها ، وينتظم نشيدها ، واقتصف الغصن قبل إثماره ، وانمحق(٥) الهلال قبل إبداره . وحين البدء في دور من أدواره ، وشعاع أمل لف عليه السحاب رداءه ، وساعة سرور نبذها حسد الأيام والليالي وراءه :

إن الفجيعة بالرياض نواضراً لأجل منها بالرياض ذوابلا

والثاني : لأني لست من رأى من ينسب إلى النبي أنه قال : « نعم الختن القبر(٦) » ولا من رأى العرب حين تبجح بمصاهرة(٧) القبور ، وهضم حق الإناث وتفضيل الذكور . ولا أراني من مذهب الشيخ المعرى (٨) ومن قبله حيث يقول :

ودفن ، والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المكرمات(٩)

ولا من جانب الفرزدق ويروى عنه :

وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرء من أصحابه من تقنعا

ولا ألتفت لناحية البحتري وينشد له :

ولعمرى ما العجز عندى إلا أن تبيت الرجال تبكى النساء(١٠)

---

(١) المنذرف : السائل .

(٢) إبان الشيء : وقته . أي قبل اكتمال نضرتها .

(٣) جمع فنن وهو الغصن المستقيم . (٤) مخايلها : صفاتها ومحاسنها .

(٥) انمحق : اضمحل وانمحى . (٦) الختن : زوج الابنة

(٧) كان العرب يكرهون البنات خشية العار ، وربما دفنوا البنت حية . وقد أبطل الإسلام ذلك . (٨) هو أبو العلاء المعرى الشاعر الفيلسوف .

(٩) هذا البيت من قصيدة له كلها تهجين للمرأة وازدراء بها .

(١٠) من قصيدة له يعزى فيها عن بنت توفيت .

فسيان فى حكم الطبيعة مقنع(١) بلامة(٢) الحديد فى الهيجاء(٣) ، ومقنعة بلامة(٤) الحرير من النساء . وإنما الفضل بينهما لمن جاء بالعاقبة الحسنى ، ولمن قل ضرره وأتى بالنفع الأسنى(٥) ، وشتان فى حكم الإنسانية بين قائد للجيش معلم(٦) ، وعذراء تطرز فى ثوبها وتنمنم(٧) . ذاك يشير بنانه لتيتيم الأطفال ولتخريب البلاد ، وتلك يشير بنانها لحبات القلوب بعقد الوداد . وفرق عظيم بين يد مخضبة بالدماء ، وأخرى مخضبة بالحناء ، وبين من يحتضن الأطفال ويربيها ، وبين من يشتتها ويعذبها ، وبين كف لا حلية لها إلا السيوف البواتر ، وأخرى إنما حليتها الخواتم والأساور ، وكم جلبت تلك من فظائع مشهورة ، وكم لهذه من يد بيضاء مشكورة :

وليس الخمس(٨) ضاربة بسيف ... نظير الخمس ضاربة بدف
أباغى حظه بقنا(٩) وخيل ... كباغيه بمنوال وحف(١٠)

ومولاى — أعز الله الفضل بوجوده — يعلم حكاية إحدى العذارى مع عبد الله بن طاهر إذ ردت بوقفة منها أمام الجيش غرب(١١) الجيش عن قصده ، وأدخلت سيف القاهر الجبار فى غمده ، ونجت قومها من الخراب ، وأنقذتهم من أليم العذاب ، حتى قال عبد الله قصيدة فى ذلك ، منها :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ ... ـل(١٢) على أننا نذيب الحديدا
طوع أيدى الغرام تقتادنا الغيـ ... ـد(١٣) ونقتاد بالطعان الأسودا

---

(١) تقنع الشىء : لبسه .
(٢) اللامة : الدرع ، وهو ما يتقى به المحارب سلاح عدوه .
(٣) الهيجاء : الحرب .
(٤) أى لابسة ثوب حرير .
(٥) الأسنى : الأرفع .
(٦) معلق به صوف ملون فى الحرب .
(٧) نمنم الشىء : زخرفه وزينه .
(٨) يريد الأصابع الخمس .
(٩) القنا : الرماح .
(١٠) الحف : المنسج .
(١١) غرب الشىء : حده ، والمراد : ردته عن وجهه .
(١٢) النجل : جمع نجلاء ، وهى العين الواسعة الحسنة .
(١٣) الغيد : جمع غيداء ، وهى اللينة الأعطاف .

والأخرى التى لها ما يماثل ذلك مع أحد ملوك الفرس ، وهو يحارب قومها فى بلاد يهودا أثناء الزمن الأول ، إلى غير ذلك من هذه الوقائع .

هذا ما قوى وقع المصيبة فينا ، وأمد(١) جيوش الهموم علينا . أما مولاى الوزير فمما يبعد الأسف منه ، ويزيل الكدر عنه ، علمه بضوء حكمته ، ونور فلسفته ، أنه مافقد تلك الفقيدة ، وماصارت عنه بعيدة ، فهو يستنشقها فى روائح الأزهار ، ويراها فى أغصان الأشجار ، ويسمع صوتها فى صوت الأطيار ، وتمر عليه فى ريح الصبا(٢) من ليالى الربيع ، ويشاهدها فى كل شكل لطيف أو بديع . ألهمنا الله عليها جزيل الصبر ، وألبس مولاى الوزير ثوب الأجر ، إن شاء الله .

وقال فى وصف الصباح من كتابه : « حديث عيسى بن هشام » :

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، من قديم فى الزمان وحديث ، إلى أن صارت الليلة فى أخريات الشباب ، واستهانت بالإزار والنقاب ، ثم دب المشيب فى فودها(٣) وبان أثر الوضح(٤) فى جلدها ، فعبثت بالعقود والقلائد ، من الجواهر والفرائد ، ونزعت من صدرها كل منثور ومنظوم ، من درر الكواكب ولآلئ النجوم ، وألقت بالفرقدين (٥) من أذنها ، وخلعت خواتم الثريا(٦) من يديها ، ثم إنها مزقت جلبابها ، وهتكت حجابها ، وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء(٧) ، ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء(٨) ، وتردد آخر أنفاس البقاء ، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء ، ودرجها(٩) الصبح فى أرديته البيضاء ، ثم قبرها فى جوف الفضاء ، وقامت عليها بنات هديل(١٠) نائحة بالتسجيع والترتيل ، ثم انقلب المأتم فى الحال إلى عرس اجتلاء ، وتبدل النحيب بالغناء ، لإشراق عروس النهار ، وإسفار مليكة البدور والأقمار .

---

(١) جاء إليها بالمدد . (٢) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق .

(٣) الفود : الشعر الذى فى جانب الرأس مما يلى الأذنين إلى الأمام .

(٤) وضح الجلد ما يصيبه من البرص ونحوه . ويكنى الكاتب به عن ضوء الصبح

(٥) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب الشمالى ، يهتدى بهما فى الليل ، وقد شبهما بالقرط فى أذن المرأة . (٦) مجموع كواكب .

(٧) مشى البياض فى شعرها . (٨) الجوزاء : برج فى السماء .

(٩) درجها : طواها . (١٠) بنات هديل : الحمام .

وقال فى وصف الأهرام :

وقفنا هنـاك موقف الإجلال والإعظام ، قبالة ذلك العلم(١) الذى يطاول الروابى والأعلام ، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام(٢) ، والبنية(٣) التى تشرف على رضوى وشمام(٤) ، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام ، وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام ، وتفنى بدوامهـا أعمار السنين والأيام ، خلقت ثياب الدهر وهى فى ثوبها القشيب ، وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب ، ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم ، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم ، وتحدث حديث المشاهدة والعيان ، ما تعاقب الفتيان(٥) ، وتناوب الملوان(٥) ، عن قدرة هذا الإنســان ، فى بدائع الصنع والإتقان ، وتنبىء عن قوة هـذا الضعيف الضئيل ، فى إقامة مثل هذا الأثر الجليل ، وكيف لهذا الفانى البائد ، أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد ـــ وجل صنع القدير الخالق ، فى تصوير هذا الحيوان الناطق ، حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة ، والأفعال المتغايرة المتعارضة ، فبينا تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها ، يجث بفكره فى رسومها ومعالمها ، ويســـير بعلمه فى أنحائها ومناكبها ، ويهتدى لباب أقمارها وكواكبها ، إذ تراه يعثر عثرة برجله فيكون فيهـا منتهى أجله ، لا يكبو فى طريقه ، فيغص بريقه ، ذاك الذى كبر وصغر ، وعظم وحقر ، وعز وذل ، وكثر وقل ، وصعد وهبط ، وعلا وسقط ، وصلح وفسد ، وعرف وجحد ، وسعد وشق ، وفنى وبق ، وسبحان القاهر فوق عباده .

---

(١) قبالة : أمام وتجاه . والعلم : الجبل .

(٢) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل .

(٣) البنية : البناء .

(٤) رضوى وشمام : جبلان .

(٥) الفتيان والملوان : الليل والنهار .

باحثة البادية ملك حفنى ناصف

— ١ —

حيـــاتها :

ولدت رحمها الله فى القاهرة يوم ٢ من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٦ ، وتوفيت بالحمى فى القاهرة فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩١٨ ، أى أنها عاشت اثنتين وثلاثين سنة فقط ، أنتجت فيها أدبا أثر فى الأدب العربى فى مصر ، ووجهت فيها نساء مصر ورسمت لهن الخطوط العريضة لحياة فاضلة كريمة حرة ، تتضح آثارها كل يوم حين تكسب المرأة المصرية حقوقا جديدة .

وحين كانت فتاة صغيرة فى السابعة من عمرها دخلت المدرسة السنية فى اكتوبر سنة ١٨٩٣ ، وحصلت على الشهادة الإبتدائية سنة ١٩٠٠ ، وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات لأداء الامتحان للحصول على تلك الشهادة ؛ ثم انتقلت إلى القسم العالى فى المدرسة المذكورة وحصلت على الدبلوم سنة ١٩٠٣ ، واشتغلت بعد ذلك بالتعليم فى مدارس البنات الأميرية ، ثم تزوجت عام ١٩٠٧ .

ونشأت الفتاة فى بيئة علمية أدبية محضة ، انحدر إليها الأدب من أبيها المحقق اللغوى حفنى « بك » ناصف الذى شغل كثيراً من المناصب الرفيعة فى نظارتى المعارف والقضاء . وألهبتها صورة البيت غير المتعاون : فالزوجة متاع ، والأبناء لا يعرفون شيئا عن أبيهم ، والأب نفسه يضع حاجزاً ضخما بينه وبين زوجته وأولاده ، وهزتها نشوة الحرية لبنات جنسها ، من استبداد الرجل .

وقد كتبت كثيراً ونشرت مجموعة مقالات تحت عنوان « نسائيات » ، كتبت توجه البيت المصرى ، وتوجه المرأة فى معاملتها لزوجها وتربيتها لطفلها ، وتوجه الدولة فى حمايتها للمرأة ، وتكلمت عن الزواج والطلاق ، وعن تعليم الفتـــاة ، ويمتاز أسلوبها الكتابى بأنه يتبع الطريقة الخطابية ، غير أنه يقال إنها فى خطبها الكثيرة كانت تتبع خطة المحاضر البسيطة وهى طريقة وسطى بين الخطابة الصرفة والحديث العادى .

ولو جردنا باحثة البادية من صفة الكتابة والخطابة والشعر ، لظلت الناقدة البارعة فى كل مقال كتبته أو حديث نشرته ، أو خطاب ألقته ، كانت ناقدة بفطرتها هذب فيها هــذه الملكة درس عميق ، وحساسية قوية ، ثم معرفة تامة بجميع الطبقات المصرية ، فهى وإن كانت من الطبقة العليا من ناحية أبيهـا ومن ناحيـة زوجها عبد الستار الباسـل زعيم قبيلة الرماح بالفيوم ، إلا أنهـا صديقة الطبقة الوسطى فى المدرسة كتلميذة أو كمدرسة ، ثم أنها عرفت الفلاحة العاملة التى تكافح فى الحياة فى بيئتها الريفية أثناء وجودها فى قصر الباسل بالفيوم . وكانت تقارن بين هذه الكادحة وتلك المدللة فى قصرها ، فتجد أن المرأة هى هى ، سواء كانت فقيرة أم فاحشة الثراء ، وإن تغيرت المظاهر فإن أوجه الشقاء فى حياتها متشابهة .

وطبعى أن الناقد الذى يصف المرض لابد أن يذكر الدواء وطرق الإصلاح ، وهكذا كانت دائما ترشد إلى الطريق الذى تصل فيه مصر إلى مجتمع مثالى متحاب ، ويعيش البيت المصرى فى استقرار وأمن ، كتبت تقول فى « نسائيات » :

لو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية التى أقتبس منها هذه المواد :

المادة الأولى — وجوب تعليم البنات الدين الصحيح .

المادة الثانية — تعليم البنات التعليم الإبتدائى والثانوى ، وجعــل التعليم إجبارياً لكل الطبقات .

المادة الثالثة — تعليمهن التدبير المنزلى علماً وعملا وقانون الصحة وتربية الأطفال ، والإسعافات الوقتية فى الطب .

المادة الرابعة — تخصيص عدد من البنات لتعلم فن الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بتعليم الفتيات .

المادة الخامسة — اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

— ٢ —

وكان ميلاد باحثة البادية فى القاهرة عام ١٨٨٦ م ، ونالت الدبلوم عام ١٩٠٣ وتزوجت عام ١٩٠٧ ، وتوفيت فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩١٨ ، ويقول عنها الأستاذ

الكبير أحمد لطفى السيد : إنها جعلت أساس دعوتها تقرير مساواة المرأة بالرجل لا على جهة الاطلاق ، بل فى حدود الاعتدال والدين(١) .

وباحثة البادية خير نموذج لقريناتها : أخلاق سامية ، وسيرة صافية ، ونفس أبية ، ومثابرة على العمل .

وكانت بعد زواجها تباشر أكثر أعمال بيتها بنفسها ، لا لسبب سوى أن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتى يلقين حبال أمورهن على غواربها ، ويتركن بيوتهن إلى من لا يحسن القيام عليها ، والتدبير فيها ، فيوقعن أزواجهن فى الفقر المدقع والبلاء الشديد . وكانت إذا فرغت من شئون منزلها ، عكفت على قراءة الكتب النافعة ، وتعرف أحوال السيدات ، وزيارة مدارس البنات ، وفحص مناهج التعليم بها .

كل أولئك لتكون لها رأياً صحيحاً ، وفكراً ناضجاً فى تربية البنات ، وإصلاح حال الأمهات ، وظلت تستسهل فى ذلك الصعب ، وتستحلى المر .

وكان من رأيها فى تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجل ما لا ينافى الشرع الشريف ، وألا تكون زينتها مشغلة لها ولا عبئاً ثقيلا ينوء به بعلها ، ولها فى ذلك خطب فى محافل نسوية ، كان لها تأثير فى عدول الكثيرات منهن عن جمودهن ، وأفكارهن القديمة . وكان بيتها مقصداً لزيارة كثير من السيدات الغربيات ، والشرقيات يستنرن به فى الوقوف على مبلغ رقى المرأة المسلمة ، وما ينتظرن من شئونها المستقبلة . ولم يكن شىء من ذلك كله لينسيها ما يجب عليها لزوجها وذوى قرباها ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر ، وأعوزتهم الحاجة . وأشد ما كان برها لوالدها فكانت تألم الألم كله لألمه .

— ٣ —

آثارها العلمية :

١ — كتابها الذى أسمته « النسائيات » وهو مجموع ما خطبته وكتبته فى « الجريدة » خاصاً بالمرأة .

---

(١) ص ٨ ج ١ النسائيات بقلم باحثة البادية — الطبعة الثانية .

٢ — حقوق النساء ، وهو كتاب لم يطبع بعد أنجزت منه ثلاث مقالات : الأولى فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية ، والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية فى حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأعمال العامة ، والثالثة المرأة المسلمة من جهة الانتخاب .

٣ — رسالة ضافية قدمتها للمؤتمر المنعقد فى مايو سنة ١٩١١ بمصر الجديدة ضمنتها آراءها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية .

وقد عاجلتها الحمى الأسبانية سنة ١٣٣٧ هـ فاختضرت وهى فى ميعة شبابها . ويانع عمرها ، فتركت بفقدها فى العالم النسوى المصرى فراغا كبيرا .

— ٤ —

كتابتها الأدبية :

الناظر فى كتاباتها يرى عبارة سهلة ، صحيحة الألفاظ ، عربية الأسـلوب ، خالية من تصنع السجع ، وتعمل البديع . قد عنى فيها بدلالتها على المعانى تمـام الدلالة ، كما عنى فيهـا بنشر ألفاظ حديثة للمسميات التى تسربت إلى الشرقيات من المدنية الغربية . وترى ذلك واضحاً فى كتابها النسائيات ، وكانت باحثة البادية بحق أديبة موهوبة ممتازة ، كانت كاتبة وقالت الشعر وهى فى الحادية عشرة من عمرها وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه فى المدرسة : تارة جداً وتارة هزلا ، ثم كان لها من حسن استعدادها وكثرة قراءتها ونبوغ والدها فيه خير معوان على تمهيد سبيله ، وتذليل أبيه . وأكبر ما كانت تتناوله من الأغراض غرض واحد وهو ترقية المرأة الشرقية . وشعرها حسن الديباجة جميل الأسلوب يعد فى الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر . . ومن صور كتابتها هذه الرسالة التى بعثت بهـا لصديقة لها ، وكانت آنذاك فى الإسكندرية :

« أحييك : ولولا برودة البحر لالتهبت إليك شـوقاً ، ولولا تصـبرى لطرت إليك حباً ، وإنى لم ينسنى صفاء السماء صفاء ودك ، ولا رقة النسيم رقة حديثك ، إنما شجانى وذكرنى ولم أكن ناسية .

ليتك كنت معى ترين الطبيعة بجمالها : ترين البحر يزخر كالرعد ، والأمواج تتلاطم زرافات ووحداناً ، صفاء فى البحر وصفاء فى السماء كأنهما قلبـــانا ،

وتسمعين تغريد الطيور وحفيف الأشجار ، إنها لعمرك مناظر تلهى المرء ، ولكن هيهات لمثلى أن تلهو ، وهى تعلم ما يكنه الدهر ، وما يخبئه الليل والنهار .

ومن شعرها هذه القصيدة تخاطب فيها المرأة المصرية :

سيرى كسير السحر لا تأنى ولا تتعجلى
لا تكتسى أرض الشوا رع بالازار المسبل
أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمة فيه بين محرم ومحلل
ويجوز بالاجماع منهم عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصرى أو طولى
فإذا جهلت الفرق بينهما فدونك فاسألى
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولى
لا أبتغى غير الفضيلة للنساء فاجملى

الشيخ عبد العزيز البشرى

أدب البشرى :

كان البشرى[1] ـ منذ أن تألق فى سماء الأدب وتفتحت أكمام عبقريته ـ صاحب ذلك الأسلوب المعسول ، الذى ينتظم عقده الكلمات العذبة، التى تكاد تسيل رقة وعذوبة ، والعبارات السلسة ، يضفيها على المعانى الدانية القطوف القريبة المنال ، يتفيأ بها الموضوعات الحيوية التى تمس شئون المجتمع ، وتعالج أموره وتتجه به اتجاها قيما ، فإذا كان الكاتب قد صال وجال فى كل ميدان من ميادين الأدب فإنه الميدان الذى بارى فيـــه بأفراس مضمرة ، فكان الفارس الذى لايشق له غبار ، ولا يزاحم فى مضمار ، فقد عالج الحياة الاجتماعية علاج الطبيب النطاسى الذى استأصل شأفة الداء ووصف خير الدواء ، ولقدكانت مقالاته فى هذا المجال صورا أدبية رائعة تملأ جمالها البصائر والأبصار ، وورودا يعبق شذاها فينعش النفوس ويهزها بهجة وغبطة . ولم يك يتعمق فى المعنى ، ولا يبعد فى الفكرة ، لأنه لم يقف بيانه على الخاصة وحدهم . وإنما كان يغرد ليطرب الخاصة والجمهور على السواء .

ونلاحظ أنه يعرج أحيانا على اللغة العامية ، ويطوف بمعالمها ، فيقحم فى أسلوبه بعض العبارات العامية ، والألفاظ التى تضحك وتطرب .

وكان البشرى كاتباً عبقرياً . وأديباً لوذعياً ، وعلماً من أعلام البيان فى هذا الزمان ، أشأم صيته وأعرق ، وغرب وشرق ، وكان يراعه نبراساً يمحو غياهب الظلماء ، وبلسما شافياً يستأصل شأفة الداء ، وطبيباً نطاسياً يصف أنجع الدواء ، تخرج فى الأزهر الشريف وتولى القضاء فى المحاكم الشرعيـــة ردحاً من الزمن ، ثم آثر الحياة على المسرح فاستقال وأسهم فى الحيـاة الأدبية بقسط وافر ، دبج المقالات البليغة ، فى الصحف والمجلات ، يعالج بها شئون الحياة الاجتماعية ، فكان لها نقع الماء من ذى الغلة الصادى ، وعبير الأزاهير يعبق أريجها ويتضوع شذاها

---

(١) الأدب العربى وتاريخه ص ١٢٦ جـ ٤ للمؤلف والأستاذ محمود فرج العقدة وبعض الأساتذة .

لعذوبة أسلوبها وحلاوة عباراتها ، وإشراق ديباجتها ، وروعة تصويرها ، وجمال عرضها ... وتوفى فى مارس عام ١٩٤٣ .

وصفه معاصروه(١) بأنه لم يكن يتكلف شيئاً من هذا أو يأخذه قسرا ، ولكن تلك كانت طبيعته وفطرته ، فقد نشأ فى بيئة مشيخية وأسرة يحفها الإجلال والوقار من كل جانب ، إذ كان والده شيخاً للأزهر ، وكان مشهوراً فى الناس بالصلاح والزهد والورع ، وقد تربى الشيخ عبد العزيز ، وتعلم فى الأزهر ، وعين فى القضاء الشرعى ، وكل هذا يقتضى ما يقتضى من التزمت والتحرج ، ولكن الشيخ كان مرح الطبع ، أديباً ، فناناً ، يعشق الطرب ، وينظر إلى الحياة من أبسط نواحيها ، وأشرق جوانبها ، فانطلق مع طبعه هذا ، وألف من على شاكلته من الإخوان والأخدان ، يمرح معهم ويضحك ، على أنه ظل وفياً لتراث الآباء والأجداد ، بالمحافظة على زيه وسمته والاحتفاظ بهيبته ووقاره فى مجالس العامة وزحمة الناس ، كما وصفوه بأنه كان حاضر البديهة فى النكتة ، سريع البادرة ، يقع عليها من غير انحراف ولا تعمل .

وكان البشرى يلق بالنادرة على كل شىء يقع عليه بصره ولا يبالى أين تقع ولا على من تقع ، حتى ولو كان فى عرض الشارع أو على طوار المقهى ، كان يسير مرة فى الطريق فتقرب منه أحد العامة من الفلاحين وقدم له خطاباً ليقرأه له ، وكان خط الخطاب من الرداءة بحيث لم يستطع الشيخ أن يقرأ منه سطراً ، فاعتذر للرجل بأنه لم يعرف أن يقرأه ، فقال له الرجل فى استخفاف : « امال شيخ إيه ولابس عمة إيه » ؟ فلم يسع الشيخ إلا أن نزع عمامته ووضعها على رأس الرجل وقال : ما دامت المسألة مسألة العمة فاقرأ انت يا سيدى .

وكان الشيخ البشرى ينتفع بهذه العبقرية والفكاهة فى كتاباته ، وفى تناوله للأنباء ، فيرسم صوراً حية للأشخاص والأشياء .

وعلى الرغم مما كان معروفا عن الشيخ فى إيثار الفصحى واستخراج مهجور اللغة فإنه فى مجال التندر كان يكره التقعر ويندد بالذين يخرجون الفكاهات والنوادر البلدية عن أسلوبها الدارج ، قال : ترى لو أننا أردنا أن نساير أولئك المتحذلقين

---

(١) من مقال بتوقيع الجاحظ — جريدة الزمان ١٩٥٣ .

فسقنا فى مساق الفصحى مايتندر به أولاد البلد من قولهم : اللى على جتتك اشمعنا : الضرب الأحمر ، فنقول مثلا : الذى على جسمانك ما باله من أثر المشق بالسياط . ألا يكون هذا من السماجة بحيث لا يطاق ؟ .

ولقد عاش الشيخ البشرى يضحك من الناس والأيام ، ويطلق لنفسه العنان فى مجال المرح ما شاء .

وكان أسلوب البشرى[١] رائعاً جزلا متخير المفردات قوى المعانى واسع الفكر، ويكثر فى أسلوبه الازدواج والسجع القصير الفقر، وكأنه فى كثير من المقالات شعر منثور ، ولكنه قوى الأداء شديد الأسر .

ومما انفرد به نثره بين كتاب العصر الحديث : أنه كثيراً مايختم مقاله أو فقرته بمثل عامى أو كلمة عامية أو فرنسية يراها تماماً لغرضه وبياناً لقصده .

وقال عنه طه حسين فى مقدمة كتاب البشرى « المختار الثانى » : « وأخص ما يمتاز به أدب عبد العزيز ، أنه حلو ، سمح ، خفيف الروح ، لا يجد قارئه مشقة فى قراءته ، ولا جهداً فى فهمه ، ولا عناء فى تذوقه وتمثله ؛ ومن الفنون الأدبية الرائعة ما يكون شاقاً عسيراً ، وغامضا ملتويا ، وما تكون اللذة التى يؤتيها نتيجة لمشقته وعسره وأثراً لغموضه والتوائه فهو فن مقصور على الخاصة أو على جماعة ضيقة من الخاصة . ومن الفنون الأدبية ما يكون سهلا يسيراً وقريبا دانى المنال لا يلتوى على أحد، ولا يشق على طالب . ولكن امتاعه لقرائه يسير ، مثله ليس عميقا ولا بعيداً المدى لايكاد يذاق حتى ينسى ، ولايكاد يستمتع به حتى ينقضى العجب منه والرضى عنه والرغبة فيه ، فهو إلى أن يكون فنا لتمتيع العامة وإرضائها أدنى منه إلى أى شىء آخر ، وليس أدب عبد العزيز من هــــذا وإنما هو أدب لا تنقطع أسبابه بينه وبين أوساط المثقفين، ولعل الأسباب أن تتصل بينه وبين عامة الناس، ولعلهم أن يجدوا فيه اللذة القوية إذا قرأوه أو سمعوا إليه ، ولكنه مع ذلك بل من أجل ذلك يرتفع ويرتفع حتى يرضى خاصة الناس ويبلغ إعجابهم ، وينزل من

---

(١) ص ١١ من دراسة — للأستاذ أحمد شفيع السيد الأستاذ بكلية اللغة العربية — للبشرى .

قلوبهم أحسن منزل ، ويقع من عقولهم وشعورهم أجمل موقع وألطفه ، فهو فن ميسر مهد موطأ الأكناف .

وكتب عنه أديب[1] يصفه بأنه كان رحمه الله من حواريي المدرسة الأدبية المحافظة التي نشأت في أعقاب الثورة العرابية ، تأثر أكثر ما تأثر بأسلوب المرحوم إبراهيم المويلحي بك ، ثم بأسلوب ابنه محمد المويلحي من بعده ، وأسلوب « المويلحي الصغير » يبين أكثر ما يبين في كتاب « حديث عيسى بن هشام » وكان الشيخ البشري يرى في هذا الكتاب البيان العربي المثالي ، وكان يقول : وددت لو أكتب سطراً في مثل أسلوب حديث عيسى بن هشام ! وكان هذا القول تواضعا منه — رحمه الله — فقد كان في بعض كتاباته يحلق ويحلق ، حتى ليكون المجلي على أستاذه ، ويقتنع أستاذه بأن يكون مع المصلين !

وعبد العزيز البشري — كما يعرف سائر الناس — نشأ في بيت علم ونعمة وحفاظ ، فأبوه الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر في عهد من أينع عهوده ، ولقد أراد ابنه أن يكون من شيوخ الأزهر ، فلم يشأ « البشري الصغير » أن يخالف تقاليد أسرته فانخرط في سلك طلاب الجامع العتيق ، من حيث أخذته أضواء النهضة الحديثة التي كانت تتوامض أضواؤها في أفق الأزهر .

كان يقلب الطالب الشاب عقله ولسانه في بلاغة المويلحي التي تطالعه بها كل أسبوع صحيفة « مصباح الشرق » . وكذلك فتن شيخنا البشري بالأدب وعزف عن حلقات الفقه في الأزهر الشريف ، ودأب على مراسلة الصحف الأدبية القائمة حينذاك ، حتى إذا ظفر بإجازة العالمية أبى أن يكون في عداد مدرسي الأزهر شأن أنداده ، وإنما انكفأ إلى وزارة المعارف ليعمل محرر فتيا فيها .

ويقول البشري : إنه كان في صباه يمضي الليل ساهراً ، ولا ينام إلا غراراً مع مطالع الصبح ، فتحطم من ذلك جسمه . وتضعضعت في الكهولة صحته . وكذلك طوى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته مريضا ما يكاد ينقه حتى تعاوده العلة فيرتكس حتى وطأتها ، ويستحث شبح الموت والموت منه بعيد !

---

(1) مجلة الرسالة ٢٧ - ٣ - ١٩٥٠

وقد قيدته الوظيفة الحكومية بأمراس من حديد ، واشتد شعوره بالقيد الحكومى بعد أن عين قاضيا شرعيا ، فما كان يستطيع الكتابة بتوقيعه الصريح ، بيد أنه ، وقد خشى أن تنسب مقالاته إلى غيره من الكتاب ، كان يعمد إلى مطالعة كل مقال يكتبه على ملأ من الصحاب ممن يتذوقون الأدب ، فإذا دفع المقال للنشر وطالعه الناس من مصبحهم فى صحيفة سيارة ، أدركوا أن هذه الجزالة اللفظية وهذا الترف البيانى وهذا الترصيع الإنشائى ، كل أولئك من صنعة عبد العزيز البشرى . ورسائل « فى المرآة » التى كانت تنشرها صحيفة « السياسة الأسبوعية » قبل خمسة وعشرين عاما ، فترن رنينها ، وتحدث دويها ، وتتصل رجفتها الأدبية أسبوعا بعد أسبوع ، لم تكن ممهورة بتوقيع عبد العزيز البشرى ، ولكن قارئاً من القارئين لم يكن لينسبها لغير عبد العزيز البشرى .

وكان أسلوب البشرى وسطا بين الترسل والسجع ، وكانت فواصله بعيدة المدى ، ولكنها تتقاصر حينا يمزح أو يداعب . ولما أراد أن يسوى من مقالاته المثبوتة فى الصحف كتابا أذكى النساخين فى المكتبات العامة لجمعوا له قدرا صالحا مما كتب ، فقد كان — أحسن الله إليه — لا يحتفظ بشىء مما يكتب ، ثم جعل ينخل مقالاته نخلا ويغربلها بغربال دقيق ، حتى استوى له كتاب « المختار » فى مجلدين . ومن حق التاريخ على الشيخ البشرى أن تقول : إنه لم يحرف فى مقالاته شيئا ، فهى كما نشرت لوقتها فى الصحف لم يغير منها حرفا .

وقال البشرى الشعر فى شبابه الأول ، وكان ينشر قصائده فى جريدة « الظاهر » التى كان يصدرها المرحوم أبو شادى بك ، هجواً فى المغفور له الشيخ على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » ، تشيعا منه للمرحوم مصطفى كامل ومحمد المويلحى ، ثم أجبل ثلاثين عاما أو تزيد ، إلى أن وافاه أجله .

ملخص حياته :

والده الشيخ الأكبر سليم البشرى شيخ الأزهر ، ولى مشيخة الأزهر مرتين الأولى سنة ١٣١٧ هـ ومكث بها إلى سنة ١٣٢٠ هـ ، والثانية من سنة ١٣٢٧ هـ إلى وفاته سنة ١٣٣٥ هـ .

وقد ولد عبد العزيز بالقاهرة سنة ١٨٨٦ م ، وفى باكورة حياته أدخل

الكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن . لحفظه فى مدة قصيرة . ثم أدخل مدرسة إبتدائية ، وأبى والده إلا إدخاله الأزهر فتعلم به ، حتى نال شهادة العالمية سنة ١٩١١ م . وعين « سكرتيرا » بوزارة الأوقاف ، وفى سنة ١٩١٣ عين محرراً فنيا بوزارة المعارف . وندب سكرتيرا عاماً للجنة الاصطلاحات العربية ، وكان فيها : حفنى بك ناصف ، وأحمد زكى باشا رحمهما الله . ثم عين قاضـــياً شرعيا بمحكمة الزقازيق الشرعية ، إلى سنة ١٩٢٢ م ، حين نقل مفتشا بالمجالس الحسبية — وندبه رئيس الوزراء عبـــد الخالق ثروت باشا . ليكون سكرتيرا للجنة وضع الدستور — وفى هـذا العام نقل عضواً بمجلس حسبى أسيوط ، ثم عاد قاضيا بالمحاكم الشرعية ، ثم نقل إلى وزارة المعـارف عضواً بالمكتب الفنى ، ثم عينه على الشمس باشا وزير المعارف سكرتيراً برلمـانيا له . وبق إلى أن عين وكيلا لإدارة المطبوعات سنة ١٩٢٩ م ، ومكث مدة نقل بعدها لوزارة المعارف ، ثم أحيـل إلى المعاش سنة ١٩٣٠ م .

ولمـا أنشىء المجمع اللغوى سـنة ١٩٣٢ م عين مراقبا عاما له ، إلى أن توفى فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٣ .

وله من المؤلفات : « المختار » فى جزءين ، و « فى المرآة » ، و « قطوف » جزءان وهو مقالات جمعت بعد وفاته .

مختارات من أدبه :

١ — من نماذج كتابته ما كتبه يصور فيه « حظ الأديب فى مصر » :

خاض بعض أفاضل الكتاب فى هذا الحديث ، فتظاهروا على أن الأدب لايجدى فى مصر على أهله ، وإن هو أجدى بعض الأحيان فنى شح وتقتير ، إذ هو فى بلاد الغرب يعود بالغنى والثراء ، وقد يعود بأوسع الغنى وأضخم الثراء . وراحوا يشعبون مذاهب العلل والأسباب لهذه الحال . ومن بين هذه الأسباب: قلة عدد المتعلمين فى البلاد ، وفتور هؤلاء عن اقتناء كتب العلم والأدب ، وخاصة إذا استخرجت منهم أثمانهـا ، وانتشـار الأدب الرخيص تتضح به بعض المجلات الأسبوعية فيقبل عليه الشباب من المتعلمين ومن لا يزالون فى طريق التعلم مطاوعة

للشهوة ، ولأنه لا يحتاج إلى كد ولا مطاولة . وكذلك أضافوا الأمر إلى أثرة الناشرين واستغلالهم حاجة الأدباء ، وضعف وسائل هؤلاء إلى القيام بنشر آثارهم بأنفسهم ، ثم إلى عدم عناية القادرين ، من أى صنف كانوا ، بالأدب الرفيع يذكونه بألوان المعونة والتشجيع .

وكل هذه الأسباب لا تعدو فى رأى الحق الواقع فى كثير ولا قليل . وعلى ذلك لم أدفع القلم اليوم لمناقشتها والتماس سواها ، وإنما لأسرد تاريخا موجزا لصلة الأدب بالمادة فى بلادنا ابتداء من الجيل الذى شهدنا طرفه ، إلى غاية هـذا الجيل الذى نعيش فيه .

كان الأدب من بضع وخمسين سنة مجرد حلية وزينة ، يتكلفه المتأدبون إما للمفاكهة والتعابث والتظرف ، وإما الزلفى طلبا للتمكين من المنصب أو الحظوة عند أولى الأمر ، أو استخراجا للاحسان .

لم يكن الأدب ، فى الجملة ، إذن يطلب غرضا ساميا سواء من امتاع النفس باطلاعها على ما فى الكون من فتنة وجمال ، أو معالجة القضايا العامة ، وملابسة الأسباب الدائرة بين الناس . فكان الشعر فى الجملة أيضا ، يدور فى المذاهب التى سلكها العرب الأقدمون من مدح وهجاء ، وفخر وغزل ورثاء ؛ على أنه ، حتى فى هذه الأغراض الضئيلة، لم يكن أكثره على شىء من الخطر سواء فى سمو المعانى أو فى قوة الأداء . بل كان نسلا ضعيفا متزايل الأجزاء . وكيف بشعر لا يزيد على أنه نقض دارس مما أزل شعراء العهد العثمانى : التماس للمحسنات البديعية من جناس وتورية واستخدام ، بالغة ما بلغت المعانى ، وواقعا ما وقع نظم الكلام .

أما النثر : وأعنى النثر الفنى بالضرورة ، فكان أشد نسولة وأبلغ تزايلا ؛ كلام لا يكاد يجرى لغرض، أو يستشرف إلى غاية ؛ إنما هو السجع يلتزم فيه كله ، فترى فيه السخن والبارد ، والحلو والحامض .

ولم يكن من شأن هذا المقال أن يعرض للأسباب التى بعثت هذا الأدب القوى العالى الذى نذوقه اليوم ، فذلك مبسوط فى كتب تاريخ الأدب العربى . وإنما عقدنا هذا الكلام لإيراد موجز من تاريخ التكسب بالأدب عنـــدنا فى العصر الحديث كما ذكرنا فى صدر هذا المقال .

لقد كان التكسب بالشعر ، فى الجملة ، من طريق واحدة ، هى أن طائفة ممن يتكلفون نظم الكلام كانت الحاجة تبعثهم إلى أن يرتصدوا لحكام البلاد وأعيانها وموسريها حتى إذا دخلت على أحدهم نعمة من أى لون كانت أو مات له ولد أو نسيب، بادروا بازجاء التهنئات يموهون حروفها بماء الذهب ، أو المراثى يجللون رقاعها بالسواد ، ولا يزالون يختلفون إليه فى طلب العطية . وقد لا يظفرون ، فى الغاية ، إلا بتسريح بغير إحسان . ولقد أساء هؤلاء إلى الأدب إساءة بالغة بحيث نشأت ناشئة الجيل الماضى وهى لا تكاد ترى فى الأدب إلا الكدية ، ولا فى الأديب إلا أنه شحاذ .

أما التكسب بالنثر فكان له طريق آخر أقبح من ذاك وأخزى . وذلك بإصدار صحف صغيرة حقيرة ، لقد تظهر مرة فى الأسبوع أو فى الشهر أو فى نصف العام . ومادة كسبها فى الواقع من تخويف ضعاف النفوس بتشهيرهم وطلب معايبهم والتدسس إلى مكارههم ، إلا أن يشتروا أعراضهم ، فإن فعلوا وإلا فلأمهم الهبل .

ولقد انتهى ، والحمد لله ، هذان الضربان من التكسب بالأدب ولم يبق لهما فى بلادنا ، على ما أرى ، من أثر . ولعل ذلك راجع إلى تغير فهم الناس لمعنى الأدب ، وارتفاعهم به على ذلك الهوان ، وإلى انتشار الثقافة بوجه عام ، وإلى خشية سطوة القانون بوجه خاص .

وليس معنى هذا أنه لم يكن هنالك أدب ولا أدباء . بل كان الشعراء وكان خيار الكتاب ، إلا أنه لم يكن يتكسب أحد من هؤلاء .

نعم كانت الصحافة بمعناها الصحيح ، ولا زالت مهنة كريمة نبيلة ، تجدى على أصحابها وعلى المشتغلين بها ما يعودون به على شملهم ، بل ما قد يغنيهم ويضيف إليهم الثروات الضخام . أما هواة البيان ، على حد التعبير الحديث ، فلم يكن لهم من هذه الجدوى نصيب .

ثم كانت « الجريدة » وقام على شأنها أحمد لطفى السيد ، فرأى أن يدعو نفراً من كبار العلماء والكتاب إلى تغذية الجريدة من وقت لآخر بالمقالات المتخيرة المنتقاة فى مختلف أسباب الحياة ، واجتعل لهم على ذلك الجعالات . ولعله فى ذلك كان متهديا بسنة الصحافة فى بلاد الغرب . على أنه لما اشتدت قوة الصحافة فى مصر وعظم انتشارها : بحكم اطراد الحضارة ، وكثرة المتعلمين ، وازدياد تتبع

الجمهرة للأسباب العامة وشـــدة اهتمامها بها ، اضطرت كبريات الصحف ، بنوع خاص ، إلى العناية بتجويد تحريرها ، وإغزار مادتهـا ، حتى لقد جردت بعض صفحاتها لطريف البحوث فى شتى العلوم والفنون ، وفوق أنها أضعفت وظائف محرريها أضعافا . فقد جعلت كذلك تؤجر الكاتبين فيها من غير محرريها بمـا لم يكن يحلم به أحد من عشر سنوات خلت .

هـــذه حقيقة ، للأدباء أن يغتبطوا بها ، وإذا كان المدى بين حظوظهم وبين حظوظ رصفائهم فى الغرب لا يزال فسيحا . فلهم من الأمل فى القريب مزيد إن شاء الله .

بقى الحديث فى التكسب بالأدب من طريق نشر الكتب ودواوين الشعر . والذى شهدناه من أعقاب الجيل الماضى ولا نشهد غيره إلى اليوم أن الكسب من هذه الطريق يكاد يكون مكسورا على جماعة الوراقين كما قال بحق بعض كبار الكاتبين . على أنى أرجو منه أن يأذن لى فى استثناء أصحاب الكتب المقررة للتدريس ، فأولئك وحدهم المجدودون ، أو الذين كانوا مجدودين إلى وقت قريب

لقد كان الأدب عندنا ، ولعله لا يزال عند الأكثرين إلى الآن ينتظم فى سمط الكماليات ، والكماليات عند أكثر الناس ليست حقيقة بأن يخف المرء إليها ، اللهم إلا إذا واتته عفوا ، أو بغير مشقة ولا جليل إنفاق . فبات بديها ألا تنفق كتب الأدب حتى تعود على أصحابها بنفقات طبعها ، بله الثروة وكرائم الأموال .

أما كتب العلم ، فإن العلم يطلب فى بلادنا على أن يفضى إلى إحراز شهادة رسمية تقلد محرزها منصبا حكوميا ، فإذا لم يكن الأمر على هذا فلا كان علم ولا كان تعليم .

هذه حقيقة واقعة أرى أن إنكارها ضرب من الغش والتدليس مشايعة لهوى الجمهور ، والعياذ بالله ! لعل واحـــدا فى كل ألف من الذين ختموا دروسهم فى بلادنا هم الذين يشقون كتابا علميا لا تدعوهم إلى شقة حاجة المهنة . نعم لعل فى الألف من المتعلمين واحدا أو دون الواحد هم الذين يطلبون العلم ويراجعون مدوناته : ليكملوا أنفسهم ، وليتزيدوا من معارفهم ، ويفسحوا فى ملكاتهم .. العلم عسير الهضم ، يكد الذهن ويجهد النفس ، ففيم مكابدته وشدة المطاولة فى تحصيله ما لم تقض بتحصيله ضرورة ملحة قاسية ، من ارهاق الولى أو الحاح الحاجة ، أو جموح الشهوة إلى المنصب بمرض الجاه ، ويعز فى الأهل والصحاب . فكيف

تريدون أن تنفق عندنا كتب العلم للعلم . أما الكتب المقررة للتدريس فهى التى كانت إلى وقت قريب ، تدر على أصحابها الكثير ، بل الذى يستطيعون أن يكاثروا به أعلى مؤلفى الغرب قدرا وأبعدهم صوتا ! ولا أحسب أن هذا الإجداء كله يرجع إلى فضل المؤلفين وحده ، وعظم تجويدهم لما يخرجون من فنون الكتب ، بل لعل شيئاً من ذلك يعود إلى أن هذه الكتب مفروضة فرضا على العديد الأكبر من تلاميذ المدارس تشتريه وزارة المعارف لهم أو تريدهم على شرائه ، وإلا خذلوا فى الامتحان ، وأفلتهم الإجازات ، أو على الأصح فاتهم التأميـــل فى المناصب الحكومية . الواقع أن أكثر الكتب المقررة موف على الغاية من التجويد والإحسان ، ولكنها غير مدينة فى رواجها إلى هذا التجويد والإحسان . بل هى مدينة فى ذلك ، مع الأسف الكثير ، لأنها مفروضة على التلاميذ فرضا ، ولو قد عدل عنها ما أخرجت المكتبات عشر ما تخرج منها على أسخى تقرير . وهـذه الحقيقة المرة القاسية ترينا مبلغ حظ العلم والأدب فى هذه البلاد .

ومهما يكن من شىء ، فإن لنا أن نغتبط ، ولو قليلا ، إذا نحن قسنا حاضرنا بماضينا القريب ، فبين مؤلفينا من يستردون من أثمان مؤلفاتهم ما أخرجوا لطبعها ، وفيهم من تفضل عليهم من الربح الكثير أو القليل . وكل الذى نرجو أن تطرد همم الشباب فى تحصيل العلم الصحيح ، وتتجرد عزائمهم فى طلب الأدب العالى ، معرضين عن التماس هذا الأدب الرخيص ، هنالك تنبعث فى البلاد الحياة القوية العزيزة ، وهناك يجازى العلماء والأدباء بما يكافىء الجهد العظيم .

٢ — وكتب الشيخ عبد العزيز البشرى من فصل له بعنوان كيف : « نبعث الأدب » ، يقول :

لقد تعرف أن الأدب الحق لكل أمة هو الذى يشاكل حضارتها ، ويكافىء ثقافتها ، ويواتيها فى جميع أسبابها ، ويترجم فى صدق ويسر عن عواطفها ، وينفض ما يختلج فى الصدور من ألوان الشعور والإحساس . ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف فى ألوانها ، وفى ألسنتها ، وفى أخلاقها ، وعاداتها وغير أولئك ، فإنها تختلف كذلك فى شعورها ، وفى أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف فى أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة ، والضعف ، والرقة ، والجفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فإنها ترجع إلى أصل واحد ، وتندرج تحت

جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق ، وذلك لأنها أثر من آثار الإرث ، والبيئة ، والعادة ، والتاريخ ، ومايتردد عليه النظر من صور الطبيعة ، وغير ذلك كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب فى هذا الباب .

ومهما يكن من شىء فإن لون العواطف الشائع فى كل أمة ليس بالشىء الذى يستعار استعارة ، ولا بالذى تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلا وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار إن هو إلا حكم الطبيعة ، وما من حكم الطبيعة مناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، فى غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدى هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشز على أذواق معشر آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما فى معنى من المعانى ، وحينئذ يصدق البيان

وعلى هذا فإنه مهما نسرف فى مطالعة أدب الغرب والتروى منه ، ومهما نجهد فى محاكاته وتقليده ، فإنه لن يكون لنا أدباً فى يوم من الأيام ، اللهم إلا أن تنقلب أوضاع الطبيعة ، فإن الأمم لا تطبع على غرار الآداب ، بل إن الآداب هى التى تطبع على غرار الأمم .

لقد نكون فى حاجة ، ولقد تكون هذه الحاجة شديدة جداً ، إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمت عبث لا يغنى ولا يفيد .

والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مستعربين نعيش فى مصر ، مأخوذين بثقافتها القائمة ، موصولين بتاريخها القديم . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يوحى به إلينا تاريخنا العربى من ناحية ، وتاريخنا المصرى من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذى تلهمنا إياه أخلاقنا ، وعاداتنا ، وثقافتنا ، ويسويه لنفوسنا العيش فى وادى النيل . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يفيض بما تجيش به عواطفنا ، ويصدق فى الترجمة عما يختلج فى نفوسنا ، ويصور دخائل حسنا أكمل تصوير ، ويعبر عنها أدق تعبير . وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدب القوى فلا نصيب أثره إلا قليلا فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين !

اللهم إن فينا أدباء جروا من العربية على عرق ، وأحرزوا صدرا من بديع صيغها ، وتفتحت نفوسهم لمنازع بلاغاتها ، واستظهروا الكثير من روائعها فيا نظم متقدمو شعرائها ، وما أرسل المجلون من كتابها ، على أن أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاص . إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفض ما يحس هو وما يشعر ، وإنما تراه يترجم عما كان يجده السلف الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كل همه إلى المحاكاة والتقليد ، ليخرج شعره عربيا لاشك فيه ، وهؤلاء يتناقص عديدهم على الزمان حتى أشفى فنهم على الزوال .

وهناك شباب لم يبلغوا حظاً مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظاً منها لم يعن بها ولم يكترث لها ، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب لجعلوا يحاكونه ، ويترسمون آثاره ، فيستحدثون أخيلة لم تتراء لأحلامهم ، ويسوون صوراً لم تتمثل لخواطرهم ، ويريقون عواطف لم تترقرق فى نفوسهم ، ويقصدون أحاسيس لم تجش قط فى صدورهم . وتراهم يستكرهون هذه الأمشاج من المعانى على نظام ليس فيه من العربية إلا مفردات الألفاظ ، يشد بعضها إلى بعض بمثل قيود الحديد ، برغم تنافرها وتناكرها ، بحيث لو أطلقت من إسارها لتطايرت إلى الشرق والغرب ما يلوى شىء منها على شىء ! . فيخرج من هذا ومن هذا كلام لايستوى للطبع ، ولايستريح اليه الذوق ، ولا يخف للتعلق به الخيال ! وكيف له بشىء من هذا ولم يتضح به طبع ولا رهف له حس ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبعث له من نفسه خيال ! فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال .

بل إن هناك شبابا لم يحذقوا شيئا من لغات الغرب ، ولم يظهروا فيها على كل شىء من آداب القوم . ولكن تعاظمتهم صنعة أولئك فراحوا هم الآخرون يشاكلونها ويحذون جاهدين حذوها ، ليضافوا هم كذلك إلى جمهرة (المجددين) ، وما التجديد فى شرعة أكثر هؤلاء إلا الإتيان بالغريب الشامس فى نظمه وفى صوره وأخيلته ومعانيه ! وإذا كان هذا اللون من البيان مما يصح أن ينتسب إلى أى أدب من الآداب ، فإنه مما لايصلح لنا على أى حال ! .

وإن مما يضاعف الإساءة ويزيد فى الألم أن يقبل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللغو فيتخذوا منه نماذج يحتذونها إذا شمروا للبيان ، ولن يجشمهم التجويد

والبراعة فيه جليلا من جهد ولا مشقة ، لأن قسر أى معنى على أى لفظ ، وتسوية الخيال فى أية صورة ، ليس مما يعيي جهد المرء ولا مما يعتريه بالمشاق . ومن هنا يشيع أرخص الآداب ، أو أنه ينذر بالشيوع فى هذه البلاد ! ولو قد ترك فى مذهبه هذا لطغى أشد الطغيان ما تغنى فى صدده جهود الأعلام من الأدباء . وحينئذ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدب أو تعيش بهذا الأدب المنكر الشائه الذى لا نسب له مدة طويلة من الزمان ! .

إذن لا مفر لنا من أن نلتمس أدبنا القوى . ولا يكون هذا الأدب إلا عربى الشكل والصورة ، مصرى الجوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نبعث الأدب العربى القديم ، ونتثل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروى منها بالقدر الذى يفسح فى ملكاتنا ، ويقوم ألسنتنا ، ويطبعنا على صحيح البيان . فإذا أرسلنا الأقلام فى موضوع يتصل بالآداب ، بوجه خاص . أطلقنا القول فى صيغة عربية لا شك فيها ، على ألا نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج فى نفوسنا ، ويتصل بإحساسنا وتصورنا بها ما نجد مما يلهمه كل ما يحيط بنا ، وما يعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ، ومن شعور ، ومن خيال .

ولقد قدمت لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب ، وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقل ما تهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب . وهذا أمر لا شك فيه ولا غناء لنا عنه ، فإن ذلك مما يهذب من ثقافتنا ، ويفسح فى ملكاتنا ، ويرهف من حسنا ، ويهدينا إلى كثير من الأغراض التى تشتمها آداب الغرب فى هذا العصر . والواقع أننا نهدينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهد من قبل ، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظهم منه جليلا ، ومن أظهر هذه الفنون: القصص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث .

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبى لا يجدى علينا ، ولا يؤدى الغرض المقسوم بمطالعته والإصابة منه إلا إذا هذبناه وسوينا من خلقه ، ولوناه من صورته حتى يتسق لطباعنا ، ويوائم مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا . كما ينبغى أن نجهد الجهد كله فى تجليته فى نظام من البلاغة العربية ، محكم التنضيد ، فلا نحس فيه شيئاً من نبو ولا نشوز . وبهذا نزيد فى ثروة الأدب العربى ، ونرفع من شأنه درجات على درجات .

وليس هذا الرأى الذى نرجوه لأدبنا بدعا فى شريعة الآداب سواء فى جديد الزمن أو فى قديمه . فقد كان الأدباء وما برحوا إلى اليوم يعتمدون الفكرة البديعة ، والمعنى السامى ، والخيال الطريف المنسجم ، يصيبونه فى لغى أجنبية ، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم ، ويروضونه لأساليب لغاهم ، حتى يحلوه فيها من غير عسر ولا استكراه . وإن تصرف المتقدمين من أقطاب البيان العربى فيما شكروا من ألوان المعانى واللغات الأجنبية لمن أصدق الدليل على صحة هذا الكلام . وهل رأيت إلى ابن المقفع لو لم يحدثك أنه ترجم كتابه (كليلة ودمنة) عن إحدى اللغات الهندية . أفكان يتسرح بك الشك فى أنه عربى الأصل والمنجم . عربى الحلية والنسب ؟ اللهم إن تسوية المترجم لما ينقل إلى لغته ، وطبعه على ما يوافق أحلام معشره ، ويسوغ فى أذواقهم ، وينزع منازع بلاغاتهم ، ليس مما يقدح فى كفايته بل إنه لما يرفع من قدره ويعلى من تصرفه . وكيف لا وهذا القرآن الحكيم لقد حدثنا عن عشرات من الأمم ، كانوا ينطقون فى الأعجمية لغات متفرقة ، ونقل إلينا كثير من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، فما أداها إلا فى أعلى العربية الخالصة ، بل فى العربية البالغة حد الإعجاز ، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة ، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان ؟! .

وصفوة القول أنه لا يعيب اللغة أو يغض من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن تسيغه وتهضمه وتسويه حتى ينتظم فى سلكها ؛ ويتصل بخلقها ، ويوسع فى مادتها ، ويضاعف ثروتها ، لا أن يقسر عليها قسراً ، ويستكره لها استكراها ، فينكر صورتها ويشوه من خلقها على ما نرى من صنع كثير يعربدون فى الأدب العربى باسم (التجديد) فى هذه السنين .

ولا شك فى أن الينبوع الأول الذى يرده النشء لينهلوا من فنون العربية ويتروّوا آدابها ويستثمروا بلاغاتها ، وينبعثوا لترسمها إذا هم أقبلوا على البيان ، هو معاهد التعليم على وجه عام ، فإذا هى جدت فى مهمها وأخذت من بين يديها من التلاميذ بما ينبغى أن يؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين ، كان لنا فى هذا الباب كل ما نريد . وإذا كان الأدب كسائر الفنون إنما يبرع المرء فيه بالاستعداد الفطرى مع الكلف به وشدة الإقبال عليه وطول التمرين فيه بأكثر مما يحرز بالتعليم والتلقين ، فإن مما لا يعتريه الريب أن للأستاذ ـ وخاصة فى ابتداء العهد بالطلب ـ أثراً بعيداً

فى تعليم أصول الفن وبيان حدوده ، وإعلام طريقه بين يدى الطالب ، وتهذيبه بطول التعهد ، وتوسيع ملكاته بألوان الملاحظة ، وإسلاس الاجادة له بفنون التدريب والتمرين .

٣ ــ وكتب البشرى حول رسالة الأديب يقول :

« لست أعنى بالأديب كل من يجيد سبك الشعر أو يحسن تزويق الكلام ، إنما أعنى بالأديب حقاً ذلك الذى استنارت بصيرته ، ورهف حسه ، ولطفت مشاعره ، وأضحى له من حد النظر فى بواطن الأشياء ماينقطع دونه جهد الأنظار ، إنما أعنى بالأديب ذلك المفتن الذى يلمح بالنظرة الومضة مالاأدركه أنا ولا أنت ، ولا يقع عليه حسى ولاحسك ، مهما أذكينا من الذهن ، وشحذنا من الإحساس .

لست أعنى بالأديب هذا الذى يشمر فى اختلاق الأخيلة لم تنظر لنفسه ، وفى تلفيق الصور ماتجلت على حسه ، إنما أعنى بالأديب ذلك الذى اتسع أفقه ، ونفذت إلى الأطواء بصيرته ، فهو يرى بعينه الباطنة مالا يرى غيره ، فإذا تعاظمك ما جلا عليك من غريب الصور ، وما سوى بين يديك من طريف الخيال ، فلا تظن أنه مفلق أو مزور أو مختلق ، بل إنه ليحدثك بما تتحدث به نفسه ، ويجلو عليك ما يرى هو وما يسمع وما يشعر فى غير زيادة ولا نقصان ، ولعلك قد أدركت من هذا أن ذلك الأديب النير الحساس لا يجدى الأدب ولا الناس إذا لم يكن متمكنا من ناحية البلاغة ، حتى يستطيع أن يكون أمينا ودقيقا ، ورائعا فيا ينفضه عليك من صور البيان .

وبعد ، فإن مهم الأديب فى الشرق جليل الخطر ، بعيد الأثر . مهمه الأول أن يوجه حسه إلى الشرق ، وأن يحرر عاطفته كلها للشرق ، فقد استدرج الغرب إليه حس أدباء الشرق وعواطفهم جميعا ، أستغفر الله ، بل لقد سطا بها سطواً ، وانتزعها من بيئتها انتزاعا .

اللهم إن أعظم أدبائنا الشرقيين قدراً ، وأجلهم خطراً ، لايكادون يطرحون النظر إلا على الغرب ، ولا يكادون يتصورون الأشياء إلا بذهن الغرب ، ولا يكادون يصورون مايجدون إلا على أسلوب الغرب ، بل لا تكاد أعراقهم تلين وتتفتح إلا لما يقبل عليهم من ناحية الغرب . لقد استهوتهم حضارة الغرب ، وفتنهم جمال الغرب ، وملك فكر الغرب عليهم كل مذهب ، فلم تبق فيهم فضلة

لتقليب النظر فى هذا الشرق ، ولا لتصفح وجهه ، والتدسس إلى ما تحت السطوح مما كنزت القرارات وأجنت الأطواء !

ولعل عذرهم كان فى أنهم نشأوا فى لغات ميتة ، وآداب ميتة ، وحضارات ميتة ، وأفكار ميتة ، وجو كله موت لا ترقرق فيه نسمة من نسمات الحياة ! وما ظنك بمن أحس الاختناق لفساد الجو ، أفلا تراه يجرى فى التماس الهواء الطلق يتفرج به ، ويملأ منه رئتيه كلتيهما ليرد به على نفسه ما مضى عنها من عناصر الحياة . وكذلك صنع أدباء الشرق ، وكانوا فيما صنعوا حق معذورين !

فى الحق أن الغرب قد استولى على أدبنا — وأعنى أدبنا الحى أو أدبنا الذى يزعم لنفسه الحياة — كما استولى على أرضنا ، وعلى علمنـــا وفننا ، وتجارتنا وصناعتنا ، وكل سبب من أسباب الحضارة فى هذا العالم . لقد استولى الغرب على كل شىء عندنا ، حتى على الأدب ، وأصبحنا فى جميع وسائلنا أشبه بالمكارين . يسعون سعيهم لحساب أصحاب الأموال .

ولقد يتعاظمك ويشيع فيك العجب ما زعمت من أن الغرب قد استولى على أدبنا فيما استولى ، ولقد يكون أهم الداعيات إلى إنكارك وتعاظمك ما ترى كل يوم لكتابنا المجلين من لفظ عربى رشيق ، فى نظم عربى أنيق ، وما تجد من منازع بلاغات تطاول أزكى بلاغات العربية فى أزهى العصور ، فليس الأدب حلاوة لفظ وتلاحم نسج وإشراق ديباجة فحسب ، بل إنه قبل ذلك لوضاءة نفس ودقة شعور ، ورهافة إحساس ، ونفوذ نظر ، وتهيؤ فطرى لبراعة التصور ، ثم قدرة قادرة على براعة التصوير . وفى هذا المظهر الأخير إنما يحتاج إلى براعة النظم وصحة البيان .

وأرجو بعد هذا ، أن تحدثنى بعيشك ، كيف يكون أدبنا شرقياً ، وكيف يعد أدباؤنا أدباء شرقيين ، وهم متغيرون لبيئتهم ، منكرون كل الإنكار لما يحيط بهم ، لا حظ للشرق ، ولا لطبيعة الشرق ، ولا لشىء من أسباب الشرق ، فيما يتصورون وفيما يصورون .

وبعد ، فللشرق أرضه وسماؤه ، وله هواؤه ، وله جباله ووديانه ، وأنهاره وخلجانه ، ونباته وحيوانه ، وله سهله ووعره ، ومعموره وقفره ، وله صحاريه ، وناهيك بصحاريه وما ألهمت من الشعر فى قديم الزمان ، وللشرق عاداته وأخلاقه ،

وله أفكاره وأذواقه ، للشرق جماله وفتنته وسحره ، وله جلاله ورهبته . وهذا تاريخه الضخم ، لقد احتشد بعوامل القوة والعظمة ، كما سال بآثار الفلسفة والعلم والفن جميعاً . ولقد أزل لنا هذا التاريخ من مجالى عظمة الشرق مايحير الألباب، سواء منه ما طاول السحاب ، وما دس فى التراب .

ولعمرى ، أليس فى هذا كله ما يبعث العاطفة ويستجيش الحس ، ويلين أبدع الصور تتراءى فى أبدع البيان ؟ لقد كان الشرق مهبط الشعر كما كان مهبط الوحى ، وفيه وفى بيان الأرض كما تنزل بيان السماء . ولقد كان لأجلاء أهل البيان عذرهم الذى أسلفت ، فما عذرهم الآن وقد انبعثت اللغة ، وحى الأدب . وذكاء الشعور ، ورهف الحس ، وراح منا خلق يعالجون ما يعالج أدباء الغرب من تحليل الأشياء والنفوذ إلى الأطواء ، واستظهار الطريف البديع من مختلف الصور فى شتى مظاهر الحياة .

مالنا ، وقد بلغنا هذا القدر ، ولو بفضل ترويتنا من أدب الغرب ، لانوجه إحساسنا وعواطفنا إلى هذه البيئة التى نعيش فيها ، فنتصفحها ونمعن فى تصفحها ، ونتوسمها ونطيل فى توسمها ، فإنها قمينة بأن توحى إلينا أبلغ مما نرجو من انبهار ومن روعة وجمال ! اللهم إن أكثر أدبائنا العظام إنما يغذون أرواحهم بآداب الغرب فى الكتب والرسائل ، وفيها يقلبون الذهن ، ولها يفتحون الأعراق . وفيها يغرقون الحس ، وبها يذكون العاطفة . فأضحت متاعهم الروحى ، لا يزاحم نفوسهم عليها متاع ، وهى فى الغاية سبيل إنشائهم ومادة إنتاجهم ، إليها يردون ، وعنها يصدرون ! . أفيتهيأ لنا مع هذا أن نزعم أن هناك أدباً شرقياً وأن هناك أدباء شرقيين ؟

إن مهم الأديب فى الشرق ـــ وما وقعت لى كلمة الشرق هنـــا إلا تمثلت مصر أولا وجمهرة البلاد العربية ثانيا ـ أقول : إن مهم الأديب فى الشرق أن يفطن نفسه إلى بيئته أولا ، ويشعرها أوفى الشعور بأنه إنما يعيش فى بلاده ، فيها يدور الفكر ويجول التصور ، ومنها يشتق التخييل ويستنزل الإلهام ، وكذلك يكون لنا ـ نحن المصريين ـ أدب مصرى وأدباء مصريون ، وكذلك يكون لجارتنا سورية أدب سورى وأدباء سوريون ، وكذلك يكون للعراق أدب عراقى وأدباء عراقيون ، وهكذا . فإذا فرقت بين هذه الآداب بعض العوامل المحلية المختلفة من طبيعة البلاد ومناظرها وتاريخها وعرفها ونحو ذلك ، فلا بأس بهذا ، فسيجمعها ذلك

الطابع العربى العظيم . أما الآن ، فلا شك فى أن هذا الأدب غريب فينا أو نحن فى هـذا الأدب غرباء ! أستغفر الله أن أدعو إلى هجر أدب الغرب وتحريم قراءته وترويه ، أو عدم استعانته فى التحليل والانتاج والتصوير ـ أستغفر الله أن أدعو إلى هذا أو أشير به ، فإننى إذن آثم فى حق أدبنا أعظم الآثام ، وأجرم عليه أشنع الاجرام ! بل كل ما أريد أن ما نصيب من أدب الغرب وما نتذوق ، لا ندعه يطغى هـذا الطغيان على أدبنا الشرق ، فإن الخير كل الخير أن نسيغه ونهضمه ، وتغتذى به أدبنا ، على ألا يبدل خلقه ولا صورته ، كدأب الأمم التى تعتد بآدابها وتريغ لها قوة الحياة من كل سبيل .

فقد عرفت أن المهم الأول للأديب فى الشرق أن يكون أديباً شرقياً . مصرياً إذا كان فى مصر ، وسورياً إذا كان فى سورية ، وعراقياً إذا كان فى العراق ، وهكذا يشعر بأنه يعيش فى بلاده ـ كما أسلفت ـ أوفى الشعور ، وعما يحيط به يشتق التصور ويستنزل الإلهام ، فإذا كان الأديب الشرق كذلك ، بعث من عواطف قومه كل كمين ، واستخرج من بواطن النفوس كل دفين ، واتخذ من أخلاقهم وعاداتهم مادته فى الفحص والتحليل ، ومن ميولهم ومنـازع نفوسهم أداته فى التصوير والتخييل ، وشاد بجليل مفاخرهم ، وتغنى بسالف مآثرهم ، وكذلك يبعث الأدب الحق ، ويبعث الشعور القوى جميعاً ، اللهم إن الأمم العربية لتجد فى السعى إلى تحرير الأوطان ، فتى تسعى إلى تحرير الآداب ، فلا يكون للغرب عليها هذا السلطان ؟

٤ ــ وكتب عن شوقى فى مناسبة ذكراه الثانية يقول[١] :

لقد خرج فى هذه الدنيا شعراء ما أحسب أحداً منهم كان يستطيع ألا يكون شاعراً . لقد تتصل الشاعرية بالطبع والجبلة ، وليس يملك المرء أن يخرج عن جبلته وطبعه . ولست أجد مثلا أضربه لهذا الطراز من الشعراء أبلغ من أبى نواس فى الغابرين ، وأحمد شوقى فى المحدثين ، وأغلب اعتقادى أن الشاعر من هؤلاء حين ينزل عليه الشعر لا يقدر على صرفه عنه أو حبس لسانه أو قلمه عن الجريان به إلا برياضة ومطاولة وجهد . هؤلاء يطلبهم الشعر أكثر مما يطلبونه ، ويتغشاهم البيان أكثر مما يرتصدون له ، ويتجردون فى إصابته ، وبحسبك أن تطالع دواوين

(١) الرسالة عدد ١٥ - ١٠ - ١٩٣٤

شوقى — لتعلم أنه لو كان رزق أعظم حظ من العزم والقوة والجبروت ، ما كان ليقوى على كتم شاعريته الفائضة الجياشة . وهيهات للسد بالغاً ما بلغ من المتانة والمناعة أن يكف النيل عن جريانه ، وأن يكبح إذا طغى من طغيانه !.

تقرأ شعر شوقى ، فتتعاظمك هذه الكثرة الكثيرة من فاخر الشعر وبارع الصنعة وروائع البيان . ويذهب العجب بك كل مذهب ، وتروح تتساءل : أية قوة بدنية هذه التى احتملت كل هذا المجهود الفكرى ؟ وكيف تهيأ لهذا الرجل أن يعيش ما عاش ! . . . والواقع الذى لا يتداخله الشك أن شوقى لم يكن على حظ كبير من صحة البدن ، بل لقد تستطيع أن تقول إنه كان رجلا مضعوفاً مختل الأعصاب من أول نشأته . فإذا طلبت السر فى شأنه ، فالسر كله فى أنه لم يكن يجهد فى قرض الشعر ، لأنه لا يكلفه[1] ولا يتعمل كما قلت لك ، فى طلبه ، ولا يرهف فى ذاك حساً ولا يجد عصباً ، إنما هو الينبوع ينبثق فيجرى الماء دفقا ما يحتاج إلى متح ماتح .

نعم ، لقد كانت تكاليف الحياة تقتضى شوقى كما تقتضى غيره أن يستفتح الشعر ويبعثه فى مديح ، أو رثاء ، أو تهنئة ، أو فى غير ذلك من الأسباب الخاصة أو العامة التى لا يرى بدأ من القول فيها . على أنه لا يكاد يقبل على صناعة الشعر فى طلبه ، حتى تتحرك شاعريته ، فتجره عما هو بسبيله جراً ، وتملى عليه هى ما تشاء أكثر مما يملى عنها هو ما يريد ، ولست أطلب فى هذا دليلا من أن شوقى لم يمدح أحداً قدر ما مدح الخديو . على أنه حين جرد تلك القصائد من ذلك المديح ليدخلها فى ديوانه ، ظلت سوية قوية رائعة بما فيها من رقيق غزل ، أو من بارع وصف ، ومن بالغ حكمة وجليل مثل ، كأن لم تفقد شيئاً ، ولم يعوزها شىء !

إذن كان شوقى شاعراً مطبوعا أتم طبع ، سريا أجزل السراء ، موفقا إلى أبعد غايات التوفيق .

تصرف فى فنون الشعر كلها فما ضعف قط فى واحد منها ، بل قل أن يتعلق بغباره فى أى باب من أبواب القصيد شاعر ، اللهم خلا الهجاء ، فلم يؤثر عنه فيه بيت واحد . ولعل ذلك يعود ، كما قلت فى (مرآته) ، إلى لطف نفسه ، وأنفته

---

(١) يقال كلف الأمر : حمله على مشقة .

من أن يشهر الناس ويطلب معايبهم ، أو لعله يعود إلى الخوف والورع من أن يزيد في ثورة خصومه به ، أو لعله فطن إلى أن الزمان سيمحق على هذا الضرب الحقير من الشعر . وما أحسبه لو عالجه إلا موفيا فيه على الغاية والإحسان . على أن الله تعالى كان ألطف به من أن يدليه في هذا الهوان .

وإذا كان عجباً من كثير من الشعراء أن يكون حظهم من البراعة في فنون الشعر بدرجة سواء — فإن هذا من شوقي وأمثال شوقي غير عجيب . فالرجل ، كما زعمت لك ، لا يملك من شاعريته أكثر مما تملكه شاعريته . وما إن اجتمع لقول الشعر ، ومضى يجيل الفكر ويطيل الخيال ، إلا ملكته تلك الشاعرية عن نفسه ، وراحت تجوده بالهاتن الحنان من وحي القريض . فإن أصابت ما احتفل له ، وإلا ففي فنون المعاني الآفاق العراض ، وأرجو أن تراجع شعر شوقي في كل ما يتورط فيه الشاعر . ولا ينبعث له من نفسه ، لو كان أمره كله إليه ، لتزداد إيمانا بما أقول .

وأرجو ألا تحسبني غالياً ولا متزيداً إذا زعمت لك أن شعر شوقي كان في بعض الأحيان ، بل في كثير من الأحيان ، يتخطى إدراكه العادي . أعني أنه لقد كان يصيب ألوانا من المعاني لو أنك راجعته فيها غداة نظمها لاحتاج في فهمها إلى فكر وتدبير ! ولقد وقع لي أكثر من مرة أن راجعته في بعض شعره أرى أنه قد مس فيه معنى رفيعاً جداً ، ولكن اللفظ أقصر من أن يطوله بواضح البيان ، وإني لأخبر ما ألمح ، وأحياناً ما كان يلمح غيري ، فإذا هو بادىء الرأي كقارئه متحير متردد ، وإذا هو في فهم مرامي الكلام في حاجة إلى حبس وإلى استخبار ، وأريد أن أقول لك إن هذا الرجل لقد كان يفاض عليه ساعة وحي الشعر ما لم يكن لفكره في الحساب . ولقد ذكرت هذا لنفر من الأدباء ممن كانت لهم صلة بشوقي ، فأكد لي بعضهم أنه وقع له مثله مع هذا أمير الشعراء .

وإذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له في شعره ما يعد من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولا ، فإن واتى اللفظ ولان ونصع وأشرق ، وإلا فلأم هذا اللفظ الهبل .

لم يكن شوقي إذن يتكلف بالديباجة ، ولا يجهد في تسوية اللفظ وصقله ، ولكنه مع هذا لقد يجيء بالعجب العاجب ! بل لقد استحدث شوقي في العربية صيغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الإشراق . وأحسب أن المعاني هي التي أرادته على هذا ودفعته إليه دفعاً .

ولقد كان مما يعد على شوقي أنه يكثر من الغريب في شعره ، حتى لقد كان يضطر هو إلى تذليل ما يغشى من قصائده في الصحف بالشرح والتفسير . ولا أحسب هذا سائغاً في العصر الذي نعيش فيه ، بل إني لأزعم أن محصول شوقي من متن اللغة لم يكن يواتي هذا القدر الذي يشعره استكثاره من الغريب في قصيده ، فلقد كنت تسأله معنى الكلمة المفردة تكون قد خلت في بعض شعره . فإذا هو لا يدريه في بعض الأحايين . وإني لأرجح أن الرجل لم يكن يعمد بهذا للتكثر بسعة العلم ، ووفرة المحصول من اللغة ، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعاني ما لا يتيسر له أداؤه باللفظ الشائع ، كما كان يطيل أحيانا كثيرة في القصائد إطالة يحتاج معها إلى الكد في التماس القوافي ، فكان يضطر في هذا وفي هذا إلى التماس الألفاظ من القواميس ينتزعها انتزاعا .

وهنا أحب أن أقول شيئا يسيراً في التجديد والمجددين ، وإني أوجه هذا الكلام ، بنوع خاص ، إلى الناشئين من المتأدبين :

إذا كان من آيات الحياة في الكائنات تطورها ، ونموها ، وتجددها ، فالأدب ، ولا شك ، من هذه الكائنات التي لا تكتسب لها الحياة إلا على التطور والنمو والتجديد ، وإلا كان ميتا أو أشل على أيسر الحالين .

ولكنني أحب أن ألفت في هذا المقام ، إلى مسألة قد تدق على أفهام الكثير أو القليل . وتلك أن هناك فرقاً بين التربية والتجديد ، وبين المسخ والتغيير . ولست أجد مثلا أسوقه في هذا الباب خيراً من حياة الطفل وحياة النبات . كلاهما ينمو ويربو ، وكلاهما يطول ويزكو ، حتى يبلغ الحد المقسوم لكماله ، وقد تتغير بعض معارفه ، وقد تحول بعض أعراضه ، ولكنه ، في الغاية ، هو لا شيء آخر ، فحسن الوليد ، هو حسن الطفل ، هو حسن الفتى ، وهو حسن الشاب ، هو حسن الكهل ، وهو حسن الشيخ ؛ وتلك الفسيلة الصغيرة ، هي هذه النخلة الباسقة ، كل نما وربا بما دخل عليه من الغذاء ، وما اختلف عليه من الشمس والهواء .

لقد أصاب كل منهما ما أصاب من أسباب التربية والإزكاء ، فاحتجز منها ما واءمه وما تعلقت به حاجته ، ونفى عنه ما لا خير له فيه وما لا حاجة به إليه . ثم أساغ ما أمسك وهضمه ، فاستحال دما يجري في عرقه ، ويزيد في خلقه .

ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصر ، وله مقومات ، وله شخصية بارزة

معيشة ، فن شاء فيه تجديداً — ومن الواجب الحتم على القادرين أن يجددوا — فليتقدم ، ولكن من هذه السبيل .

ولا تنسوا أن من أهم هذه المقومات ، إن لم يكن أهمها جميعا ، هو صحة العربية ، وتحرى فصحها . فمن تهاون هذا وتجاوزه ، فليس مايصنع من الأدب فى شىء أبداً . ومما يتصل بهذا المعنى ما لعلى لا أخطىء إذا دعوته تقاليد العربية ، فللعربية كسائر اللغات القوية تقاليدها المأثورة على الزمان .

وهنالك مقومان آخران لهما خطرهما العظيم : ألا وهما التخييل والذوق العام . ولا أحسبك تنكر أن لكل أمة ذوقها الخاص بها فى كثير من أسباب الحياة ، ولقد تشارك غيرها من الأمم فى بعض هذا ، ولقد تفارقها فى بعض فراقا شديداً أو يسيراً .

أما التخييل فقد قلت لك فى مقال مضى إن خيال المرء مهما حلق وعلا ، ومهما أسرف وغلا ، فهو لا يمكن أن يخرج عن كونه مجرد تلفيق من الحقائق المحسة الواقعة . وأنت بعد خبير بأن أصدق خيال وأروعه ، وأن أحكم تشبيه وأطبعه ، هو ما اشتقه الشاعر مما يحيط به وبقارئه ، ويقع لأسماعهما ولأبصارهما جميعا ، وإلا نبا عن السمع ، ونشز على الطبع ، ولو كان بالغا غاية الغاية فى بيئة أخرى . نعم ، لقد يشهد الشاعر من مجالى الطبيعة مالم يشهد عامة قومه . ولقد يظهر على كثير مما انتضحت به بلاغات أئمة البيان فى الأمم الأخرى . ولقد يتذوق هذا فى لغاتهم ، ويتأثر به إلى حد بعيد ، ولقد يرى أن ينقل ما يطول من ذلك إلى معشره بإخراجه فى لغتهم ليتعممهم ويلذذهم ويرهف حسهم ، ويفتق فى أذهانهم ، ويفسح فى أدبهم بإدخال جديد عليه ، وإضافة بديع من الآداب الأخرى إليه ، فإن له من ذلك مايحب ، على أن يصوغه فى صحيح لغته ، ويطبعه على غرار أدبه ، ويحتال على تسوية خلقه ، حتى يصبح تام المشابه بما ألف قومه ، حتى لا يحسوا فيه غربة ، ولا يشعروا منه بوحشة ، فإذا وفق الأديب إلى هذا وأجاده وأحكمه فهو التام .

ولقد ضرب شوقى فى الأرض كثيراً ، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها مالم تتهيأ رؤيته لكثير . وقرأ فى الفرنسية لأئمة البيان فى الغرب مالا يكاد يملكه الإحصاء . ولقد أساغ ما استمار ، وجرى فى أعراقه طلقا ، واستطاعت شاعريته

الفخمة أن تجلو منه ماشاء أن يجلو عربيا خالصا لاشك فيه . وهذه دواوينه تزخر بهذا البدع زخراً .

فاللهم إن كان التجديد ماذكرنا فشوقى إمام المجددين فى هذا العصر غير مدافع. أما إن كان التجديد هو المسخ ، واستحداث صور شائهة ، واستكراه ألوان من المعانى لاتمت إلينا بسبب ، على صيغ لاهى بالعربية ولا هى بالأعجمية ، فاللهم أشهد أن شوقى ليس مجدداً بل ليس شاعراً أبداً !.

ولقد جال شوقى بشعره فى كل غرض ، وقصد كل قصد ، وأصاب كل معنى ، وطال نفسه فى أكثر قصيده إلى مالم يطله كثير من أنفاس الشعراء ، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسف ، ولا فسلت أخيلته . ولا شاهت معانيه . بل لقد يأتى أكثر ما يأتى بالجوهرى الرائع من حر الكلام .

وليس شوقى بالذى يستدل على مكانه بالبيت أو البيتين فى القصيدة . أو بالقصيدة والقصيدتين فى الديوان . بل إذا طلبت عليه دليلا فهذه دواوينه . شق منها ما تشاء . وقع منها على ما تريد لك المصادفة . فلن تصيب إلا أرفع الشعر وأنفر الكلام .

وبعد ، فلقدمات شوقى ، وانحسمت جميع أسبابه من الدنيا ، وفرغ من مودات الناس ومن عداواتهم ، وأصبح شعره حبسا على التاريخ . فمن كان يرى حقا أن شوقى لم يبلغ هذه المنزلة ، أو أنه لم يبلغ بعضها . أو أنه لم يكن شاعراً البتة . فهذا له رأيه ، وعليه تبعته . ولا حيلة لنا ولا لغيرنا فيه . وأما من يقدر شوقى حق قدره فينزله هذه المنزلة أو ماهو أقرب إليها . فمن واجب الذمة أن يشيد بقدره ، ويدل على جلالة محله . لاقضاء لحق الإنصاف وحده ، ولا أداء لشكر النعمة فحسب ، فلقد كان شوقى نعمة عظمى أسبغها الله على أبناء العربية جميعا ؛ بل لاستدراج نشء المتأدبين إلى استظهار شعره ، وإنهالهم من أدبه ، واتخاذه النموذج المحتذى إذا اجتمع أحدهم للبيان .

٥ — ومن شعره ماقاله حين فجعه الموت فى صديقه الدكتور حلمى المنشاوى وهو فى ريق شبابه ومشرق نبوغه :

حلا الدمع بعدك والعيش مر خطبك جل عن المصطبر

وما خير هذى الحياة وقدكنـ ت مـلء الفؤاد ومـلء البصر
فإن كان لابد من لبثـــة فـا هى إلا الدمى والصـــور
وأما الهنـاء وأما النعيـ م فذلك صـنى عليـه القـدر
وهل كان يضحك زهر الربى إذا لم يباكره فيهـا المطر ؟
وما لذة الســـمع للسامعيـ ن وما من حديث ولا من سمر
ويا ويح من أمعنوا فى الفلا ة إذا الليـل جن وغاب القمر ؟
بنفسى هـــذا الفتى الأريحـ ى النجيب النجيد الأبى الأبر
جميـــل المحيـا ، نبيل الخلا ل ، كريم الفعال ، صدوق النظر
شديد الحياء ، عظيم الوفاء يرى الشر شر الهنات الكبر
أمـــين لغيب الصديق ، نصيـ ح رفيق المقـال إذا ما حضر
له شيمة كعبير الورود وروح كمثـــل نسيم السحر
جلا هذه النفس من صاغها وطهرها من خبيث الوضر
وما كان يعلو الغبار السماء أو يسكن الترب جوف الدرر
أخلى ، رويدك ما ذا جرى ؟ تحدث ، فدأبك صـدق الخبر
لقد كنت نعم الفتى المرتجى فديتـــك ، والأمل المدخر
صليب القناة ، خضيب الحصاة رحيب الأناة ، عزيز النفر
فتى العزيمـــة ما تنثنى ولو ذاب دون المرام الحجر
بعيد المطالب ، رحب المنى وصول الجهاد ، دؤوب السهر
ترجى وترجى لجلى الأمور فـاذا دعاك لهـــذا السفر ؟
لكم صاد فيـك أبوك المنى دراكا وصارع فيـك الغير
وضن على الدهر أن يعتريك بمـا يعترى العالمـــين الدهر
ولو قـــد ترقرق ماء الحياة لدى المشترى ما ونى أو فتر
ولو كان يرضى الفـدى مهجـة لشـــد على قلبه واعتصر
ولكن تغلب عزم الزمان على عزمـــه والقضاء انتصر
أحافظ ، ذلك حكم الإله وهل لامرىء دونه من مفر؟
فلم يبق إلا الرضى بالقضـــا أعانك من قـد بلا واختبر

عبد العزيز جاويش

١٨٧٦ — ٢٥ يناير ١٩٢٩ م[١]

حيـــاته :

علم من الأعلام فى الدين والوطنية والأدب والسياسة والاجتماع فى العصر الحديث ، ذلكم هو الشيخ عبد العزيز جاويش الكاتب الكبير ، والمربى القدير ، والمصلح الوطنى الغيور .

ولد بالاسكندرية من أصل مغربى ، ولما حفظ القرآن تعلم بجامع الشيخ ، ثم وفد إلى القاهرة ، والتحق بالأزهر فأصاب طائفة صالحة من العلم ، ثم دخل دار العلوم هو وصديقه الشيخ حسن منصور ، وفيها ظهرت مواهبه ، واتسعت مداركه وتجلت سجاياه ، فكان مثالا للمحافظة على الكرامة ، والغيرة على الدين والوطن ، لا يداهن فى ذلك ، ولا يقبل مفاوضة .

ولما نال إجازة المدرسة سنة ١٨٩٧ م عين مدرساً بالناصرية ثم بعثته وزارة المعارف إلى انجلترا لإتمام دراسته ، فعاد مستشارا فى الوزارة ، ثم عين مدرساً للغة العربية بكلية كمبردج ، وبعد قضائه ردحا من الزمن ، عين مفتشا كما كان ، وكانت فى الأستاذ نزعة إلى فضاء الحرية الفسيح واتجاه إلى خدمة الدين والوطن ، خدمة لا سبيل للوظائف الحكومية عليها ، فانضم إلى الحزب الوطنى ، وقام بالتحرير فى (اللواء) يكتب مقالات تتدفق قوة ، وتتلهب حماسة . فتجلت بلاغته ، غير أن ذلك لم يدم له فقد اتهم فى جريمة صحفية . قضت بحبسه مدة ، آثر من بعدها السفر إلى أوربا ، فنشبت الحرب أثناء مقامه بها ، ولم يستطع العودة ، فما زال يتقلب فى بلاد أوربا ، يتجرع كؤوس البلاء ، ويذوق ألوان المحن واللأواء ، ثابتاً على الصبر الجميل ، والإيمان الأثيل ، وهو يستغل ماله من جاه وشخصية فى خدمة من يلقاه من مواطنيه هنالك ، وبعد أن دوخته الحوادث ، ونالت منه الكوارث عاد إلى مصر مجهوداً مكدوداً ، وبعد لأى أسند إليه

---

(١) راجع كتابى « قصص من التاريخ » .

منصب مراقب التعليم الأولى فى جميع أرجاء القطر ، وما زال على ذلك حتى لقيه الأجل المحتوم .

أخلاق جاويش :

أما أخلاق الأستاذ فكانت نسيج وحدها طيباً وكمالا ، ما رضى ولا غضب لنفسه ، وإنما كان غضبه ورضاه لوطنه وأمته . وكان كريم اليد حتى فى اشتداد المحنة عليه ، محتفظا بكرامته ، لا يرى فوقها كرامة . وكان أميل إلى حياة الزهد بقناعة . عطوف القلب رفيقه ، موطأ الأكناف لأصدقائه ، صلباً فى الحق على خصمه . لايضن بجاهه ولا علمه ولا مشورته على مستنصح أو مستفيد . ولسنا — بما نصف من ذلك — نجامل أحدا ، وإنما هو ما عرفته بالخبرة من فضل الراحل الكريم(١) .

وكان هذا الرجل المحنك الذى ترك فى كل بلد أثراً من الاصلاح ، ربما كتب مقالا ودفع به إلى ، وأنا الذى لايعد نفسه إلا فى مرتبة أبنائه ، قبل أن يبعث به إلى المرحوم أمين الرافعى ، فيبدو لى وجه اعتراض أفضى به إليه ، فيبتسم ويقول : صدقت إن عذرى أنى كالغريب . ويمزق الورقات غير آسف ولا مستنكف ، وكان تواضعه هذا يسحرنى ويروعنى لأنه أدل على سمو النفس وبساطتها(٢) .

وكان الشيخ جاويش رحمه الله ، إلى ماله من الصفات التى ذكرناها لك ، عذب الروح ، حلو الحديث فى توقر واحتشام ، شديد الحياء حتى ما يكاد يرفع بصره إلى محدثه ، وكان مع هذا حاد المزاج يثور لأقل مايتوهم فيه الغض من كرامته أو التهاون فى دينه ، بل مخالفة رأيه ، على أنه كان من صفاء النفس ، وطيبة القلب، وخلوص النية بالمكان الأرفع ، كما كان سمحا كريما يجود حتى بقوته ولو لم يكن إلى سواه السبيل(٣) .

---

(١) أهرام ٢٦ – ١ – ١٩٢٩ .

(٢) المازنى : السياسة الأسبوعية ٢ – ٢ – ١٩٢٩ .

(٣) المفصل ٣٧٨ : ٢ .

وكان وسيم الطلعة ، أبيض الوجه ، مشرق الديباجة ، باسم الثغر ، متطرفا فى وطنية صادقاً فى حبه لمصر ، يرمى بالخيانة كل من خرج على مبادىء الوطنية الصحيحة التى يؤمن بها . . إلى ما أوتيه من ذكاء ومقدرة وشخصية جـــذابة .

جاويش العالم :

تلقى جاويش ثقافته فى الأزهر ودار العلوم ثم أكملها فى لندن ، وشغل مناصب كبيرة فى وزارة المعارف ، كما كان فى منصب على كبير فى أكسفورد ، وطاف بالبلاد فى الشرق والغرب ، وقضى حياته بعيداً عن وطنه متصلا بتيار الثقافة والتفكير فى تركيا وأوربا وبلاد الشرق . فوق عقليته الجبارة وذهنه المتوقد ، وإلمامه باللغة العربية والتركية والانجليزية والألمانية ، وكل هذه العوامل جعلت من جاويش بحق عالماً كفؤا ، وباحثا مدققا ، وذا عقلية من الطراز الأول بين علماء النهضة الحديثة فى مصر والشرق العربى .

جاويش المؤلف :

ألف أول عهده بالتعليم كتابين لايزالان فى بابهما أحسن مرجعين . وهما : كتابه « إرشاد المعلمين » ، وكتابه الذى أسماه « الإسلام دين الفطرة » ، عدا كتاباً آخر نشره تباعا فى الأخبار عن المسكرات ، وهو كتاب مادته من الطب والأرقام وغيرهما . وعدا الكتاب الذى أودعه محاضرات دينية(١) . وله كتاب عنوانه « أثر القرآن الكريم فى تحرير الفكر البشرى » . .

وقد سبق أنه ألف فى لندن كتابا فى : « أذى الخمر ومضاره » ، وهو الكتاب الذى سبق آنفاً التنويه به ، كما ألف كتاب « إجابتى على الكنيسة الانجليكية » باللغة التركية . وكتاب « الإسلام دين الفطرة » وكتاب « غنية المؤدبين » طبعا مراراً .

---

(١) أهرام ٢٦ - ١ - ١٩٢٩ .

ولجاويش كتاب آخر سماه « خواطر التربية النفسية والاجتماع ، وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة ، بقلم خبير بأطوار الأمم الشرقية » . وهو مقالات سياسية واجتماعية ووطنية نشرها جاويش بجريدة اللواء ، وجمعت فى هذا الكتاب الذى وقع فى ١٣٦ صفحة ، وهذه المقالات سجل مهم للحياة المصرية والسياسية الإنجليزية فى مصر من عام ١٩٠٨ إلى ما قبل قيام الحرب الكبرى عام ١٩١٤ ، وهى جزء من تاريخ جاويش وجهاده فى سبيل وطنه .

وله كتاب آخر سماه « مرشد المعلمين » ، وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة الواعظ بشارع درب الجماميز بمصر عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، وعلى غلافه « تأليف حضرة الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش الاسكندرى مدرس اللغة العربية بكلية أكسفورد » ، وتقع هذه الطبعة فى ٢٨٦ صفحة .

وجاء فى مقدمة الكتاب : « دعانى إلى وضع هذه العجالة ما رأيته من حاجة المعلمين الشديدة إلى ما يهتدون بنبراسه من كتب التربية العملية ، فإن ما سبق لى وضعه فى هذا الفن لم يكن فى الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء . ولذا جاء غير واف بجميع المباحث الضرورية » .

والكتاب مجهود ضخم فى التربية العملية ووسائلها وأهدافها ، وهو ينطق بمدى ما كان للشيخ جاويش من قدم راسخة فى الثقافة الحديثة والقديمة على السواء .

جاويش الأديب :

ودراسة جاويش فى الأزهر ودار العلوم ، وعمله مدرساً للغة العربية فى الناصرية وأكسفورد ، وما يضاف إلى ذلك من ثقافته الواسعة ، وعقليته الناضجة ، وطول كتابته الوطنية فى الصحف والدينية فى المجلات .

كل ذلك كان من عناصر شخصية جاويش الأديب .

وأسلوبه قوى جزل سهل ، ولفظه شريف فخم ، يترسم فيه أسلوب نهج البلاغة ، وقد يعمد إلى السجع فيجىء به فى براعة وإحسان[1] .

---

(١) ٢/٣٨٩ المفصل .

نماذج من أدبه وبلاغاته :

١ — كتب سنة ١٩٠٧ يقرظ كتاب المنتخبات العربية من تأليف الأستاذين : محمد حسن وأمين الباجوري :

كيف لا أطيب أيها الفاضلان نفسا ، وأنشرح صدراً ، وأنا كل يوم أرى لكما من المساعي المشكورة ما يزيد العالم أملا في الشبيبة المصرية العربية . ما زلت أكبر منكما هبة أنفسكما لتحصيل العلوم والفضائل حتى رأيتكما لم تقتصر همتكما على ذلك . إذ شاءت أن تستفيد الشيوخ من حداثتكما ، فأتت بهذه الباكورة الطيبة دليلا على ما سيعقبها من القطوف الدانية الشهية ، وحجة على من يزعم أن الفضل بالمشيخة أو الشيخوخة(١) .

اطلعت على ما أتيتما به في هذه المجموعة ، فوجدت في ثنايا سطورها ألسنا تنطق بما لكما من قوة الإدراك وسلامة الذوق وحسن الاختيار وسعة الاطلاع، مما جعلني أجزم بما سيكون لها من المكانة السامية بين التآليف . جزاكما الله خيراً عن العلم وطلابه ، وأكثر من أمثالكما حتى يرجع كهل الفضل إلى شبابه .

٢ — وكتب جاويش وهو مفتش بوزارة المعارف على لسان شخص يعتذر لآخر ويستعطفه(٢) : إن فطام الطفل إذا شب على الرضاع غاية لا تحتمل ، والسخط على من تعود الرضا ، أنكى من وقوع الأسل . وها أنذا قد تربيت في مهد جنابكم ودرجت في بحبوحة حنانكم ، لم أر منكم إلا قلبا أحنى علي من حنايا الضلوع ؛ وجنباً إن استصرخت لا يطمئن للهجوع ، وعينا أبصر بحاجاتي من زرقاء اليمامة ؛ وكفا أجود بالخير من كعب بن مامة ، ولسانا إذا ذكرني كان رطبا ، وعزما إذا جرد دوني كان سيفا عضبا ، وصدراً أرحب من ساحتك الواسعة ، ورحمة إن أسأت كانت إليك شافعة . وإني أعيذ السيد من أن يقصد إلى قطع صلتي ، أو يكلفني احتمال الصبر على خلف عدتي ، إذ لم أعود قبل ذلك أن أجفى وأبعد ، وصعب على الإنسان ما لم يعود .

---

(١) ص ٤ من كتاب المنتخبات العربية .
(٢) ٢١٦ المنتخبات العربية ط ١٩٠٧

على أنى لا أعلم لى ذنبا سوى أنى مظهر إحسانك، وآية آلائك ، إذا تحركت فما أنا إلا لسان يتحرك بإطرائك ، أو نهضت فما ينهضنى إلا شكرك ، أو تثاقلت فإنما يثقلنى برك . ما لبست ثيابى إلا على نعمة لك مجسمة ، ولا أدرك بصرى إلا مكارم تلك المرحمة ، فلتقبل شفاعة أريحيتك ، ولتجب لراعى مروءتك ، واجعل من بسطة نفسك بسطة لكفيك . واتخذ من نفسك شفيعا إليك . هذا ولا أزال أردد زفرات لا يطفيها سوى أن ترجع المياه إلى مجاريها » .

٣ — ومن كتابته فى الموضوعات الدينية ما كتبه تحت عنوان « فى الإسلام » : سمعت بعض المارقين الذين لا يتجاوز إسلامهم أزياءهم وأسماءهم يقول ذات يوم : إنه يستهجن أن تلتمس الفضائل والمكارم من طريق الدين ، إذ خير للمرء أن يمت إليها بأسباب أخرى كالبحث والنظر فى مزاياها وخواصها حتى تتجلى له صفاتها الطيبة ، فتجذب نفسه إليها تعشقا لمحاسنها وجمالها ، فإذا قام الناس بالهداية والارشاد من هذا الطريق فما حاجة الناس إذاً إلى الدين . يزعم أمثال هذا الجاهل أن دعوى العلم قد تؤيدها أمثال هذه السخافات ، فهم - ما استطاعوا - ينشرونها بين الناشئة من أبناء المسلمين ليضللوهم بها غير مبتغين منهم سوى أن ينعتوهم بالفلاسفة أو بذوى الأفكار الحرة . ولو فقهوا قليلا لعلموا أنه ليست الفلسفة إلا إدراك حقائق الأشياء من غير تنطع ولا جحود ، وأنهم لو كانوا من أهل النظر لعلموا أن الدين أقرب طريق إلى معرفة الحق والباطل ، وأن الأخذ بمسائله وأحكامه وأخباره يحدث فى النفوس وازعا عن الشرور والمآثم أكثر مما تحدثه الدراسات على النحو الذى يبتغيه أولئك المتعالمون المتفقهون ، يقرر هذا قوله صلى الله عليه ما معناه : « يزع الله بالقرآن أكثر مما يزع بالسلطان » .

والأصل فى ذلك أن زمام العالم فى قبضة عقائدهم ، ذلك لأن الاعتقاد الجازم الذى لا تنقصه الشكوك ولا تؤثر فيه هواجس الشبهات يستلزم أن يعمل صاحبه على مقتضاه ، فإذا ما وهنت العقيدة وأرخت الشكوك والوساوس العنان للنفس خبطت خبط العشواء ، وتقاذفتها عوامل الأهواء . وقلما سلمت لماسيرة من عثرة أو وضحت أمامها سبيل إلى الخير .

جاويش الصحفى :

وقد عاش جاويش طول حياته صحفيا ممتازا موهوبا ، والى عمله فى صحف

الحزب الوطنى طول حياته ، وأصدر مجلة الهداية عام ١٩١٠ ، وهى مجلة دينية علمية أدبية اجتماعية ، وكانت تصدر كل شهر عربى مرة ، حافلة بالمقالات والبحوث ، وكان أصحاب امتيازها حسين تيمور وشركاه ، وكانت مطبعتها بشارع رحبة عابدين بالقاهرة . وكان يصدر المرحوم جاويش أعدادها بتفسير للقرآن الكريم بدون توقيع ، وكانت عادة الشيخ أن لا يوقع كل مقالاته ، بل يوقع فى كل عدد واحدة منها ، ويترك الباقى دون توقيعه ، وكان أحيانا يوقع بعض كلماته بكلمة « الفاضل المغربى » ، أو كلمة « اجتماعى » ، وقد صدر المجلد الأول من الهداية عام ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠ م . ولا شك أن جاويشاً كان هو محرر المجلة جميعها .

ولما لجأ جاويش إلى الآستانة أنشأ فى ١٦ مارس ١٩١٢ جريدة « الهلال العثمانى » التى عاشت عامين . وأثناء الحرب الكبرى أوعز اليه الخليفة العثمانى أن ينشر مجلة « العالم الاسلامى » تعزيزا لمقام الخلافة ، وقد صدرت أولى أعداد هذه المجلة عام ١٩١٦ .

جاويش وحركات الإصلاح :

كان لا يكف عن التفكير فى عمل صالح : من مثل مدرسة يريد أن ينشئها على أسلوب طريف يجمع بين العلم والعمل ، أو معهد ، أو جمعية خيرية ، ولم يكن يصرفه عن مداومة التفكير فى هذا وما إليه أنه لا يكاد يجد القوت إلا كفافا . وكم جر أصدقاءه معه فرضاً يزور البيوت الخالية ليرى أتصلح أم لا تصلح أن تكون مدارس ـــ مدارس بصيغة الجمع لا مدرسة واحدة ـــ وكنت أسأل عن المال اللازم من أين يظن أن فى وسعه أن يجىء به فيقول : لا تثبطنى ، المال نفكر فيه أوان الحاجة اليه ، وعلى أن حاجتنا منه إلى القليل ، ولن نعدم وسيلة ، فأهز رأسى ، فيقول : أيائس أنت من الناس إلى هذا الحد ، ثم يشرع فى مشروعاته معوقلة تكاليفها ، فأسكت وأحس أن من الجناية أن ألقى ترابا على هذه النار ، وإنى لأعلم أنها تأكله »(١) .

جاويش والفكرة الإسلامية :

« تعلق أمل جاويش بأخذ البلد بآداب الدين الحنيف حتى تعود للاسلام سيرته

(١) المازنى ـــ السياسة الأسبوعية ٢ - ٢ - ١٩٢٩ .

فى أنضر أيامه . وبذلك كان يؤمن الشيخ جاويش ، وفى هذا كان يجاهد جهاداً عنيفا يتجاوز طاقته وجهده ووقته ، [١] . ولهذا ظل طول حياته يربط السياسة العربية بالخلافة العثمانية مظهر الاسلام فى القرن العشرين . ولئن كانت مدرسة محمد عبده فى مصر هى التى احتلت مكان الدعاية للاصلاح الدينى ، من أمثال : طنطاوى جوهرى ، والمراغى ، ومحمد الخضرى ، والنجار ، ومحمد المهدى ، وابراهيم حروش . فإن الشيخ جاويشا كان يعد نفسه من أقران جمال الدين الأفغانى والامام محمد عبده . كان يرى نفسه أمة وحده .

جاويش الشاعر :

والناس لايعرفون أن جاويشا كان مع أدبه وبلاغته شاعراً ، ينظم الشعر ، كما كان ناقداً يتذوقه وينقده .

وهذه إحدى قصائده الفريدة ، قال فى الحكمة من قصيدة طويلة نظمها فى الرثاء :

ما أبعد الراحة فى قربها ... وأضيق الأرض على رحبها
حلاوة الدنيا جفا حلوها ... ما أكدر الصافى من شربها
تسىء والمعروف مستحسن ... فلا ترم ما ليس من دأبها
كم أمطرت قوما على ظمئهم ... وكان كل الوبل من سحبها
وكم بدا فى أفقـــه شارق ... فالت الآفاق عن شهبها
إذا اشتكى المرء لها علة ... وحركت شكواه من لبها
تعالج الداء بكأس الردى ... ما أحمق الأيام فى طبها
من ذا يقى الإنسان من حربها ... وهــذه الأقدار من حزبها
أو يمسك الآجال عن سوقها ... إذا كانت الأيام من نجبها[٢]

ومن مرثية طويلة له :

طوارق أمر قد دهتنا عواقبه ... وحالك ليل غاب عنا كواكبه

---

(١) البشرى ـ يوميات ـ السياسة الأسبوعية ٩ - ٣ - ١٩٢٩ .
(٢) ٢١٧ المنتخبات العربية ط ١٩٠٧ .

والنفس آمال وفي الغيب غيرها والدهر سيف لم تخنه مضاربه
وما الناس إلا ميت وابن ميت وآخر لازال المنون يراقبه
ترى المرء مافوق الأرائك مصبحا
سيمسي وفي عهد التراب ترائبه
يجافي لباس الخز عن مس جسمه فلا تجافي عن حصا القبر جانبه
خليلي لاتستعتب الدهر إنه متى ياترى عادت إلينا ذواهبه
أتخلد فيه وهو مثلك ذاهب ألا إن آمال الفؤاد كواذبه
يود الفتى لو أنه طال عمره وما العمر إلا بجده ومناقبه[1]

---

(١) ٢١٨ المراجع السابق .

مصطفى صادق الرافعى

— ١ —

الرافعى كاتب متميز الديباجة والأسلوب والمنهج . يغرق كثيراً فى الخيال ، ويتكلف ألوانا من صنعة البديع تكلفا قد يصل به إلى حد الإغراب ، يتأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف تأثراً شديداً .

يقول بعض معاصريه فيه : إنه درج فى حجر أربعين عالما من آل الرافعى كانوا شيوخ الحنفية فى مصر ، وكان أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعى متميزاً فى قضائه بمرارة الحق ، وثبات العقيدة . فجاء مصطفى فى كل ذلك صورة أسرته وسر أبيه ، ولم يذهب[1] إلى الأزهر لأنه كان فى أزهر من قومه . وإنما نشأ فى مغداه ومراحه بين طلخا والمنصورة تلميذاً بمدرسة الفرير ، تخرج فى علوم اللسان والشريعة على أبيه حتى حذق العربية ، وفقه الدين ، وثقف الأدب ، وأصبح فارسا فى الحلبتين — ولما يعد العشرين — فلما بلغ ربيع العمر ختم الله على سمعه بالصمم الشديد . فكان منذ شبابه الأول بنجوة من لغو الناس ولغط المجتمع ؛ فسلم عقله من السخف ، وبرىء ذوقه من التبذل ، وعاش فى عالم الخيال ، ودنيا الكتب . فاتسع تفكيره وارتفع مقياس فنه . وظل على طبيعته الشابة فى حدة الطبع ، والإخلاص ، والصدق ، والصراحة والنقاء . ويقول هو عن نفسه : إنه حفظ القرآن كله وجوده بإحكام وهو فى العاشرة . وكان أبوه آنذاك كبير القضاة الشرعيين فى مدينة دمنهور عاصمة إقليم البحيرة .

ولقد كان الرافعى كما قيل : كلمة إسلامية جامعة تتلخص فى الدعوة الصارمة الصارخة الصادقة إلى فضائل الإسلام فى زمن كادت تتقلص فيه عن هذه الأرض الواسعة ظلال الفضائل وخلائق الخير ، ومثل الإنسانية العليا . وما زال الرافعى

---

(١) ٤/١٣٧ الأدب العربى وتاريخه .

حجة من حجج الشرق والإسلام فى عصر فقير من الأقلام المجاهدة الذائدة . وقد أتى عليه حين أو شك فيه أن يكون وحده آخذاً جهة فى الميدان . وجميع الكتاب فى جهة أخرى . وكان هذا فى الزمن الذى أعقب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ والذى طغت فيه على مصر موجة إلحادية هدامة . تصدت لجميع مقدساتنا حتى لأقدسها . وهو القرآن الكريم . ولا يؤخذ على الرافعى رحمه الله فى معانيه وأساليبه إلا استعانته بالخيالات البعيدة والاستعارات الغريبة ، والفنون البديعية المتكلفة : ولعل مرجع ذلك ما ألزمه به الصمم من العيش بعيداً عن المألوف من لغة الناس ، إلا أن ما يسلم له من ذلك لا يجاريه فيه أحد من الكتاب فى القديم أو الحديث .

وثقافة الرافعى متصلة اتصالا وثيقا بتراثنا القديم، الذى يتمثل فى أسلوبه ويتغلغل فى أدبه وتهذيبه بصورة لا تجد لها نظيراً فى آثار المعاصرين . ولعل ذلك هو الذى جعل مصطفى كامل رحمه الله يقول فيه وهو أديب ناشىء : سيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العلية مصوغة فى أجمل قالب من البيان .. ويقول له المرحوم الشيخ محمد عبده وقد اطلع على شىء من شعره : أسأل الله أن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل .

وللرافعى كتاب وحى القلم ، وكتاب تحت راية القرآن ، وكتاب تاريخ آداب العرب فى ثلاثة أجزاء ، ثانيها فى إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — وهو كتاب لا نظير له ، وعدة رسائل فى الحب والجمال . وهى فى أبوابها مضرب الأمثال .

وقد توفى فى التاسع من شهر مايو سنة ١٩٣٧

ولقد كان الرافعى فى الطليعة من قادة الرأى والبيان ، اختطت له فطرته العربية وثقافته العربية منهجا لم يقتحم صعابه إلا النزر اليسير من حملة الأقلام فى بلاد العرب .

وقد ظهر هذا العبقرى بشخصيته الفذة فى حقبة من الزمن كان الأديب فيها متلبذاً لمدرستين : إحداهما مدرسة الأدب العربى - تحاول إنهاض اللغة من كبوتها وقد طالت قرونا . فتحصرهما فى تنميق العبارات وتصحيح المفردات والتخلص من الأسلوب السقيم الذى طغت فيه على البيان أسجاع المتحذلقين واجتاحته الألفاظ العامية . والأخرى مدرسة الأدب الدخيل - تغترف من معين الغرب أوشالا تريقها بيانا لا يمت إلى العربية الفصحى بسبب ، وليس فيه من الألفاظ

ومتانة الأسلوب مايقوى على اقتناص روائع التفكير منه .

وكان الرافعى فى تلك الفترة يخطو خطواته الأولى بعيداً عن المدرسة الثانية متصلا بالمدرسة الأولى بجامع حب اختيار الألفاظ وتنميق الأسلوب ، غير أنه تدعن هذه المدرسة بإرسال نظراته إلى أغوار الأدب العربى القديم ، غير واقف عند لامعات الأصداف الطافية على سطوحه .

ووصفـــه الزيات بأنه «كان فى الكتابة طريقة وحده ! وحسب الكاتب مزية ألا يكون لأسلوبه ضريع فى الأدب كله . فإذا قيل لك إن الرافعى قـــديم الأسلوب فى التفكير والتعبير فاحمل ذلك على الحسد الذى لاحيلة فيه ، أو على الجهل الذى لاحكم معه . وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك على كاتب يترسم الرافعى مواقع قلمه أو قدمه . إنما هى شنشنة من ضعاف الملكة وقاصرى الأداة ، يرمون من يجيد لغته بالتخلف ، ومن يتعهد كلامه بالتكلف ، ومن يؤثر أدبه بالمحافظة .

أسلوب الرافعى يمتاز بالسلامة والسلاسة والإيجاز والعمق . ولهـــذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه . وأشد مايروعك منه قوة الفن وحركة الذهن . فأما قوة الفن فهى الأستاذية التى تخلق المادة ، وتصنع القالب ، وتضع اللفظ ، وتجدد الرسوم ، وتوضح الفروق ، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف ، وتخيل إليك أن الصناعة طبع والمعاناة سليقة . وأما حركة الذهن فهى حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح ، ولا يستقر على القاع ، وإنما يضرب بيديه القويتين فى أغوار البحر ، وقد انقطع عن شواغل الناس بالعين والأذن ، على أنها حركة الرواية لا حركة العبقرية ، فمعانيه تقطر ولا تفيض ، ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح منهلا طامى الجوانب صافى المورد .

كان يحمل الفكرة فى ذهنه أياماً يعاودها فى خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل ، حتى تتشعب فى خياله وتتكاثر فى خاطره ، ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما فهمها على الذكاء المألوف . فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ ، جلاها على الوضع الماثل فى ذهنه ، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه ، فتأتى فى بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها

واضحة فى نفسك وضوحها فى نفسه ، وذلك عيب المرورين من صاغة الكلام، وراضة الحكمة ، كابن المقفع والمتنبي ، وبسكال وبول ڤاليرى ، ومنشأ ذلك العيب فيهم أنهم يطيلون النظر ويديمون الفكر ويعمقون البحث ، حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارىء ، وتتسع المسافة بين معانيهم وألفاظ اللغة ، فيكتبون وأفهامهم سابقة سبوق الروح ، وأقلامهم متخلفة تخلف الجسم . ويزيد فى هذا الغموض أن سعة العقل فى النوابغ تستلزم ضيق اللسان ، فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والغثاء إلا حيث يضحل الذهن ويقصر النظر وتنزر المادة ، والرافعى كان يقتصد فى أسلوبه ، لأنه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه مايجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية ، فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم ، يقصر ولا يطول ، ويضيق ولا يتسع ، ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم مايكون حسنا وأناقـــة .

وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم ، سليم المنطق ، إلا أنه بعيد الإشارة ، يستسر جماله على القارىء العجلان والفهم البطىء . فإذا روى فيه الناقد المتذوق انكشف له فى كل كلمة سر ، وطالعته فى كل فقرة آية . ولعل النفس الشاعرة لاتجد فيه من أنوثة العاطفة ماتجده النفس المنطقية من فحولة الفكرة ، ومرجع ذلك فى الرافعى غلبة الفكر على الشعور ، وسطوة الفن على الطبيعة » ...

— ٢ —

ويقول محمد سعيد العريان فى نشأة الرافعى :

نشأ فى بيت له نسب عريق فى الإسلام . وأنت إذا رجعت إلى تاريخ القضاء فى مصر إلى قرن مضى ، رأيت لاسم (الرافعى) تاريخاً فى كل ديوان من دواوين القضاء والإفتاء . وقبل نزوح الشيخ محمد الرافعى الكبير من (طرابلس الشام) لم يكن معروفاً لمذهب أبى حنيفة أتباع فى مصر . فهو شيخ الحنفية فى هذه الديار غير منازع ، وقد تخرج على يديه أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب ، ومن تلاميذه المرحوم الشيخ محمـــد البحراوى الكبير ، كما تخرج على يدى أخيه الشيخ عبد القادر الرافعى كثير منهم ، ومن تلاميذ أخيه شيخ الشيوخ الآن

الشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق ، وقد مضى زمن كانت فيه وظائف الإفتاء كلها محبوسة على (آل الرافعي) ، حتى ذكر اللورد كرومر في بعض تقاريره : « إن من هذه الأسرة أربعين قاضياً شرعياً » . . . وأبو المترجم له (الشيخ عبد الرازق الرافعي) كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وكان رجلا ورعاً له صلابة في الدين ، وشدة في الحق ، مابرح يذكرها مع الإعجاب معاصروه من شيوخ طنطا . وبيت الرافعي في (طرابلس الشام) من البيوت الرفيعة ، وما يزال كعبة يحج إليها العلماء . واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون . . .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعي وإن كان قد تربى تربية مدنية كالتي ينشأ عليها أكثر أبناء هذا الجيل ، لم يزل بعض أهله ، وقد حمل عن آبائه الراية يقتحم بها في سبيل الدين .

أفرأيت الرافعي وهذا منشؤه ونسبه يقنع بالقدر الضئيل من العلم الذي تلقاه في المدرسة ؛ ومن أين للرافعي أن يعرف هذه القناعة . . . ؟

فما هو إلا أن ترك المدرسة حتى انكب على كتب الدين والعربية يستبطن أسرارها وينبش عن دفائنها ؛ لحصل ما حصل من علوم اللغة والدين ، وبلغ ما بلغ من أساليب البلاغة وأسرار العربية . وكان في نفس الرافعي هوى قديم أن يكون شاعراً . . . فأخذ يقرض الشعر ، وأتم طبع الجزء الأول من ديوانه ولما يبلغ الثالثة والعشرين . . . وقدم بين يدي ديوانه مقدمة بليغة ، كانت وحدها البرهان على أن هذا الشاب النحيل الضاوي الجسد يعرف أين موضعه بين أدباء العربية في غد . . . وما أحاول أن أتكلم عن الرافعي الشاعر الأديب في ديوانه ، وعن مقدمة ديوانه بأبلغ مما قال عنه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي ، وهو يومئذ أديب العصر وأبلغ منشيء في العالم العربي ؛ فقد كتب في عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء ، في تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتي :

« وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة ، وتبسط ما شاء في وصف الشعر ، وتقسيمه ، وبيان مزيته ، في كلام تضمن من فنون المجاز ، وضروب الخيال ، ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه . . .

ثم انتقد الأستاذ اليازجي بعض ألفاظ في الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه ؛ لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر ، فإن الناظم — كما بلغنا — لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ؛ ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر ، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر . . . . »

لم يكن الشيخ إبراهيم اليازجي وحـــــده هو الذي تنبأ للرافعي الشاب بالمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها اليوم ؛ فقد نال يومئذ أكبر قسط من عناية الأدباء في عصره ؛ وهذه أبيات لشاعر مصر الكبير المرحوم حافظ إبرهيم ، بعث بها إلى الرافعي في سنة ١٩٠٦ ، تدل بنفسها على مقدار احتفال أدباء العصر بهذا الناشىء الجبار :

أراك وأنت نبت اليوم تمشي ... بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت (النبوة) في المعاني ... وما جاوزت حد (الأربعينا)
فزن تاج الرياسة بعد (سامي) ... كما زانت فرائده الجبينـــا
وهذا الصولجان فكن حريصا ... على ملك القريض وكن أمينا
وحسبك أن مطريك (ابن هانى) ... وأنك قد غدوت له قرينـا

ولم يتناول الرافعي في الجزء الأول من ديوانه إلا ما يتناوله الشاب من فنون الشعر ، ولم يكن معروفا له اتجاه أدبي إلى غير هذا اللون من شعر الشباب ، على أن نبوءة من وراء الغيب جاءت على لسان الأستاذ الامام (محمد عبده) ، في كتاب بعث به إلى الرافعي سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) تدعو إلى العجب والتأمل ، إذ ختم كتابه إلى الرافعي بهذه العبارة .

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل . »

— ٣ —

ومن نثر الرافعي قوله في « حقيقة المسلم » من كتابه « وحي القلم » :

« لا يعرف التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم رجلا أفرغ الله وجوده في

الوجود الإنسانى كله : كما تنصب المادة فى المادة ، تمتزج بها ، فتحولها فتحدث منها الجديد ، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو ، وإذا هو صلى الله عليه وسلم وجود سرى فيها ، فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحول .

كان المعنى الآدمى فى هـــذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه يتحيفه ويمحوه ، ويتعاوره بالشر والمنكر ، فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد ، بدأت به الدنيا فى تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان فى ذاته ، فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح لها طريق المجىء من الجنة ، والثانى فتح لها طريق العودة اليها ، كان فى آدم سر وجود الإنسانية ، وكان فى محمد سر كمالها .

ولهذا سمى الدين بالإسلام ، لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أى إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ، كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تصرفها وتعتملها فى كمالها ومعاليها ، فلاحظ هوله من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه ، ولكن للانسانية بها الحظ .

وما الإسلام فى جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات ، و (إسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها ، وكلما نكصت إلى منزعها الحيوانى ، أسلمها صاحبها إلى وازعها الإلهى وهو أبدا يروضها على هذه الحركة مادام حيا ، فينتزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها ما بين يدى حقيقتها الإلهية ، يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مسماة فى اللغة خمس صلوات ، لا يكون الاسلام إسلاما بغيرها ، فلا غرو كانت الصلوات بهذا المعنى كما وصفها النبى صلى الله عليه وسلم هى عماد الدين . بين ساعات وساعات فى كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة أى إسلام النفس إلى الإدارة الاجتماعية الشاملة القائمة على الطاعة للفرض الإلهى ، وإنكار لمعانيها الذاتية الفانيـــة التى هى مادة الشر فى الأرض ، وإقرارها لحظات فى حيز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها ، وآثامها ومنكراتها ، ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روحه ، إذ كانت أعمال الدنيا فى جملتها طرقا تتشتت فيها الأرواح وتتبعثر ، حتى تضل روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ، ولا تعرفها .

وهذا الوجود الروحى هو مبعث الحالة العقلية التى جاء الإسلام ليهدى الإنسانية

إنها : حالة السلام الروحانى الذى يجعل حرب الدنيا المهلكة حربا فى خارج النفس لا فى داخلها ، ويجعل ثروة الإنسان مقدرة بما يعامــل الله والإنسانية عليه ، فلا يكون ذهبه وفضته ما كتبت عليه الدول : « ضرب فى مملكة كذا » ولكن ما يراه هو قد كتب عليه (صنع فى مملكة نفسى) ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعى للأخذ فحسب ، بل للعطاء أيضا ، فإن قانون المال هو الجمع ، أما قانون العمل فهو البذل . بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها يستشعر المسلم أنه قد حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وخرج منها إلى روحانية لا يحد فيها إلا بالله وحده .

وبالقيام فى الصلاة ، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامى على الجسم كله ، ليمتزج بجلال الكون ووقاره ، كأنه كائن منتصب مع الكائنات ، يسبح بحمده .

وبالتولى شطر القبلة فى سمتها الذى لا يتغير على اختلاف أوضاع الأرض يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت فى روحانية الحياة ، فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها .

وبالركوع والسجود بين يدى الله ، يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيات والطيبات ، يكون المسلم جالسا فوق الدنيا يحمد الله ويصلى على نبيه وملائكته ويشهد ويدعو .

وبالتسليم الذى يخرج به من الصلاة ، يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالا جديداً من جهة السلام والرحمة .

هى لحظات من الحياة كل يوم من غير أشياء هذه الدنيا ، بجمع الشهوات ، وتقييدها بين وقت لآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس ، ليرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود ، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع .

هى خمس صلوات ، وهى كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدق وأبدع وأصدق قوله صلى الله عليه وسلم « جعلت قرة عينى فى الصلاة »

لم يكن الإسلام فى حقيقته إلا إبداعا للصيغة العملية التى تنتظم الإنسانية فيها ، ولهذا كانت آدابه كلها حراسا على القلب المؤمن ، كأنها ملائكة من المعانى : وكان الاسلام بها عملا إصلاحيا وقع به التطور فى عالم الغريزة ، فنقله إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخلق إلى الحق ، ثم سما بالحق إلى الخير العام ، فهو سمو فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرج إلى الكمال فى ثلاث منازل ، وابتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق .

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمة التى أسسها النبى صلى الله عليه وسلم دنيا أسلمت طبيعتها . فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هى ، وكأنها قائمة بنواميس من أهلها ، لا على أهلها ، وكان الظاهر أن الإسلام يغزو الأمم بالعرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن إقليما من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين .

وكأن الله تعالى ألقى فى رمال الجزيرة روح البحر ، وبعثها بعثه الإلهى لأمره ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم هو نقطة المد التى يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجه التى غسلت بها الدنيا .

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله تعالى فى كتابه ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضى ، ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها ، بل روعة أمر السماء فى بلاغة ، واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسان بإنسان . بل كما تتصل الأمواج بقوة المد ، ثم كما يمد بعضها بعضا فى قوة واحدة .

وحققوا فى كماله صلى الله عليه وسلم وجودهم النفسى ، فكانوا من زخارف الحياة وباطلها فى موضع الحقيقة الذى يرى فيه الشىء لا شىء .

ورأوا فى إرادته صلى الله عليه وسلم النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس ، فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض : لا من كتب وعلم وفلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده .

وعرفوا به صلى الله عليه وسلم إتمام الرجولة ، ومتى تمت هذه الرجولة تمامها فى إنسان رجعت له الطفولة فى روحه ، وامتلك تلك الطبيعة التى لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء ، فأصبح كأنما يمشى فى الحياة إلى الجنة بخطوات

مسددة لا تزيغ ولا تنحرف ، فلا شر ولا رذيلة ، ودنياه هي الدنيا كلها ، بشمسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئا ، ما دامت في قلبه طبيعة السرور . فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه ، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل ، إذ لم تعد القوة في المادة ، تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القـــوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة ، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتدم به مع الخبز القفار ، كما يؤتدم باللحم وأطايب الأطعمة .

وبذلك لا تتساقط ضرورة على الجسم — كالجوع والفقر والألم ونحوها — إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم : أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضر ، لو قالت شيئا لقالت : إن ثروتي في الحياة هي الحياة نفسها ، فليس لي فقر ولا غنى ، بل طبيعة أو لا طبيعة .

ولقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله ، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه ، فما يحسبها إلا كأنها قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه !

وكان يبتلى في نفسه وماله ، فلا يشعر في ذلك أنه المرزأ المبتلى يعرف فيه الحزن والانكسار ، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظافر في بطله العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح ، فهي جراح وتشويه وألم ، وهي شهادة النصر !

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالا على نفسه ، بل كانت له أسباب قوة وسمو ، كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا ، يحمل دائما من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين .

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم مثلهم الأعلى وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله . إن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره ، فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحـدة متعاونة تجعل المسلم وما هو إلا روح أمة تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحـــدها .

المسلم إنسان ممتد بمنافعه فى معناه الاجتماعى حول أمته كلها ، لا إنسان ضيق يجتمع حول نفسه بهذه المنافع ، وهو من غيره فى صدق المعاملة الإجتماعية كالتاجر من التاجر ، تقول الأمانة لكليهما : لاقيمة لميزانك إلا أن يصدقه ميزان أخيك .

— ٤ —

وكتب عن حافظ إبراهيم يقول :

ذهبت بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكنة الأشياء ولم أجد مكان قلبي ؛ أيها القلب المسكين أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبت به (حافظ) حين سألني مرة : مالك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقر ؟ وكان يخيل إلى أنه هو راض مستقر هادىء ، كأنما قضى من الحياة نهمته ، ولم يبق فى نفسه ماتقول نفسه : ليت ذلك لى . وكنت أعجب لهذا الخلق فيه ، ولا ادرى ما تعليله إلا ان يكون قد خلق مطبوعا بطابع اليتم ، فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابن القدر ، تأتيه الأفراح والأحزان من يد واحدة مقبلة كما تنال الصبي ألطاف أبيه ولطمات أبيه . . .

وقد قلت له مرة : كأنك ياحافظ تنام بلا أحلام ، فضحك ، وقال . أوكأنى أحلم بغير نوم . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لحق بربه فى سنة ١٩٣٢ ، فما كنت أراه على كل أحواله إلا كاليتيم محكوما بروح القبر ، وفى القبر أوله . ولما أزمع السفر إلى اليونان قلت له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانيا . . . فقال : أو ترانى لم أمت بعد فى مصر . . . ؟ إن الذى بقى هين .

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوى الملكة فى فن الضحك ، كأن القدر عوضه به ليوجد فى الناس عطف الآباء ومحبة الإخوة . ولم يخل مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ماهو خير من الغنى ؛ فكانت أسبابه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمدعبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشازغلول وهذا نظام عجيب فى زمن (حافظ) يقابل الاختلال العجيب فى نفس حافظ ، فالرجل كالسفينة المتكفئة تميل بها موجة ، وتعدل لها موجة ، وهى بهذه وبهذه تمر وتسير .

وأولئك الرؤساء العظماء الذين جعلهم القدر نظاما فى زمن حافظ كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة فى هذا الباب ، ووقع إصلاحا فى عيشهم ، وكانوا إصلاحا فى عيشه ، ولو أن الأقدار تشبه بالمدارس المختلفة لقلنا إن (حافظ) تخرج منها مدرسة التجارة العليا . . . . فهو كان أبرع من يتاجر بالنادرة .

وهذه النوادر كأنها هى أيضا صنعت (حافظ) فى شكل نادرة ، فكان فقيرا ومع هذا كان للمال عنده متمم هو إنفاقه وإخراجه من يده ، وكان يقيا ، ولكنه دائما متودد ، وكان حزينا ، ولكنه أنيس الطلعة ، وكان بائسا ، ولكنه سليم الصدر ، وكان فى ضيق ، ولكنه واسع الخلق . وتمام النادرة فيه : أنه كان طوال عمره متبسطا مهترا كأن له زمنا وحده غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهو مستنيم إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثل مكسلة الشبع ، ويسترسل إلى البطالة وكأنه مشمر للجد ، ويستمكن الحزن منه فى ساعة فيتهدد حزنه بالساعة التالية . . .

رأيته فى أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشه ، وكان يعد قروشا فى يده فقلت : ما أمر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامر الساعة فأضعت ثلاثين قرشا ولم يبق لى غير هذه القروش الملعونة ، فهلم نتعش . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية فزعمت له أنى تعشيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش . وكنت أطالع فى وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعته بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ ، حين دعانى (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهبا وفضة . وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثانى من (البؤساء) ، ورآنى فى القاهرة فأمسك بى حتى قرأت معه الكتاب كله فيما بين الظهر والمغرب ، وركبنا فى الأصيل عربة وخرجنا نتنزه أى خرجنا نقرأ .

وكان على وجه (حافظ) لون من الرضى لا يتغير فى بؤس ولا نعيم كبياض الأبيض وسواد الأسود . وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فنا من الفوضى الإنسانية ، حتى لكأنه حلم شعرى بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لتتممه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلا جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس ، ففيه من الصحراء والغياض والرياض والبرق والرعد وأشباهها . وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلا مطهما ، وأرى فى شكله هندسة كهندسة الكون تتمم محاسنها بمقابحها . وكم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القمر .

أما هو فكان يرى نفسه دميما شنيع المرآة متفاوت الخلق كأنه إنسان مغلوط فى تركيبه .

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساء اثنتان : فإما جميلة تنفر من قبحى ، وإما دميمة أنفر من قبحها ، ولهذا لم يفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً ، وبقى شاعراً غير تام ، فإن المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها التى تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه . وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلا . .

وتهدم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك ، فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخذتم موج الأثير بريداً حين خلتم أن البروق كسالى

فنظرت إلى وجهه المعروق المتغضن وقلت له : لو كان فيك موضع قبلة لقبلتك لهذا البيت ، فضحك وأدار لى خده ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . .

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ، ومحفوظاته من هذا الفن أمر مجمع عليه ، وكان يتقصص النوادر والفكاهات ومطارحات السمر من مظانها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبه هو ، وجعل يقلبها ويتصرف فيها ويبين عنها أحسن الإبانة بمنطقه ووجهه ونبرات لسانه ونبرات فى يده .

وهو أصمعى هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فإذا استهل سح بالنوادر سحاً ، كأنها قوافى قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التى بعدها .

وقد أذكرتنى (القوافى) مجلساً حضرته قديماً فى سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ وكان

(مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومى ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدى من بسطة ابن الرومى فى قوافيه ، فقال له (حافظ) : هل نتساجل فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا . وكانت القافية من وزن : قدرها ، أحرها ، أخضرها الخ ، وجعلت أنا أحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلا ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقى حافظ يسرد له من حفظه الغريب .

أما فى النوادر ، فالعجيبة التى اتفقت له فى هذا الباب أنه جاء إلى طنطا فى سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم ، محمد محب باشا ، وكان داهية ذكيا وظرفيا لبقا ، وكنت أخالطه وأتصل به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء فى داره ، فلما مدت الأيدى قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ ، قال وما هو ؟ قال : كل لقمة بنادرة .

فتهلل حافظ وقال : نعم لك على ذلك . ثم أخذ يقص ويأكل والعشاء حافل ، وحافظ كان نهما فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط . وهذا لا يمنع أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك فيسرع حافظ ويغالط بفمه . . .

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به . فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائما — دعوه لإلقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حمية وعلماً ، وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين الرافعى فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظما عن شكسبير ومثله تمثيلا أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب . ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقى عليهم من نوادره . وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت بكر أم ثيب ؟ فقالت : كثرت الفتوح على عهد المعتصم

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها . وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تفلح .

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه

إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التي كسبهم بها من بعد . ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ، ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا ، فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟ فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين .

وفن (الشعر الاجتماعي) الذي عرف به حافظ ، لم يكن فنه من قبل ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه في طريقته ، فلما جاءت إلى مصر الإمبراطورة (أوجيني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها :

فاعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارئ الحدثان

ولقيته بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة ، وكان بها مدلا معجبا شأنه في كل شعره ، فانتقدت منها أشياء في ألفاظها ومعانيها ، وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن تخاطب بها الامبراطورة . فكأنني أغضبته ، فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لي : إذا نظمت فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعي » ، ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها فقال : إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر .

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي : إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر ، وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هي الاجتماعيات إلا جمل مقالات الصحف قصائد ؟ .

فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذي ذهب إليه حافظ . وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره فيبني عليها أو يدخلها في شعره ، وهو أحيانا رديء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفيا إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطلة ، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب . وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها .

وكنت أول عهدي بالشعر نظمت قصيدة مدحت فيها الأستاذ الامام وأنفذتها

إليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لى : إنه هو تلاها على الامام ، وأنه استحسنها . قلت : فاذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها .

فاضطرب شيطانى من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس رأيه فى الشعر كبير معنى . قال : ويحك إن هذا مبلغ الاستحسان عنده .

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلا . فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ .

وأنا أرى أن « حافظ إبراهيم » إن هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » ، لولا أن هذا ، لما كان ذلك ذلك .

ومن أثر الشيخ فى حافظ أنه كان دائماً فى حاجة إلى من يسمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى إسماعيل باشا صبرى فى القصر العينى ، وطاف على القهوات ، والأندية يسمع الناس بالقوة . إذ كانت أذن الامام هى التى ربت الملكة فيه .

وكان تمام الشعر الحافظى أن ينشد حافظ نفسه ، وما سمعت فى الإنشاد أعرب من البارودى . ولا أعذب عذوبة من الكاظمى ، ولا أفخم فخامة من حافظ ، رحمهم الله جميعاً .

وكان أديبنا يجل البارودى إجلالا عظيما ، ولما قال فى مدحه :

فر كل معنى فارسى بطاعتى وكل نفور منه أن يتوددا

قلت له : ما معنى هـذا ؟ وكيف يأمر البارودى كل معنى فارسى ، وما هو بفارسى ؟ .

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها . قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعرنى المجموعة التى عندك .

أما الكاظمى فكان حافظ يجافيه ويباعده ، حتى قال لى مرة وقد ذكرته به : « عققناه يا مصطفى ! » .

وما أنس لا أنس فرح حافظ حين أعلنته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده . وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ ـ على ما أذكر ـ أعلنوا عن جوائز يمنحونها

من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى ، فنال حافظ المدالية الذهبية ونال مثلها السيد توفيق البكرى .

ولما زرت الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئا فى الشعر ولا أزال فى الفرزمة[1] قال : لماذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان ؟ فقال : « ليه تخلى همتك ضعيفة ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجبا بها ، فنقلت ذلك إلى حافظ ، فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة .

وكان تعنت حافظ على الكاظمى لأشياء . ففى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) فظهر فى أحـــد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (*) . وانفجر هذا المقال انفجار البركان ، وقام الشعراء وقعدوا ، وكان له فى الغارة عليهم كزفيف الجيش وقعقعة السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ، وانتهى إلى الخديو ، وتكلم عنه الأستاذ الإمام فى مجلسه ، واجتمع لمجاعة من كبار أساتذة العصر السوريين كالعلامة سليمان البستانى ، وأديب عصره الشيخ إبراهيم اليـــازجى ، والمؤرخ جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سورياً — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال .

وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ، وكان الكاظمى على راس الشعراء فيه ، فغضب حافظ لذلك غضبا شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : ورب الكعبة أنت كاتب المقال ، وذمة الإسلام أنت صاحبه .

ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » فقال فى كلامه : إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين . فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ماسرك ، ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى .

وغضب السيد توفيق البكرى غضبا من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى استعانة ذهبية . وشمر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة

---

(١) الفرزمة : أول قول الشاعر حين يكثر الردىء فيه ، يقال فلان يفرزم .

سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء ومدحه مدحا يرن رنينا .

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم ، وجردنى من الألفاظ والمعانى جميعا ، وعدنى فى الشعراء ليقول: إنى لست بشاعر . فكان هذا رد نفسه على نفسه .

وتعلق مقال المنفلوطى على المقال الأول فاشتهر به لا بالمنفلوطى ، وغضب حافظ مرة ثانية . فكتب إلى كتابا يذكر فيه تعسف هذا الكاتب وتحامله ، ويقول : قد وكلت إليك أمر تأديبه .

فكتبت مقالا فى جريدة (المنبر) وكان يصدرها الاستاذان : محمد مسعود ، وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها . وقلت : إنى كذلك الفيلسوف الذى أراوده أن يشفع إلى ملكه فأركب على قدم الملك حتى شفعه ، فلما عابوه بأنه أذال حرمة الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ، فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذنيه فى رجليه .

نهضة الشعر فى هذا العصر

— ١ —

أرأيت البذرة تنمو ثم تنمو حتى تستحيل إلى شجرة وثمرة ، ثم أرأيت ضوء الفجر الهادىء الجميل كيف يعقبه الصباح والضحى والظهر والأصيل ، وكذلك شأن الشعر فى هذا العصر ، فلقد أخذ يتدرج فى بدء العصر ، ويسير خطوة خطوة ، حتى ظفر طفرة كبيرة على يدى البارودى وشوقى وحافظ وأضرابهم .

شاعت النهضة فى كل مرافق الحياة فى ذلك العصر ، وامتدت إلى جميع نواحيها ، وأثمرت تلك الغراس التى بذر بذورها أعلام النهضة فى مصر ، فغذت العقول ، وثقفت الألباب ، وفسحت أمامها أفق النضوج ، ومجال التفكير ، واتسع نطاق العلوم الجديدة ، والفنون الحديثة ، وكانت العربية الدائرة على ألسنتهم إبان ذلك غير كافية فى ترجمة هذه العلوم ونقل تلك الفنون ، فولوا وجوههم شطر كتب الأقدمين التماساً لبعض الألفاظ الفنية ، والمصطلحات العلمية ، فإذا عزهم ذلك اتفقوا على مصطلحات ، وابتكروا ألفاظاً . على أن تلك الأغراض العلمية والفنية التى لفتتهم إلى كتب الأقدمين ، أثارت فيهم روح التطلع إلى آثار السابقين عامة ، ولاسيما ما كان منها فى أبواب اللغة والأدب ، فراعهم نسجها وراقهم بيانها ، وهالهم أسلوبها وبهرهم شأنها ، فأكبوا على دراستها ، وطبعوا طائفة منها ، وكان فى مقدمة الكتب التى طبعت فى مصر : كتاب « كليلة ودمنة » لابن المقفع . ومنذ ذلك الوقت أخذت النهضة الأدبية تسير سيراً حثيثاً نحو إحياء الأدب القديم ، والتوفر على مراجعته ، فبعثت من مرقدها كتب الأدب العربى العريق بما فيها من شعر جاهلى وإسلامى ، وأموى وعباسى ، فى أنضج عصور العربية وأزهرها ، ولكن ذلك كله لم يزحزح الشعراء المكلفين بالقديم قيد أنملة عما التزموه من أغراض ورثوها فألفوها : من رثاء ونسيب متكلف أو هجاء ، ولم يصرفهم عما أسرفوا فيه من اقتناص جناس أو مقابلة ، وتورية أو مشاكلة . يقسرون الكلام على ذلك اقتساراً ، ويضمنونه بعض أنواع البديع عنوة واقتداراً ، غير مكتفين بما يرسله الخاطر إرسالا ، أو ترمى به قرائحهم عفوا وارتجالا .

وإذا البارودي رحمه الله ينهض بالشعر نهضة أحيت مكانته ، ويثب به وثبة ردت صولته ؛ فأرسله جزل العبارة ، فخم الأسلوب ؛ يأسر به الألباب ، ويسحر القلوب ، وطار به فى سماء المتقدمين ، وحلق فى أفق الجاهليين والاسلاميين ، لحفز حب المنافسة أوالرغبة فى الاحتذاء ، بعض معاصريه من الشعراء ، إلى بلوغ شأوه ، وكان لا بد لهم لكى يعدوا أنفسهم للجولان فى تلك الحلبة والصيال فى ذلك الميدان ، من استظهار أشعار الفحول السالفين : من جاهليين وإسلاميين ، فسمت مداركهم ، وثقفت ألسنتهم ، وقويت ملكاتهم ، ونبل قريضهم ، وقلت هناتهم ، وأخذوا يتحرزون عن التماس المحسنات البديعية والجهد فى إيرادها ، وسوق بعض الأبيات لمجرد اصطيادها ، جريا على ما كان مألوفا بين إخوانهم السابقين والمعاصرين ، فتحللوا من هذا كله ، ونسجوا على منوال الأقدمين ، فأتى نسجهم متلاحماً ، مشرق الديباجة ، لحمته الجزالة والرصانة ، وسداه الرقة والإبانة .

على أن البارودي مع سمو أدبه وعلو كعبه ، لم يعد أغراض السابقين ، ولم يرم إلى غير أهداف الأقدمين : من غزل ونسيب ، ومديح أو تشبيب ، وإطراء أو هجاء ، وفخر أو رثاء ، ووصف إلى حد ما ، وبكاء ديار ، ووقوف بدمن وآثار . فإذا كانت أغراض الشعر قد اتسعت بعد ذلك ، فلقد كان كل هذا رويداً رويدا ، وسار الشعر فى تلك السبيل وئيدا ، فلم يستطع مجاراة النثر الذى كان أسبق تطورا ، وأقوى منه على الارتقاء ، إذ هو قوام التفاهم بين الناس ، تحفزه إليه ضرورة مطردة ، وتدفع إليه حاجة دائمة . وأما الشعر فهو غير النثر فى ذلك ، ليس فيما يعرض للناس من شئون ملجىء إليه ، ولا فيما يدور بينهم من أسباب حامل عليه ، وما جنح له بعض الأدباء إلا لتسجيل عاطفة تساورهم ، أو خيال دارت به خواطرهم ، أو للتسرية عن النفس بشكاة فاضت بها قلوبهم ، أو حرقة أقضت بها جنوبهم ، وقد يزودون له رداء العاطفة حتى فى المدح والهجاء ، والتهنئة والرثاء ، أو غيرها من أغراض ، وليس معنى هذا أنه لا يأتى فيما تحفز إليه ضرورة أو تدفع إليه حاجة ، لا ، فلقد تدعو إليه بعض عظائم الأمور ، وقد تحمل على التماسه جلى المواقف ، كتزكية نار الحماسة ، واستثارة كامن الشجاعة ، وإلهاب مشاعر الناس ، وبعث روح الحمية فى نفوسهم ، واستنهاض هممهم ، وشحذ عزائمهم لخوض غمار حرب ، أو رد عادية عدو ، أو لتثبيت دولة ، والذود عن حياضها ، والكفاح دون حرمها وأرباضها ، والإبانة عن حجتها ،

والتزام محجتها أو لمناهضة دولة أخرى والخروج على سلطانها ، والتمرد عليها والإنتقاص من شأنها ، أو حث الناس على المشاركة فى عمل نافع يعم خيره ، أو يخص أثره .

ولكن هذه البواعث اليسيرة التى تحمل آونة عليه ، وتدفع أحياناً إليه ، كانت غير كافية لأن تريم به من مكانه ، أو تعدل به عن ميدانه ، فترتفع به فى مرتبة الاحتياج إليه إلى مكانة النثر الذى لاغنى للناس عنه ، ولا بد لهم منه ، فكان النهوض الأدبى بالنثر تالياً للنهضة العلمية ، لقيام الحاجة إلى ترجمة المعانى ونقل المدلولات وتحديد الألفاظ الفنية ، واستخراج المصطلحات العلمية ، فكان النثر بطبيعة الحال أسبق من الشعر توثبا ، وأسرع منه نهوضا ، إذ لبث الشعر يتعثر فى أذيال الجمود والتكلف ، حتى أتاح الله له البارودى ، فرفع لواءه ، وشاد بناءه ، وتبعه قوم توفروا على الأدب القديم حبا فى مجاراته ، وتوسلا إلى محاكاته ، فأضفى عليهم المجد رداءه ، وأسبغ عليهم حسنه ورواءه ، ولكنهم أسرفوا فى تقليد القديم ومعانيه ، برغم أن بعض هؤلاء قد اطلع على ثقافات الغربيين ونهل، وليس ينكر فضل هؤلاء فى إنهاض الشعر بعد طول ركوده ، والدأب على انتشاله من وهدة خموده ، ولكن إخوانا لهم آخرين قد طاروا إلى مثل سمائهم ، وحلقوا فى مثل جوائهم ، إلا أنهم فاقوهم بما عنوا به من التجديد والابتكار ، وبما نزعوا إليه من كل طريف أتاح للشعر العربى الانتعاش والازدهار ، فهم مع علو كعبهم فى الآداب العربية ، قد رووا نفوسهم من الآداب الغربية والثقافة الأوروبية ، فزجوا على حد تعبير بعض الأدباء « بين الثقافتين » ، وتخرجوا فى المدرستين .

وجالوا بالشعر فى كل مجال ركض فيه الشعر الأوربى ، فأتوا به على كل ما أتى عليه الغربيون بشعرهم من وصف ، لآخر ما تمخض عنه العلم الحديث من ابتكار واختراع ، ومنتهى ما وصل إليه العقل البشرى من تفنن وابتداع .

فمن وصف لسفينة البخار ، إلى إشادة بالطيارة والقطار ، ومن جولات فى الحجاب والسفور ، إلى تغن بحكم الشورى و « الدستور » ، ومن زهو بالبوارج التركية ، إلى إعجاب بالأهرام المصرية ، ومن خوض كذلك فى تكليل « أنقرة » ، إلى حديث عن مدينة الاسكندر أو مجد القاهرة ، ثم إلى تأنيب « لكرومر »

أو نقد لمشروع « ملنر » ، إلى افتخار بالجامعة وتنويه بالأزهر . ومن تعريج على الجانب القصصي ، أو ابتكار للشعر التمثيلي . . جرى هؤلاء المجددون في تلكم الميادين ، ولم يألوا جهداً في اختراع أروع المعاني ، وأبرع الأساليب ، وكان لابد لأصحابنا هؤلاء وقد زاحموا الغربيين بمناكبهم ، ونافسوهم في مرامي قريضهم وأخيلة أدبهم ، من التقاط ألفاظ أعجمية ، وإقحام كلمات أجنبية ، كما في أسماء الأماكن والأشخاص حين لاترجمة لها فلا محيد عنها . والأمثلة على ذلك قائمة « في قصيدة « مسجد « أيا صوفيا » أو قصر « يلدز » أو جسر « البسفور » أو غاب « بولونيا » ، وعلى رمس « نابليون » وذكرى « كرنارفون » وكذا « توت عنخ آمون » » .

وهكذا اجتمعت للنهضة الشعرية إذ ذاك كل أسباب الكمال ، فهذه طريقة الملكة العربية قد عبدها البارودي ، وذلك بحر المعاني الخضم قد أساله الغرب في كتبه وصحفه ومعاشرة أبنائه ، وتتبع خياله في القصص « الروايات » ، ودور الخيالة « السينما » . . ولقد شعر أحمد شوقي بأثر ذلك كما شعرنا به حين رأينا علو شعره بعد الحرب الكبرى ، فقد قال : إن مداومتي أثناء اعتقالي بإسبانيا لشهود الخيالة كان لها أثر عظيم في تقوية خيالي .

— ٢ —

وبعد فإن أعظم المظاهر في تطور الشعر هي :

النزوع به إلى أساليب البلاغة العربية وترك الإفراط في المبالغات ، وعدم الاكتراث للمحسنات البديعية . وأما من حيث الأغراض فقد أعرض الشعراء عن الفخر بتاتاً والمديح والرثاء إلا في عظماء الرجال ، على أنه بعد ذلك قد شارك في الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وخاض به الفنيون في فنون الفلسفة وقواعد الأخلاق .

وإذا جعلنا الحوادث الكبرى وفي مقدمتها الثورة العرابية ، ثم الحرب الكبرى مجازاً انتقل عليه الشعر من حال إلى حال . فإننا لا ننسى أن من تلك الحوادث ظهور البارودي ، فإنه كما يقول النقاد والباحثون قد طفر بالشعر من حضيضه الراكد الآسن إلى ثبج بحر خضم تتلاطم أمواجه ، ويصب عبابه ، فرأينا في شعره جلجلة كلام الأقدمين وقوة روحهم ، وأسمعنا على بعد العهد جزالة أبي تمام ، وصفاء البحتري . ووصف المتنبي للحروب ، بل أرانا صـــورة مجتمعة من قوة اللفظ ،

ووضوح النهج ، وجلال المعانى مما عرفه الناس بعد البارودى لفحول الشعراء العباسيين ، فهو — لا ريب — حين نشر للناس مطارف شعره ، فجلاهم بهذه المحاسن المجتمعة . وروى ظمأهم من تلك الجزالة التى تشتاق اليها النفوس فى جدها ، وتحتاج إليها النهضات فى أوائلها . دل الناس على أسباب ذلك الفضل الذى جمعه لنفسه ، فعرفوا شعر القدماء وزاد الإقبال على حفظه ، والعمل على شاكلته ، وساروا فى النهج الذى اختطه البارودى لنفسه . فأخذوا يترسمونه ويحاكون منهجه وأسلوبه فى الشعر ، ويحفظون قصائده ويعارضونها ، فقويت مواهبهم وملكاتهم وأخذ الشعر يسير جزلا فخما شريف اللفظ ، موثق الأسلوب ، مشرق الديباجة ، متلاحم النسج ، عذب الموسيقى ، رصين القافية ، وأخذ يبعد عن المحسنات البديعية وعن الضعف ، وإن كان البارودى مع جلالة مكانته فى الشعر لم يعد الأغراض التى نظم فيها المتقدمون .

وقد انتقل الشعر بعد البارودى من طور إلى طور ، باطلاع الشعراء على الآداب الغربية ، فراحوا يتوسعون فى أغراض الشعر ، ويخوضون به فى فنون من المعانى والأخيلة لم يسبق إليها السابقون ، فنظموا الشعر القصصى والتمثيلى ، ونظموه فى السياسة والاجتماع والفلسفة ، والوصف لمشاهدة الحضارة الدقيقة ، وأخذوا يتأنقون فى أسلوب القصيدة وألفاظها وموسيقاها ، ويحرصون على الوحدة فيها ، ويوائمون بين الشعور والشعر ، وقد أكسب الشعراء مصر الزعامة الأدبية فى العالم العربى ، مما تجلى واضحاً حين قدمت وفود الشعراء العرب إلى مصر عام ١٩٢٦ م لتأمير شوقى على عرش القريض .

فكان ذلك كما قال النقاد إجماعا على الإنصاف وشهادة لا تلفيق فيها على فضل الرجل أولا وفضل مصر ثانيا . لأن مثل هذا الإجماع هو الذى لا يستطاع فيه الاغراء ، ولا يمكن التمويه ، وإلا فما الذى يحمل هؤلاء النازحى الأقطار أن يتكلفوا الحضور إلى مصر ليعنوا لعظمة هذا الرجل ، ويقروا له بالزعامة . لاشك أن الحقيقة التى امتلأت بها نفوسهم على تباين مساكنهم هى التى دفعتهم إلى ذلك .

— ٣ —

ولقد سارت هذه النهضة الشعرية مع روح الحرية الشخصية التى شاعت فى هذا العصر بشيوع العلم الطبيعى وغيره ، فدقت الأفكار ، وقوى التصور . وارتق الشعور ، ودخل الأدب بعامة ، والشعر بخاصة ، طيف من الأخيلة الشعرية والأساليب

الطريقة ، وأخذ الشعراء يتخلصون من القيود المتوارثة في الاجتماع والأفكار ، وفي جملتها قيود التصوير الشعري ، من التقليد والاكثار من المحسنات البديعية ، التي ينفق فيها كثير من الجهود والأوقات في غير طائل ، ويتحولون إلى تقديم المعاني على الألفاظ في خطوات ثابتة مطردة .. أخذ الشعر يجول في أغراض فيها جدة ، وفي ألفاظ وأساليب لها حظ من صفاء الديباجة ، وقرب المأخذ ، وقوة الأداء ، ويسري فيها خيال يسير في طريق الروعة والاكتمال ، وينطوي تحتها معان ، للثقافة الحديثة فيها أثر كبير أو صغير . على أن الشعر لم يبلغ ربيع الحياة إلا في العصر الثالث أو بعده بقليل .

وكانت الثورة العرابية وما تلاها من الحوادث ، مثاراً لشاعرية أكابر الشعراء من أمثال سامي باشا البارودي ، وإسماعيل صبري باشا ، ووحياً لخيال شبان كان روح الشعر آخذاً بنفوسهم . متهيئاً ليفيض منها ما ينفخ في الآداب العربي روحاً وقوة .

وقد كان التقاء الثقافتين ، الأوربية والعربية في النهضة الحديثة عما جعل الشعر يسير في طريقين يتقاربان أحياناً ، ويتباعدان أحياناً . ذلك ان طابع الثقافة الغربية الحرية أمام المشاكل الاجتماعية والسياسية ؛ وطبيعتها وثابة . تعنى أكثر ما تعنى بالحياة الواقعية ، وتجاري الزمن ، وتنظر للمستقبل ، أما الثقافة العربية القديمة فطابعها : المحافظة في الاجتماع وفي السياسة ، وطبيعتها هادئة تعنى بالماضي أكثر مما تعنى بالحاضر والمستقبل .

فالطائفة التي حذقت اللغات الأجنبية ، أصبح لا يرضيها الشعر القديم والذين ثقفوا بالثقافة العربية القديمة في الأزهر ودار العلوم ، أصبحوا ينكرون الشعر الحديث ، ونشأ عن ذلك مدرستان : المدرسة القديمة وأنصارها الأزهريون ورجال دار العلوم ، والمدرسة الحديثة ، وأنصارها أعضاء البعوث وخريجو المدارس المدنية ، ومن له حظ من حذق اللغات الغربية ، وقام الصراع بين المحافظين والمجددين ، أو بين شيوخ الأدب وشباب الأدب .

على أن الشعر القديم كان مناسباً للذوق القديم ؛ فلما تطور ذوق الأمة ، رأى أمامه شيئين مختلفين تمام الاختلاف ، وكلاهما غير مناسب لذوق الجيل الحاضر ، فأما الشعرين فشعر على النمط القديم في أوزانه وقوافيه وأغراضه ومعانيه

وهذا لم يعد غذاء كافيا ، لأن ذوق الأمة اجتاز هذا الطور ، وشعر أمعن فى تقليد الشعر الافرنجى فى معانيه وأسلوبه ، وصوره وأخيلته ، فجاء نابيا عن الذوق الشرقى ولم تعجبه صياغته ، ولا ألف تعبيراته ، كالشاطىء المجهول ! ومقابر الفجر ، ونحو ذلك .

وكان أثر النهضة فى تجديد الشعر مختلفا أيضاً ، فتجديد البارودى كان من ناحية الرجوع بالشعر العربى ، لا إلى العصر القريب المنحط الذى لم يتجاوز فيه الشعر : التهانى والتعازى وماشا كلهما ، أو الخلاعة والمجون فى ألفاظ بذيئة ، بل إلى العصر البعيد الراقى . فترسم آثار أبى نواس وأبى فراس والمتنبى والشريف الرضى من من حيث الأغراض والمعانى وجزالة اللفظ .

فأما تجديد شوقى وحافظ وأضرابهما ، فكان بتطعيم الشعر العربى بالشعر الأجنبى قليلا ، كما يفهم من التجديد ، ولذلك كان أوضح من تجديد البارودى ، ولكنهما مع هذا كان حظهما من القديم أكثر من حظهما من الجديد ، يقول هيكل فى مقدمته لديوان شوقى :

إن حكمة شوقى وما يصدر عنه من وصف وغزل ، وما يميز شعره جميعا يبدو كأنه شرقى عربى ، لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار ، وهذا طبيعى مادام شوقى شاعر العرب والمسلمين ، وما دام يجد فى الحضارة الشرقية القديمة ، مايغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية ، إلا بالمقدار الذى تحتاج إليه أمم الشرق فى حياتها الحاضرة ، لسيرها فى سبيل المنافسة العامة ، ولقد ترى شوقى يغلو فى شرقيته وعربيته أحيانا ، ولقد تراه يتعمد ذلك فى لفظه ومعناه ، وسبب ذلك هو مايراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ما خلف السلف من تراث ، والأخذ بكل ما يلبع به الحاضر من رواء الغرب .

وقد يكون غلو شوقى أكثر وضوحا فى جانب اللغة ، منه فى جانب المعانى ، فهو بمعانيه وصوره وخيالاته محيط بما فى الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقى وترضاه الحضارة الشرقية ، أما لغته فتعمد إلى بعث القديم من الألفاظ التى نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لايعرفونها ، ولعل سر ذلك عند شوقى أن البعث وسيلة من وسائل التجديد ، بل لقد يكون البعث آكد وسائل التجديد نتيجة أن وجد من أرباب اللغة من يفيضون على الألفاظ القديمة روحا تكفل حياتها ،

والبعث له إلى جانب ذلك من المزايا أنه يصل ما بين مدنية دراسة ومدنية وليدة ، يجب أن تتصل بها اتصال كل خلف بسالفه .

— ٤ —

وقد ظهر فى هذا العصر فحول الشعراء من أمثال : البارودى ، وإسماعيل صبرى ، وشوقى ، وحافظ ، وحفنى ناصف ، ومحمد عبد المطلب ، وأولئك هم الشعراء الذين لا يدفعون عن حياض الشعر ، لا فى قديم ولا فى حديث ، وإن لم يكونوا فى ذلك بمنزلة سواء .

وهناك عدا هؤلاء الأعلام من الشعراء : شعراء كثيرون يمثلون مذاهب مختلفة ونزعات متباينة ، ومواهب متعددة ، وثقافات متفاوتة : فنهم من جمع إلى ملكة الشعر التضلع فى العلم والإلمام باللغة وفنونها ، والاحاطة بأدب المتقدمين ، ومنهم من ليس له من دراسة اللغة وعلومها إلا قدر ضئيل ، ومنهم من اقتصر فى تكوين ملكته الأدبية على قراءة طائفة من الشعر فى بعض عصوره الماضية الجاهلية أو الاسلامية أو العباسية أو ما بعدها ، ومنهم من عكف على دراسة أحد فحول الشعراء فاتخذه إماما ، ومنهم من أخذ بحظ وافر من الآداب الأجنبية ، ومنهم من يميل إلى جزل الأساليب وفخم الديباجة ، ومن يؤثر الرقيق الرشيق منها ، ومنهم من يقصد إلى سىء الأغراض ونبيلها ، ومن يتجه إلى هينها وهزيلها . ومنهم من تلمح فى شعره شخصية واضحة النهج ثابتة ، ومن تجد فيه آثار المحاكاة ، والاقتباس ، والاستمداد من معين غيره ، ومنهم شعراء العواطف وأزاهير الربيع ، ومنهم من لم يزل الشعر العربى لهم إماما ، ومنهم من ينأون عن الماضى وأساليبه وأخيلته ، لا يريدون أن تفرض عليهم ، فهم ينزعون إلى أن يهيموا فى أودية كل جديد ، ويجاروا الأدب الأجنبى فى بعض مناحيه وأخيلته وموضوعاته ، ولو حاد بهم هذا عن جزل النسج وواضح النهج ورصين الأسلوب .

ولكل من هؤلاء وجهته وشخصيته الشعرية وأثره فى الأدب الحديث ، وزعيمهم وصاحب الفضل عليهم هو « البارودى » لسبقه وبدئه فى التجديد فى الشعر ، إذ رده الفحولة العربية إلى أسلوبه ومعناه ، والتالى له فى الرتبة هو « حافظ إبراهيم » لممارسته جميع أغراض المجتمع ، وتصويره ما يدور بين الناس من المعانى فى ديباجة قوية ونسق رائع . و « البارودى » إمامه لرصانة شعره ومحاكاته الفحول من العباسيين حتى ربما التبس شعره بشعر الكثير منهم ، على قلة تجديده فى المعانى كحافظ

ابراهيم ، ويليهما محمد حفنى ناصف لسهولة شعره ، وكثرة ملحه ونكته ، على أنه كان من كتاب العصر الذين نقلوا الكتابة من السجع إلى الإرسال ، وكان من كتاب التأليف أيضا ، فقد ألف فى اللغة العربية مؤلفات نافعة ، ويشاركه فى الكتابة والتأليف حافظ ابراهيم ، ولم يخل من ميزة الكتابة أحمد شوقى بك . إلا أن كتابته كانت أشبه شىء بالشعر المنثور مع التزامه فيها السجع والمحسنات .

تراجم لأشهر الشعراء :

محمود سامي البارودي

١٢٥٥ — ١٣٢٢ هـ (١٨٣٩ — ١٩٠٤ م)

حياته :

هو رب السيف والقلم ، أمير الشعراء محمود سامي البارودي باشا بن حسن حسني بك البارودي ، أحد زعماء الثورة العرابية ، ومن وثب بالشعر إلى القمة في عهد النهضة ، فأحيا ما درس من شوائبه ، ورده إلى روائه وبهجته .

لقب البارودي نسبة إلى « إيتاي البارود » من أعمال مديرية البحيرة التي كانت من التزام أحد أجداده .

وقد ولد البارودي بالقاهرة سنة ١٢٥٥ هـ وتولى أبوه تربيته ، ولكنه لم يبلغ تمام السابعة حتى وافاه المنون فتولاه بعض أهله ، وفي سنة ١٢٦٣ هـ أخذوا يعلمونه المبادىء الأولية بالمنزل ، ثم دخل المدرسة الحربية وهو في سن الحادية عشرة ، فخرج منها ضابطا بالجيش عام ١٨٥٥ ، ومازال يرقى بكفايته وسمو نفسه واستبساله في مواقع الكفاح ، ولا سيما في حرب البلقان والروس (١٨٧٧ م) وكريد (١٨٦٨م) التي كانت مصر تمد فيها الدولة العثمانية . . . حتى كانت سنة (١٢٩٥ هـ ، ١٨٧٩ م) .

فعند ذلك تحول إلى الإدارة ، فنصب مديراً للشرقية ، ثم رئيسا لضبطية القاهرة . فلما ولي الخديو توفيق جعله عضواً في مجلس النظار ، فعين ناظرا للأوقاف ثم ناظراً للجهادية ، ثم صار رئيساً لمجلس النظار قبيل الثورة العرابية ، فلما كان الاحتلال الانجليزي وقبض على زعماء الفتنة العرابية ، كان البارودي من بين هؤلاء ، فحوكم ونفي إلى جزيرة سرنديب (سيلان) ، فأقام بها سبعة عشر عاما وبعض عام ، تعلم في أثنائها اللغة الإنجليزية ، وبرع فيها وترجم منها إلى العربية ، وفي سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) صدر عفو من الخديو عباس باشا عنه ، وأتيح له التمتع بالحقوق المدنية

فى البلاد ، فعاد إلى مصر ، وبقى فى منزله يشتغل بالأدب ، ويكتب مختاراته التى انتخبها من ثلاثين ديوانا لشعراء من العصر العباسى ، حتى وافاه الأجل المحتوم . رحمه الله وجزاه عن اللغة العربية وآدابها ما هو أهله .

شاعريته :

كأنما خلق البارودى ليجدد الشعر ، ويحيى دارس عروبته ، فقد كان منذ حداثته يميل إلى آداب اللغة ، ووجهه ذلك الميل إلى غشيان مجالس الأدب ، واستماع ما يلق فيها من منثور ومنظوم ، ثم صار يقرأ على الأدباء ويشاطرهم فقه ما يقرأ . ثم اشتغل وحده بقراءة الدواوين بالدقة والإمعان ، حتى وصل فى قليل من الزمن إلى مالا يدرك فى متطاول الأزمان ، فنظم الشعر وهو دون العشرين ، وصار يتحدى الجاهليين والإسلاميين ، فلا يقصر عنهم ولا يقع دونهم ، مما يدل على أنه قرأ أشعار السابقين والآخرين .

وإن تعجب فعجب أن البارودى ، لم يدرس قواعد العروض والقافية ، ولا قرأ النحو والتصريف ومعاجم اللغة ، وإنما اتخذ الأدب إمامه ، ووصل إلى ما وصل إليه من طريق محاكاته ، فلا تجد له ألفاظا نابية ، ولا أساليب ضعيفة ، كأنما هو من الأعراب النابتين فى البادية : فطرة سليمة ، ونفس صافية ، وإلهام إلهى ، وتعهد سماوى . ويمتاز شعر البارودى فى حداثته ، وأيام محنته عن شعره فى آخر عهده :

فشعره الأول ممتلىء فتى رصين ، يحاكى شعر فحول القرنين الثالث والرابع من أمثال : أبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، وابن الرومى ، والرضى ، وغيرهم : جزالة لفظ ، وفحولة نظم ، ورصانة قافية ، وإشراق ديباجة .

وفى آخر عهده فتر شعره ، وخمدت جذوته ، لما أصابه الكبر ، ووهنت قواه .

وشعره عامة يمتاز بالقوة وجزالة اللفظ ، وفخامة النظم ، ومتانة القافية ، وصفاء العبارة ، حتى يمكن أن يقال إنه منذ مئات من السنين لم يجىء من الشعراء من يفوق البارودى فى ذلك ، أو من يدانيه .

ولقد عارض كبار الشعراء المتقدمين ، لجاء بما لا يقل عن قصائدهم : قوة وفخامة وتفننا فى المعانى ، وجولانا فى مختلف الأغراض .

ولقد كان البارودى رحمه الله ، شريف النفس ، نبيل الخلق ، عالى الهمة ، شجاع القلب . لا يصدر شعره إلا عن صدق طبع وصحة عاطفة ، لا تصنع فيه ولا رياء ولا دهان . وكيفما كان الأمر ، فلسامى باشا البارودى أعظم الفضل فى رد الشعر فى هذا العصر الحديث إلى قوته ومتانته ونضارته التى كانت له فى العصر القديم .

وقد مال البارودى إلى العربية منذ حداثته ، ويحدثنا أستاذه الشيخ حسين المرصفى أنه تعلمها على غير النظام المألوف فى عهده ، فقد كان باب العربية فى نظر ذلك العصر هو النحو والصرف . وكثيراً ما كان طالب العربية يخطىء التقدير ، فيتوسع فى الوسائل حتى ينتهى العمر قبل بلوغ الغاية ، فهو يقبل على النحو والصرف وغيرهما من علوم اللسان ووسائل البيان . ومايزال يتوسع فيها ويمعن فى مطولاتها حتى ينسى غايته التى من أجلها طلب تلك العلوم .

ولكن البارودى لم يسلك طريق قومه ، بل بدأ يقرأ دواوين الشعر وكتب الأدب ، ويرى جمال العربية ، وهى تختال فى أبرادها القشيبة على عهد العباسيين الأوائل : فى شعر شعرائها ، ونثر كتابها ، بل إنه لم يترك بلاغة عرفها واهتدى إلى فحولها ، إلا عكف على دراسة أقوالهم ، وتفهم أساليبهم ، فقرأ للجاهليين والاسلاميين . وكان من صفاء الذهن ، وقوة الملكة اللغوية بحيث يعى تلك الأساليب البليغة ، وتنطبع فى ذهنه صورها ، ويحفظ أغلب مايقرأ بأيسر محاولة ، فملك بذلك زمام البلاغة ، واستطاع أن يقلد هؤلاء القدماء ، بل إنه لقوة ذهنه استطاع أن يعرف لكل شاعر خصائصه فى قوله ، فإذا عمد إلى تقليده أحكم رتين ألفاظه . وأبرز لك صور تعبيره ، فتكاد تكذب الواقع فى أن البارودى هو الذى ينظم أو ينشد .

ولم يحتج فى تقويم لسانه بالصواب ، وصحة الاعراب ، إلا إلى القليل من الارشاد فى بدء تعلمه ، ثم انطلق يقرأ ، فلا تتعلق عليه بغلطة ، وينظم فإذا شعره شعر الفحول السابقين فى صحة التعبير .

يقول عنه أستاذه المرصفي :

« محمود سامي البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يسمعه من بعض من له دراية ، أو يقرأ بحضرته بعضاً من دواوين الشعر ، حتى تصور في برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ، وصار يقرأ أولا ، ولا يكاد يلحن ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم ، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة[1] » .

ولقد أولع البارودي وهو غض الحداثة بحفظ الشعر ، وأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء المتقدمين ، حتى شب فصيح اللسان ، مطبوعا على الاعراب دون أن يتعلم النحو ، فانطلق يقول الشعر في أغراضه المختلفة ، ونهض به نهضة عظيمة ، وأعاد إليه حلته العربية ، وبهجته البدوية ، حتى شا كل الشريف الرضي في جزالة اللفظ ومتانة النسج ، وقوة الكلام ، ولم يتخلف عن متقدمي الشعراء في شيء ، على أنه أربى عليهم بما جال في فنون المعاني التي تجلت بها الحضارة الجديدة ، وما وصف من مخترعات أخرجها العلم الحديث .

خصائص شعره :

ألفاظ البارودي في شعره ألفاظ فخمة جزلة قوية بريئة عن عنجهية البداوة ووحشيتها .

وأساليبه : أساليب عربية قوية ، متينة الأسر ، رصينة السبك ، تطالع فيها قوة الجاهليين ، وعذوبة الاسلاميين ، ودقة العباسيين ، ورقة الحضارة المصرية ؛ وكلا هذين — الألفاظ والأساليب — أوحى بهما ولوعه بأشعار هذه العصور جميعا وإعجابه بها وتملؤه من محفوظها تملؤا ملك عليه حواسه ، وسرى في مشاعره ، وتغلغل في دمائه ، وحل من نفسه محل النفس ، فنضح كل أولئك على شعره نضوحا سلكه في نظام شعراء تلك العصور : إشراق أسلوب ، ورقة ديباجة ، وتخير ألفاظ ونسجاً عبقريا متمنا ، افتنت في تحبير كل أولئك الأيادي الصناع ، حتى انقطعت صلته انقطاعا تاما بمتعارف شعراء عصره ، ولاريب أن هذه إحدى دعائم زعامة البارودي الشعرية .

---

(١) ٢ : ٤٧٤ الوسيلة الأدبية .

وقد دارت أخيلته ومعانيه بين توليداته العجيبة فى معانى هؤلاء السابقين وأخيلتهم ، وبين ما أثارته أحاسيسه المصرية الخاصة ـ وهى بين مولدة ومخترعة ـ آية القدرة ، ومراد الفن ، ومظاهر العبقرية ، عما انقطع عنه ، أو عما دونه بكثير ، طموح شعراء عصره . وهـــذه هى الدعامة الثانية من دعائم زعامة البارودى الشعرية .

فأما أغراضه : فقد سار البارودى فى طريقة الشعراء القدامى ، وحطم القيود والأغلال العصرية ، ففخر ، ووصف وشكا ، وحن إلى الوطن ، وتغزل ومدح ، وهجا ورثى ، وقال فى السياسة ، وعالج جميع الأغراض التى عالجوها .

وليس البارودى فى جميع الأغراض التى تناولها فى شعره بمنزلة سواء ، برز البارودى فى وصف المعارك ، وفى الشكوى والحنين إلى الوطن ، والوصف وفى الفخر والتمدح بشمائله ومجده وصفاته الفذة ، فأجاد إجادة منقطعة النظير ، لأنه فى فخره كان يمتح من معين فياض من عواطفه التى تثيرها بيئته وبيته ، ومواقفه فى البطولة وفى المناصب وفى شرف النفس وعلو الهمة ، وفى الطموح إلى الغاية التى لا يطمح إليها إلا الأبطال المعلمون .

ومن أخذه من القدماء فى المعانى قوله :

على طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

وهو صورة فى لفظه ومعناه من قول أبى فراس :

على طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لى إن حاربتنى المطالب

وقوله يصف الخمر :

إذا ما شربناها أقمنا مكاننا ... وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

وشطره الأخير لأعرابى كان سائحاً فبلغه أن امرأته تزوجت فقال من أبيات :

أتانى بظهر الغيب أن قد تزوجت ... فظلت بى الأرض الفضاء تدور

وقوله :

وأنت يا طائراً يبكى على فنن ... نفسى فداؤك من ساق على ساق

وقوله :

وهون الخطب عندى أننى رجل ... لاق من الدهر ما كل امرىء لاق

والشطران الأخيران يتلاقيان مع شطرين لتأبط شرآ فى قصيدة واحدة أولها قوله :

يسرى على الأين والحيات محتفيا   نفسى فداؤك من ساق على ساق

والثانى قوله فيها :

سدد خلالك من مال تجمعه   حتى تلاق الذى كل امرىء لاق

وقد عارض البارودى القدماء من الشعراء فى الأساليب والمذاهب ، فقد عارض أبا نواس فى مدحه الخصيب بن عبد الحميد العجمى أمير مصر من طرف الرشيد ، حيث قال أبو نواس :

أجارة بيتينا أبوك غيـــور   وميسور ما يرجى لديك عسير

فقال البارودى معارضا فى الوزن والروى دون الغرض :

تلاهيت إلا ما يجن ضمير   وداريت إلا ما ينم زفـير

وهل يستطيع المرء كتمان أمره   وفى الصدر منه بارح وسعير

إلى أن قال :

فلوكنت فى عصر الكلام الذى انقضى   لباء بفضلى جرول وجرير

ولو كنت أدركت النواسى لم يقل   أجارة بيتينا أبوك غيـــور

وما ضرنى أنى تأخرت عنهم   وفضلى بين العـالمين شهير

فيا ربما أخلى من السبق أول   وبذ الجياد السابقات أخـــير

وقد أطراها المرصفى إطراء بالغا . وقال أبو نواس يمـــدح الأمير محمد ابن الرشيد :

يا دار ما فعلت بك الأيام   لم تبق منك بشاشة تستـام

فقال البارودى فى الوزن والروى دون الغرض :

ذهب الصبـا وتولت الأيام   فعلى الصبا وعلى الزمان ســلام

وقال النابغة الذبيانى يصف المتجردة زوج النعمان :

أمن آل مية رائح أو مغتدى   عجلان ذا زاد وغير مزود

فقال البارودى قصيدة سلك فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب وارتياد المنابت وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء ، وهى :

ظن الظنون فبات غير موسد   حيران يكلأ مستنير الفرقد

وقال البوصيرى يمدح الرسول عليه السلام :

أمن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

فقال البارودى من قصيدة سماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » فى الوزن والروى والغرض :

يا رائد البرق يمم دارة العلم   واحد الغمام إلى حى بذى سلم

عارض البارودى هؤلاء الشعراء كما عارض غيرهم . ويقول ناقد : إنه على الرغم من هذه المعارضة برزت مقوماته الشخصية من ورائها .

ويقول الشريف الرضى :

لغير العلا منى القلى والتجنب   ولولا العلا ما كنت فى الحب أرغب
إذا الله لم يعذرك فيما ترومه   فما الناس إلا عاذل ومؤنب
ملكت بحلمى فرصة ما استرقها   من الدهر مفتول الذراعين أغلب
فإن تك سنى ما تطاول باعها   فلى من وراء المجد قلب مدرب
لحسبى أنى فى الأعادى مبغض   وأنى إلى عز المعالى محبب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها   ولكن أوقاتى إلى الحلم أقرب

فيقول البارودى :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب   وغيرى باللذات يلهو ويلعب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه   ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخو هم إذا ما ترجحت   به سورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية   لها بين أطراف الأسنة مطلب
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق   إذا مارمى عينيه والشرق مغرب
همامة نفس أصغرت كل مأرب   فكلفت الأيام ما ليس يوهب

ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذى يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها ... فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حملت درعى كميت طمرة ... ولا دار فى كفى سنان مذرب
أسير على نهج يرى الناس غيره ... لكل أمرىء فيما يحاول مذهب

وتراه ينهج نهج الشريف فى الوزن والقافية ونوع المعنى ، قال الشريف :

ألهاك عنا ربة البرقع ... من الثلاثين إلى الأربع
أنت أعنت الشيب فى مفرق ... مع الليالى فصلى أو دعى
يا حاجة القلب ألم ترحمى ... جناية الدمع على مدمعى
لولا ضلالات الهوى لم يكن ... عنان قلبى لك بالأطوع
كان يرى ناظره سبة ... إن مر بالحى ولم يدمع
يا حبذا منك خيال سرى ... فدله الشوق على مضجعى

فيقول البارودى :

هل من فتى ينشد قلبى معى ... بين خدود العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهوى ... فمر بالحى ولم يرجع
فهل إذا ناديته باسمه ... يفيق من سكرته أو يعى
صبابة أغرت على الأسى ... ودلت السهد على مضجعى

ولقد كان أكثر معارضته لأبى فراس الحدانى ، ولتشابه حياة الرجلين أثر فى إكثار البارودى من تلك المعارضة ، فقد كان كلاهما شجاعاً كريم الحسب ، عالى النسب ، أصابته نكبات الزمان بسبب همته العالية ، وشيمته الكريمة ، فأبو فراس ظل فى أسر الروم أربع سنوات ، والبارودى طوح به النفى فى سرنديب « سيلان » سبعة عشر عاماً ، لذلك شكا البارودى وبكى كما شكا أبو فراس وبكى ، وافتخر كما افتخر ، وافتقد الصديق كما افتقد أبو فراس . قال أبو فراس يفتخر :

إنا إذا اشتد الزما ... ن وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا ... عدد الشجاعة والكرم

للقـا العدا بيض السيو ... ف ، وللندى حمر النعم
هـــذا وهـــذا دأبنـا ... يودى دم ويراق دم

فقال البارودى كذلك :

أنا فارس أنا شـاعر ... فى كل ملحمة وناد
فإذا ركبت فإننى ... زيد الفوارس فى الجـلاد
وإذا نطقت فإنـــنى ... قس بن ساعـدة الإيادى
هـــذا وذلك ديدنى ... فى كل معضـلة نآد

وإذا قال أبو فراس :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر

قال البارودى :

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عمـــد مرفوعة ومعاقل ... وألوية حمر وأفنيـــة خضر
ونار لها فى كل شرق ومغرب ... لمـــدرع الظلماء ألسنة حمر
أقاموا زماناً ثم بدد شملهم ... أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر
فلم يبق منهم غـــير آثار نعمة ... تضوع برياها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهى صوامت ... ويثنى برياه على الوابل الزهر

صور من شعـــــر البارودى :

من شعره قصيدة له يفتخر ، ويصف حاله وهو فى منفاه بجزيرة « سيلان » :

أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه ... وقد أكون وضاق الدرع سربالى
ولا تكاد يدى تجرى شبا قلمى ... وكان طوع بنانى كل عسال
راجعت فهرس آثارى فما لمحت ... بصيرتى فيه ما يزرى بأعمالى
أنا ابن قولى ، وحسبى فى الفخار به ... وإن غدوت كريم العم والخال

قلبي سليم ، ونفسى حرة ، ويدى   مأمونة ، ولسانى غير ختال
فانظر لقولى تجد نفسى مصورة   فى صفحتيه فقولى خط تمثالى
إن ابن آدم - لولا قوله - شبح   مركب من عظام ذات أوصال

وقال يصف الفراق :

محا البين ما أبقت عيون المها منى   وشبت ولم أقض اللبانة من سنى[١]
عناء ويأس واشتياق وغربة   ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن[٢]
فإن أك فارقت الديار فلى بها   فؤاد أضلته عيون المها عنى[٣]
بعثت به يوم النوى إثر لحظة   فأوقعه المقدار فى شرك الحسن[٤]
فهل من فتى فى الدهر يجمع بيننا   فليس كلانا عن أخيه بمستغن
ولما وقفنا للوداع وأسبلت   مدامعنا فوق الترائب كالمزن[٥]
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى   وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن[٦]

---

(١) البين : البعد والفرقة . والمها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية يضرب بها المثل فى جمال العيون . واللبانة : الحاجة فى غير فاقة . والسن : العمر ، ولبانة الشباب : ما يقتضيه من لهو ومرح .

(٢) العناء : التعب والمشقة . وألاشد : ماأشد : والغبن : يريد به الظلم .

(٣) أضلته : يريد شغلته .

(٤) النوى : البعد . وإثر لحظة : عقب لحظة . واللحظة ، النظرة بمؤخر العين . والمقدار : قدر الله . والشرك : حبالة الصيد .

(٥) أسبلت الدموع : أرسلت وهملت ، والترائب ، جمع تريبة ، وهى عظمة الصدر ، والمراد بها هنا الصدر . والمزن : المطر .

(٦) أهاب به : دعاه . وعزنى : غلبنى . والحلم : العقل . ويثوب : يرجع ، ويغنى : يفيد .

وما هى إلا خطرة ، ثم أقلعت بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن[١]
فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظى وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن[٢]
وما كنت جربت النوى قبل هذه فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن[٣]
ولكننى راجعت حلمى وردنى إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن[٤]
ولولا بنيات وشيب عواطل لما قرعت نفسى على فائت سنى[٥]

وعلى الجملة فقد كان شعره فى رتبة شعر فحول القرن الثالث والرابع خاليا من تكلف البديع ضخم المعانى جزل الألفاظ متين الأسلوب .

ويقول البارودى فى الشوق إلى الوطن :

حزن برانى وأشواق رعت كبدى يا ويح نفسى من حزن وأشواق
أكلف النفس صبراً وهى جازعة والصبر فى الحب أعيا كل مشتاق
لا فى سرنديب لى خل ألوذ به ولا أنيس سوى همى وإطراق
أبيت أرعى نجوم الليل مرتفقا فى قبة عز مرقاها على الراق
تقلدت من جمان الشهب منطقة معقودة بوشاح غير مقلاق
كأن نجم الثريا وهو مضطرب دون الهلال سراج لاح فى طاق

---

(١) أقلع عن المكان : تحول عنه . وشطوط : جمع شط ، وهو جانب البحر . والحى : منازل القوم . وأجنحة السفن : أشرعتها .

(٢) المهجة : دم القلب ، ويراد بها هنا القلب . الزفرة : النفس الشديد الحار . واللظى : لهب النار . والمقلة : العين ، وغزرة الدمع : كثرته . والدجن : الظلمة .

(٣) دهتنى : أصابتنى . وأقضى : أموت ، من قضى الرجل يقضى .

(٤) راجعت : استرددت . والحلم : العقل . وحام على الشىء : داربه . والأفن : سوء الرأى .

(٥) البنيات : جمع بنية ، وهى البنت الصغيرة . والفائت : ما لم يدركه الإنسان ، وقرع السن : كناية عن الندم . يقول : لولا بناته الصغار ، ولولا من يعولهم من أهله المسنين الذين لا كسب لهم ما ندم على شىء .

« ياروضة النيل » لامستك باقعة	ولا عـدتك سماء ذات إغداق
ولا برحت من الأوراق فى حلل	من سندس عبقرى الوشى براق
ياحبـذا نسم من جوها عبق	يسرى على جدول بالمـاء دفاق
بل حبـذا دوحة تدعو الهـديل بها	عنـد الصباح قمارى بأطواق
مرعى جيادى ، ومأوى جيرتى ، وحمى	قومى ، ومنبت آدابى وأعراق
أصبو إليهـا على بعـد ويعجبنى	أنى أعيش بها فى ثوب إمـلاق
وكيف أنسى دياراً قد تركت بهـا	أهلا كراما ، لهم ودى وإشفاق
إذا تذكرت أياما بهم سلفت	تحدرت بغروب الدمـع آماقى
فيا بريد الصبا بلغ ذوى رحمى	أنى مقيم على عهـدى وميثاقى
وإن مررت على « المقياس » فاهد له	منى تحية نفس ذات اعـلاق
وأنت يا طائرا يبكى على فنن	نفسى فداؤك من ساق على ساق
اذكرتنى مامضى والشمل مجتمع	بمصر ، والحرب لم تنهض على ساق
أيام أسحب أذيال الصبا مرحا	فى فتية لطريق الخير سباق
فيا لهـا ذكرة شب الغرام بهـا	نار أسعرت بين أردانى وأطـواق
عصر تولى وأبقى فى الفـؤاد هوى	يـكاد يشـمل أحشائى بإحراق
والمرء طوع الليـالى فى تصرفهـا	لا يملك الأمر من نجح وإخفاق
على شيم الغـوادى كلـما برقت	وما على إذا ضنت برقراق
فلا يعبنى حسود أن جرى قدر	فليس لى غير ما يقضيه خلاقى
أسلمت نفسى لمـولى لا يخيب له	راج على الدهر ، والمولى هو الواقى
وهـون الخطب عندى أنى رجـل	لاق من الدهر ما كل امرىء لاق
يا قلب صـبراً جميـلا إنه قـدر	يجرى على المرء من أسر وإطـلاق
لابد للضيق بعـد اليأس من فرج	وكل داجيـة يوما لإشراق

وهذه القصيدة تشبه فى تأوهها قصيدة أبى فراس فى قصيدته التى كتب بها من إساره إلى ابن عمه سيف الدولة يعتب ويشكو :

أبى غرب هـذا الدمع إلا تسرعا	ومكنون هـذا الحب إلا تضوعا
وكنت أرى أنى مع الصبر واجد	إذا شئت لى مضى ، وإن شئت مرجعا

فلما استمر الحب في غلوائه ... رعيت مع المضياعة الغر ما رعى
لحزني حزن الهائمين مبرحا ... وسرى سر العاشقين مضيعا
خليلى لم لا تبكيانى صبابة ... أأبدلتما بالأجرع الفرد أجرعا
على لمن ضنت على جفونه ... غوارب دمع يشمل الحى أجمعا
وهبت شبابى ، والشباب مضنة ... لأبلج من أبناء عمى أروعا
أما ليلة تمضى ، ولا بعض ليلة ... أسر بها هذا الفؤاد الموجعا ؟
أما صاحب فرد يدوم وفاؤه ... فيصفى لمن أصفى ويرعى لمن رعى
أفى كل دار لى صديق أوده ... إذا ما تفرقنا حفظت وضيعا
إذا خفت من أخوالى الروم خطة ... تخوفت من أعمامى العرب أربعا
وإن أوجعتنى من أعادى شيمة ... لقيت من الأحباب أدهى وأوجعا
ولو قد رجوت الله لارب غيره ... رجعت إلى أعلى ، وأملت أوسعا
تنكر سيف الدين لما عتبته ... وعرض بى تحت الكلام وقرعا
فقولا له : يا صادق الود إننى ... جعلتك مما رابنى منك مفزعا
ولو أننى أكننته فى جوانحى ... لأورق ما بين الضلوع وفرعا
فلا تغترر بالناس ، ما كل من ترى ... أخوك؟ إذا أوضعت فى الأمر أوضعا
ولا تتقلد ما يروق جماله ... تقلد إذا جربت ما كان أقطعا
ولا تقبلن القول من كل قائل ... سأرضيك مرأى لست أرضيك مسمعا

ولما سافر البارودى مع الجيش الذى أرسلته مصر لمساعدة الدولة فى حربها مع الروس سنة ١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧ م لم يعد إلا بعد عقد الهدنة ، وقد جرى على سجيته فى الشجاعة والاقدام فى هذه الحرب أيضا . وله فى وصف بعض مشاهدها قصائد ، منها قصيدته التى قالها سنة ١٢٩٤ يتشوق إلى الوطن ، ويصف حاله فى الحرب ، ومطلعها :

هنيئاً لريا ما تضم الجوانح ... وإن طوحت بى فى هواها الطوائح

ويقول منها فى الوصف :

لعمرى ، لقد طال النوى وتقاذفت ... مهامة دون الملتقى ومطاوح

وأصبحت فى أرض يحار بها القطا ... وترهبها الجنان وهى سوارح
بعيدة أقطار الدياميم ، لوعدا ... سليك بها شأوا قضى وهو رازح
تصيح بها الأصداء فى غسق الدجى ... صياح الثكالى هيجتها النوائح
تردت بسمور الغمام جبالها ... وماجت بتيار السيول البطائح
فأنجادها للكاسرات معاقل ... وأغوارها للعاسلات مسارح
مهالك ينسى المرء فيها خليله ... ويذهل عن سوم العلا من يناضح
فلا جو إلا سمهرى وقاضب ... ولا أرض إلا شمرى وسابح
ترانا بها كالأسد ترصد غارة ... يطير بها فتق من الصبح لائح
مدافعنا نصب العدا ، ومشاتنا ... قيام ، تليها الصافنات القوارح
ثلاثة أصناف تقيهن ساقة ... صيال العدا إن صاح بالشر صائح
فلست ترى إلا كماة بواسلا ... وجردا تخوض الموت وهى ضوابح
تغير على الأبطال والصبح باسم ... وتأوى إلى الأدغال ، والليل جانح
بكى صاحبي لما رأى الحرب أقبلت ... بأبنائها ، واليوم أغبر كالح
ولم يك مبكاه لخوف ، وإنما ... توهم أنى فى الكريهة طائح
فقال : اتئد قبل الصيال ، ولا تكن ... لنفسك حربا ، إننى لك ناصح
ألم تر معقود الدخان كأنما ... على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأت للحرب مزنة قسطل ... لها مستهل بالمنية راشح
فلا رأى إلا أن تكون بنجوة ... فإنك مقصود المكانة واضح
فقلت : نعم إنما هى خطة ... يطول بها مجد ، وتخشى فضائح
فما كل ما ترجو من الأمر ناجح ... ولا كل ما تخشى من الخطب فادح
فقد يهلك الرعديد فى عقر داره ... وينجو من الحتف الكمى المشايح
وكل امرىء يوما ملاق حمامه ... وإن عاد فى أرسانه وهو جامح
فما بارح إلا مع الخير سانح ... ولا سانح إلا مع الشر بارح
فإن عشت صاحت الثريا ، وإن أمت ... فإن كريما من تضم الصفائح

ومن شعره فى الغزل على طريقة الأقدمين هذه القصيدة :

قالت وقد سمعت شعرى فأعجبها ‏ ‏ إنى أخاف على هذا الغلام أبى
أراه يهتف باسمى غير مكترث ‏ ‏ ولو كنى لم يدع الظن من سبب
فكيف أصنع إن ذاعت مقالته ‏ ‏ ما بين قومى وهم من سادة العرب
فنازعتها فتاة من صواحبها ‏ ‏ قولا يؤلف بين الماء واللهب
قالت : دعيه يصوغ القول فى جمل ‏ ‏ من الهوى فهى آيات من الأدب
وما عليك ، وفى الأسماء مشترك ‏ ‏ إن قال فى الشعر ياليلى ولم يصب
وحسبه منك داء لو تضمنه ‏ ‏ قلب الحمامة ما غنت على عذب
فاستأنست ثم قالت وهى باسمة : ‏ ‏ إن كان ما قلت حقاً فهو فى تعب

وقال يصف حرب الروس سنة ١٢٩٤ هـ :

أدور بعينى لا أرى غير أمة ‏ ‏ من الروم بالبلقان يخطئها العد
جوائث على هام الجبال لغارة ‏ ‏ يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو[1]
إذا نحن سرنا صرح الشر باسمه ‏ ‏ وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
فأنت ترى بين الفريقين كبة ‏ ‏ يحدث فيها نفسه البطل الجعد[2]
على الأرض منها بالدماء جداول ‏ ‏ وفوق سراة النجم من وقعها لبد[3]
إذا اشتبكوا اوراجعوا الزحف خلتهم
بحوراً توالى بينها الجزر والمد
نشلهم شل العطاش ونت بها ‏ ‏ مراغمة السقيا وماطلها الورد[4]

---

(١) يريد أنها تبدأ عند ظهور ضوء الصبح .

(٢) الكبة ، ويضم : الدفعة فى القتال . الجعد: الكريم . والكرم من أوصاف الشجاع لأنه لا يكون شجاعا حتى يكون جائداً بنفسه على الموت .

(٣) سراة الدابة : ظهرها . اللبد بالكسر : كل شعر او صوف متلبد داخل بعضه فى بعض . (٤) الشل : الطرد . المراغمة : الهجران والتباعد . والمعنى انهم طردوا الأعداء امامهم ، كما تطرد الإبل العطاش التى طال عهدها بالماء فهى تساق أعنف السوق لتصل إلى حيث تشرب .

ويصور دس الحاسدين عليه فيقول :

نفسوا على حيتى ، فتألبوا   جزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم . فلما صادفوا   سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لاعيب فى سوى حمية ماجد   والسيف يغلبه المضاء فيقطع

وقال ينصح لرجال الثورة بعدم المغامرة فى حرب الانجليز ، وقد دعى لمساعدتهم فيها :

نصحت قومى . وقلت الحرب مفجعة   وربما تاح أمر غير مظنون
فخالفونى ، وشبوها مكابرة   وكان أولى بقومى لو أطاعونى
تأتى الأمور على ماليس فى خلد   ويخطىء الظن فى بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعة   وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمى ، ومن شيمى   صدق الولاء ، وتحقيق الأظانين

ومن شعره فى سرنديب :

ومن عجائب مالاقيت من زمنى   أنى منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلة تقضى على بما   أصبحت فيه، فماذا الويل والحرب؟
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى   ذنب أدان به ظلما ، وأغترب ؟
فلا يظن بى الحساد مندمة   فإننى صابر فى الله محتسب
أثريت مجدا ، فلم أعبأ بما سلبت   أيدى الحوادث منى ، فهو مستلب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية   ولا يشيد بذكر الخامل النشب
إنى امرؤ لا يرد الخوف بادرتى   ولا يحيف على أخلاقى الغضب
ملكت حلمى ، فلم انطق بمندية   وصنت عرضى ، فلم تعلق به الريب
وما أبالى ونفسى غير خاطئة   إذا تخرص أقوام ، وإن كذبوا
هى إنها فرية ، قد كان باء بها   فى ثوب يوسف من قبلى دم كذب
فإن يكن ساءنى دهرى وغادرنى   فى غربة ليس لى فيها أخ حدب
فسوف تصفو الليالى بعد كدرتها   وكل دور إذا ما تم ينقلب

وقال وهو بسرنديب :

أين أيام لذتي وشبابي ... أتراها تعود بعد الذهاب
ذاك عهد مضى وأبعد شيء ... أن يرد الزمان عهد التصابي
فأديرا على ذكراه إني ... منذ فارقته شديد المصاب
كل شيء يسلوه ذو اللب إلا ... ماضي اللهو في زمان الشباب
ليت شعري متى أرى روضة المنـ ... ـيل ذات النخيل والأعناب
حين تجري السفين مستبقات ... فوق نهر مثل اللجين المذاب
قد أحاطت بشاطئيه قصور ... مشرفات يلحن مثل القباب
ملعب تسرح النواظر منه ... بين أفنان جنة وشعاب
كلما شافه النسيم ثراه ... عاد منه بنفحة كالملاب(١)
ذاك مرعى أنسي وملعب لهوي ... وجنى صبوتي ومغنى صحابي
لست أنساه ما حييت وحاشا ... أن تراني بعهده غير صاب

وقال يجيب الأمير شكيب ارسلان عن قصيدة له :

ردي التحية يامهاة الأجرع ... وصلي بحبلك حبل من لم يقطع(٢)
وترفقي بمتيم علقت به ... نار الصبابة فهو ذاكي الأضلع

ومنها :

وترى الثريا في السماء كأنها ... حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة ... في جوف ادحي بأرض بلقع
وكأنها اكر توقد نورها ... بالكهرباءة في سماوة مصنع
والليل مرهوب الحمية قاتم ... في مسحة كالراهب المتلفع
متوشح بالنيرات كباسل ... من نسل حام باللجين مدرع

---

(١) الملاب : نوع من الطيب .
(٢) الأجرع : الأرض ذات الحزونة أو الرملة المستوية .

حسب النجوم تخلفت عن أمره ... فوحى لهن من الهلال بأصبع(١)
مازلت ارقب لجره حتى انجلى ... عن مثل شادخة الكميت الأتلع(٢)
وترنمت فوق الأراك حمامة ... تصف الهوى بلسان صب مولع
تدعو الهديل ومارأته وتلك من ... شيم الحائم بدعة لم تسمع(٣)
ربا المسالك حيث أمت صادفت ... ما تشتهى من مجثم أو مرتع
فإذا علت سكنت مظلة أيكة ... وإذا هوت وردت قرارة منبع
أملت على قصيدة لجعلتها ... لشكيب تحفة صادق لم يدع
هي من اهازيج الحمام وإنما ... ضمنتها مدح الهمام الأروع

ومن شعره فى المنفى هذه القصيدة التى نظمها وقد رأى طيف ابنته الوسطى فى المنام ليلا وكان اسمها « سميرة » . . قال :

تأوب طيف من سميرة زائر ... وما الطيف إلا ماتريه الخواطر(٤)
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب ... بأروراقه . والنجم بالأفق حائر(٥)

---

(١) وحى وأوحى بمعنى واحد .

(٢) شادخة : الغرة التى تنتشر وتملأ الجبهة . الأتلع : الطويل العنق .

(٣) الهديل : ذكر الحمام .

(٤) تأوبه : أتاه ليلا ، والطيف : الخيال الطائف فى المنام ، وسميرة : ابنة الشاعر والخواطر : الهواجس التى تخطر ببال الإنسان وتقع فى خلده ، وكل مايتحرك فى القلب من رأى أو معنى .

(٥) السدفة بضم السين : السترة بضم فسكون ، وهى ما يستر به الشىء ، أى يغطى ويحجب ، ومثلها الستر بكسر فسكون ، والستارة ، وسدفة الظلماء : الظلماء الشبيهة بالسدفة ، وطواها : سلكها ، وقطعها وسار فيها ، والأرواق : جمع روق بفتح فسكون وهو الستر بكسر فسكون ومقدم البيت والفسطاط ، وضرب الليل أرواقه : كناية عن الاستقرار والتمكن ، وحيرة النجم كناية عن شدة الحلكة وتراكم الظلمات حتى كأنه لايهتدى إلى طريق .

فيالك من طيف ألم ودونه محيط من البحر الجنوبي زاخر (١)
تخطى إلى الأرض وجداً وماله سوى نزوات الشوق حاد وزاجر (٢)
ألم ولم يلبث ، وسار ، وليته أقام ، ولو طالت على الدياجر (٣)
تحمل أهوال الظلام مخاطراً وعهدى بمن جادت به لا تخاطر (٤)
خماسية لم تدر ما الليل والسرى ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر (٥)
عقيلة أتراب توالين حولها كما دار بالبدر النجوم الزواهر (٦)
غوافل لا يعرفن بؤس معيشة ولاهن بالخطب الملم شواعر (٧)
تعودن خفض العيش في ظل والد رحيم ، وبيت شيدته العناصر (٨)

---

(١) يالك : ياعجباً لك ، وألم : نزل ، والبحر الجنوبي : المحيط الهندى ، وزاخر : طام ممتلىء وعظيم ممتد .

(٢) تخطى الأرض : سلكها وتجاوزها وقطعها ، ووجدا : حبا ، وهو مفعول لأجله ، والنزوات ، الوثبات ، جمع نزوة . والمراد بنزوات الشوق : نوازعه ودوافعه وحرقه ، وحاد : اسم فاعل من الحدو بمعنى سوق الإبل وحثها على السير بالغناء لها ، وزاجر : اسم فاعل من زجر الرجل البعير زجراً اى ساقه .

(٣) ألم به : حل ونزل ، والدياجر : جمع ديجور بفتح فسكون وهو الظلام .

(٤) أهوال الظلام : مخاوفه وأخطاره ، ومخاطراً : معرضاً نفسه للخطر ، وعهدى معرفتى .

(٥) خماسية : أى طولها خمسة أشبار (وهو كناية عن صغر سنها) . والسرى : السير ليلا ، ولم تنحسر : لم تنكشف ، وصفحتاها : جانبا جيدها ، والستائر : جمع ستارة (والشطر الثانى كناية عن تنعمها وصونها) .

(٦) العقيلة : كريمة الحى ، وعقيلة كل شيء : اكرمه ، والأتراب : جمع ترب بكسر فسكون وهو اللدة ، أى من ولد معك وكانت سنه مثل سنك ، والنجوم الزواهر جمع زاهر : وهو النجم المتألق المشرق .

(٧) غوافل : جمع غافلة ، وبؤس المعيشة : ضرها ، والخطب : النازلة .

(٨) خفض العيش : سعة المعيشة ورخاؤها ، وشيدته : رفعته واعلت قدره . والعناصر : المناقب والمفاخر والأصول الكريمة .

فهن كعنقود الثريا ، تألقت ... كواكبه فى الأفق فهى سوافر(١)
تمثلها الذكرى لعينى كأننى ... إليها على بعد من الأرض ناظر(٢)
فطورا إخال الظن حقا وتارة ... أهيم ، فتغشى مقلتى السمادر(٣)
فيا بعد ما بينى وبين أحبتى ... ويا قرب ما التفت عليه الضمائر(٤)
ولولا أمانى النفس وهى حياتها ... لما طار لى فوق البسيطة طائر(٥)
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فكل امرىء يوما إلى الله صائر(٦)
هى الدار ما الأنفاس إلا نهائب ... لديها وما الأجسام إلا عقائر(٧)
إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غد ... فإحسانها سيف على الناس جائر(٨)

---

(١) الثريا : من الكوكب ، سميت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مرآتها ، والعرب تشبه الثريا بعنقود العنب ونحوه . وتألقت : لمعت وتلألأت ، وسوافر : مضيئة مشرقة .

(٢) الذكرى ضد النسيان : وهى اسم من ذكرته الشىء تذكيرا .

(٣) إخال بكسر الهمزة على غير قياس : أظن وأحسب ، وبنو أسد يفتحون همزة المضارع وهو القياس ، وأهيم : أتحير ، وتغشى مقلتى تصيب عينى ، والسمادر جمع سمدور كعصفور : وهو غشاوة العين وضعف البصر .

(٤) ما التفت عليه الضمائر ما تكنه النفوس .

(٥) الأمانى جمع أمنية وهى ما يتمناه الانسان ويتوق إليه .

(٦) فرقن : باعدن ، وكل امرىء يوما إلى الله صائر : كناية عن اللقاء فى الآخرة .

(٧) الدار : المراد بها هنا الحياة الدنيا ، والأنفاس . جمع نفس بفتحتين وهو مظهر الحياة ، ونهائب : مغانم ، وعقائر : معقورات من قولك عقرت البعير إذا قطعت قوائمه ، ثم نحرته .

(٢) جائر : ظالم.

ترب الفتى ، حتى إذا تم أمره ... دهته كما رب البهيمة جازر(١)
لها ترة فى كل حى ومالها ... على طول ماتجنى على الخلق واتر(٢)
كثيرة ألوان الوداد ملية ... بأن يتوقاها القرين المعاشر(٣)
فن نظر الدنيا بحكمة ناقد ... درى أنها بين الأنام تقامر(٤)
صبرت على كره لما قد أصابنى ... ومن لم يجد مندوحة فهو صابر(٥)
وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... يستحسن كالحلم والمرء قادر(٦)
ولكن إذا قل النصير ، وأعوزت ... دواعى المنى ، فالصبر فيه المعاذر(٧)
فلا يشمت الأعداء بى ، فلربما ... وصلت لما أرجوه عما أحاذر(٨)
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر(٩)
ولى أمل فى الله تحيا به المنى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر(١٠)

---

(١) ترب : تربيه ، ودهته : اصابته بداهية وهى الأمر العظيم ، وجازر : صفة من جزرت البهيمة بمعنى نحرتها وذبحتها .

(٢) الترة : الثأر ، وهى أيضاً مصدر وتره بمعنى أصابه بمكروه .

(٣) ملية : جدير وخليقة ، والقرين : الصاحب .

(٤) الأنام : الخلق ، وتقامر : تخادع .

(٥) الكره : المشقة والبغض ، والمندوحة : السعة .

(٦) الحلم : الأناة والصبر ، والخطب : النازلة الشديدة من نوازل الزمان .

(٧) أعوزه الشىء : احتاج إليه فلم يقدر عليه ، والمنى جمع منية بضم فسكون، وهى ما يتمناه الإنسان ويتوق إليه ، والمعاذر . جمع معذرة وهى العذر .

(٨) أحاذره : أخافه واتقيه .

(٩) الجدود : الحظوظ ، والعواثر . اسم فاعل من عثر بمعنى زل وسقط .

(١٠) المنى : الأمانى والآمال ، وكاشر ، اسم فاعل من كشر الأسد ونحوه عن انيابه .

وطيد يزل الكيد عنه وتنقضي ... مجاهـدة الأيام وهو مثابر(١)

إذا المرء لم يركن إلى الله في الذى ... يحاذره من دهره فهو خاسر(٢)

وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له في معرض الحق ناصر(٣)

ومن لم يذق حلو الزمان ومره ... فما هو إلا طائش اللب نافر(٤)

ولولا تكاليف السيادة لم يخب ... جبان ، ولم يحو الفضيلة ثائر(٥)

تقل دواعي النفس وهي ضعيفة ... وتقوى هموم القلب وهو مغامر(٦)

وكيف يبين الفضل والنقص في الورى ... إذا لم تكن ســـوم الرجال المـــآثر(٧)

وما حمل السيف الكمى لزينة ... ولكن لأمر أوجبته المفاخر(٨)

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب ... فكل زهيد يمسك النفس جابر(٩)

فلولا العلا ما أرسل السهم نازع ... ولا شهر السيف اليماني شاهر(١٠)

---

(١) وطيد : ثابت راسخ ، وهو صفة لأمل في البيت السابق ، ويزل : يسقط .

(٢ — ٤) يركن : يلجأ ، ويحاذره : يخافه ، والمعرض بكسر الراء : موضع عرض الشيء ، أي ذكره وإظهاره ، وطائش : صفة من الطيش ، وهو الخفة والنزق ، ونافر : جزع شارد متباعد ، والمراد غر جاهل .

(٥) المراد بالثائر هنا : الشجاع الوثاب .

(٦) الهموم : العزائم ، ومغامر : ملق بنفسه في الغمرات والشدائد .

(٧) يبين : يتضح ، والورى : الخلق ، وسوم : مصـــدر سام المشترى السلعة إذا طلب بيعها ، والمراد بالسوم هنا : المطلب ، والمآثر : المكرمات والمفاخر .

(٨) الكمى : البطل الشجاع المدجج بالسلاح .

(٩) جابر : مغن ، من قولهم جبر الله فلانا أي أغناه من فقر أو سد مفاقره .

(١٠) السهم : ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها ، ونازع : رام ، وشهر السيف : سله وأخرجه من غمده للضرب والقتال ، واليماني : نسبة على غير قياس إلى اليمن لاشتهارها قديما بصنع السيوف .

من العار أن يرضى الدنية ماجد ... ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر(١)
إذا كنت تخشى كل شيء من الردى ... فكل الذى فى الكون للنفس ضائر(٢)
فمن صحة الإنسان ما فيه سقمه ... ومن أمنه ما فاجأته المخاطر(٣)
على طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر(٤)
فما كل محبوك العريكة غالب ... ولا كل محبوك التريكة ظافر(٥)
فماذا عسى الأعداء أن يتقولوا ... على، وعرضى ناصح الجيب وافر(٦)
فلى فى مراد الفضل خير مغبة ... إذا شان حياً بالخيانة ذاكر(٧)
ملكت عقاب الملك وهى كسيرة ... وغادرتها فى وكرها وهى طائر(٨)

---

(١) الدنية : النقيصة والعار . وماجد : عزيز شريف كريم ، ومكذوب المنى : الأمانى الكاذبة ، والآمال الباطلة ، وصاغر : ذليل راض بالضيم .

(٢) الردى : الهلاك ، ومن هنا : سببية ، وضائر ضار .

(٣) المخاطر : الأخطار مفردها خطر بفتحتين وهو الإشراف على الهلاك .

(٤) الطلاب : الطلب ، ومستقره : مكان وجوده واستقراره ، والمقادر جمع مقدار وهو قدر الله تعالى وحكمه ، والبيت مأخوذ من قول أبى فراس الحمدانى :

على طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لى إن حاربتنى المطالب

(٥) العريكة : النفس والطبيعة ، ومحبوك : متقن محكم ، والتريكة كسفينة بيضة الحديد للرأس كالخوذة (بضم فسكون) والمغفر ؛ وحبك التريكة كناية عن القوة والشجاعة ، وكمال الأهبة والاستعداد .

(٦) تقول عليه : كذب عليه ، والعرض : ما يجب أن يصونه الانسان من نفسه وحسبه ، أوهو موضع المدح والذم من الانسان ، وناصح الجيب : نقى خالص ، ووافر : تام .

(٧) مرادالفضل : مجاله ، وشانه بكذا : انتقصه وعابه .

(٨) العقاب : طائر من جوارح الطير ، وكسيرة : مكسورة ، وغادرتها : تركتها .

ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة … اصبحني قسط من المال غامر(١)
ولكن أبت نفسي الكريمة سوأة … تعاب بها والدهر فيه المعاير(٢)
فلا تحسبن المـــال ينفع ربه ، … إذا هو لم تحمـد قراه العشائر(٣)
فقد يستجم المال والمجد غائب ، … وقد لايكون المال والمجد حاضر(٤)
ولو أن أسباب السيادة بالغنى … لكاثر رب الفضل بالمال تاجر(٥)
فلاغرو إن حزت المكارم عاريا … فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر(٦)
أنا المرء لايثنيه عن درك العلا … نعيم ولا تعـــدو عليه المفاقر(٧)
قئول وأحلام الرجال عوازب … صئول وأفواه المنايا فواغر(٧)
فلا أنا إن أدناني الوجد باسم … ولا أنا إن أقصاني العدم باسر(٨)

(٢،١) رمت : أردت وطلبت ، وصبحني : جاءني صباحا والمراد سارع إلى . والقسط : الحصة والنصيب ، وغامر : كثير ، والسوأة : العيب والنقيصة ،

(٣) القرى : ما قرى به الضعيف من طعام أوشراب والمراد وجوه الاتفاق والعشائر جمع عشيرة وهي القبيلة .

(٤) يستجم : يجتمع ويكثر ، والمجد : العز والشرف والكرم .

(٥) كاثر : غالب بالكثرة .

(٦) لاغرو : لاعجب ، وعاريا : المراد بلامال ، والوغى : الحرب ، وحاسر مكشوف مجرد من غمده .

(٧) لايثنيه : لايعوقه ولايصرفه ، ودرك العلا : إدراكها وحيازتها ، والمفاقر وجوه الفقر .

(٨) قئول : لسن فصيح . والأحلام : العقول ؛ وعوازب : غائبة ذاهبة . وغروب الأحلام كناية عن اشتداد الخطب وتعقد الأمور ؛ وصئول : فاتك مقدم شجاع ، وفواغر مفتوحة ، جمع فاغر وهي كناية عن اشتداد الحرب .

(٩) الوجد بتثليث الواو الغنى بكسر ففتح ؛ وأقصاني : أبعدني . وباسر : كالح الوجه عابس مبتئس .

فما الفقر إن لم يدنس العرض فاضح ولا المال إن لم يشرف المرء ساتر (١)

إذا ما ذباب السيف لم يك ماضياً فحليته وصم لدى الحرب ظاهر (٢)

فإن كنت قد أصبحت فل رزية تقاسمها فى الأهل باد وحاضر (٣)

فكم بطل فل الزمان شباته وكم سيد دارت عليه الدوائر (٤)

وأى حسام لم تصبه كلالة وأى جواد لم تخنه الحوافر (٥)

فسوف يبين الحق يوما لناظر وتنزو بعوراء الحقود السرائر (٦)

وما هى إلا غمرة ، ثم تنجلى غيابتها ، والله من شاء ناصر (٧)

فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعد ما ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر (٨)

---

(١) دنس الثوب : توسخ ، والعرض : موضع المدح والذم من الإنسان أو الجانب الذى يجب أن يصونه ، أو يفتخر به من حسب وشرف .

(٢) ذباب السيف : حده ، وماض قاطع . ووصم : عيب وعار .

(٣) فل : منهزم ، والرزية المصيبة ، وباد : مقيم بالبادية وهى الصحراء . وحاضر مقيم فى الحاضرة ، وهى المدن والقرى ، وبطل : مقدام ، وفل : ثلم وكسر ، وشباة شىء : حده . والدوائر : النوائب والخطوب .

(٤، ٥) الحسام : السيف القاطع ، والكلالة : مصدر كل السيف إذا لم يقطع ، وخيانة الحوافر : كناية عن الكبوة والسقوط . وهذا فى معنى القول المشهور : لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة .

(٦) يبين : يتضح ويظهر ، وتنزو : تثب ، والعوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة ، والحقود : جمع حقد وهو الضغن والانطواء على العداوة والبغضاء ، والسرائر جمع سريرة .

(٧) الغمرة : الشدة ، وتنجلى : تنكشف وتزول . وغيابة كل شىء : ما سترك منه ، والمراد بغيابة الغمرة ظلمتها ، وما قدحه وأصابه منها .

(٨) حاطنى : صاننى وحفظنى وكلأنى ورعانى ، وترامت أخرجت . وأفلاذ القلوب . قطعها وأجزاؤها جمع فلذة بكسر الفاء وهى القطعه من الكبد واللحم ، وغيرهما . والحناجر جمع حنجور كعصفور أو حنجرة بفتح فسكون وهى الحلقوم ، والشطر الثانى كناية عن اشتداد الخطب ، وفظاعة الفادحة .

فهلا بنى الدنيا علينا فإننا ... إلى غاية تنفت فيها المرائر(١)
تطول بها الأنفاس بهراً وتلتوى ... على فلكة الساقين فيها المآزر(٢)
هنالك يعلو الحق والحق واضح ... ويسفل كعب الزور والزور عاثر(٣)
وعما قليل ينتهى الأمر كله ... فما أول إلا ويتلوه آخر(٤)

آثار البارودى :

وللبارودى ديوان شعر كبير ، وله « مختارات البارودى » في أربعة أجزاء كبار ، وهى مختارات من الشعراء العباسيين(٥) .

رأى لمطران فيه :

يقول عنه مطران : أدركته وقد عاد من منفاه . وكان أول معرفتى به أن زرته مصاحبة لصديقه ومريده الشاعر الناثر محمد بك ابراهيم هلال . دخلنا عليه وهو فى صدر مجلسه فحيانا بذلك اللطف الذى كان لا يفارقه الوقار ، ولا تثبت معه الكلفة ، وكان لى معه بعد ذلك ود وعهد .

---

(١) المراد بالغاية : يوم القيامة ، وتنفت : تتفتت وتتقطع . والمرائر جمع مرارة وهى هنة لازقة بالكبد ، وانفتات المرائر كناية عن أهوال ذلك اليوم وشدائده .

(٢) البهر بضم فسكون : تتابع النفس من الإعياء ، وبالفتح المصدر والبهر بالفتح أيضاً : الكرب والتكليف فوق الطاقة ، والعجب بفتحتين ، وفلكة كل شىء مستداره ومعظمه ، والمآزر : جمع مئزر ، وهو الإزار .

(٣) عاثر ساقط .

(٤) عما قليل : عما قريب .

(٥) جعل البارودى مختاراته سبعة أبواب ، هى : الأدب ، والمديح ، والرثاء والصفات ، والنسيب والهجاء ، والزهد .

واتفق أن جئته ذات يوم وما بيننا ثالث فتطارحنا الشعر وتباحثنا فيه ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما فاستوى يفكر . استوى ساكنا ساجيا مسنداً ظهره إلى الحائط . وفكر غير منقبض المحيا والملامح متهللة تهلل سماحة وجهه اللامع بأنوار الزوال بين بلج لحيته البيضاء المستديرة وقتم الناظرتين السوداوين اللتين تحجبان عينيه .

مرت بي وبه دقيقة وهو متمكن في تأمله وأنا مسترسل مع خاطر أخطرته في قلبي رؤية الرجل على هذه الحال . تخيل لي أنني لدى تمثال من تلك التماثيل التي أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من حكمائهم ، وتبدلت في ذهني النظرتان السوداوان بالظلين اللذين يحيطان بالعيون المطبقة في تلك التماثيل .

وعاد إلى وهمي استطرافا قوة ما أبدعوه في تلك الانصاب حتى أعاروا باتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية ، وبينما أنا مستغرق الحواس بتلك الذكرى إذ تحرك الرجل ، تحرك من يعالج معنى مستصعبا ، فتنبهت تنبه دهشة كأنى بالتمثال وقد تحرك .

وفي تلك الوهلة تصورت لأول مرة أن الرجل وذلك رسمه وتلك بشرته البيضاء ليس بعربي النبعة ، وقضيت عجبا لآية البيان التي تنتق عندها فروق الأصول والفروع والأمكنة والأزمان ، أما شعره فهو بجملته صناعة لاتنافس بقديم أو حديث مع ابتكار قليل وإحساس فياض .

اختار له أحسن أساليب العرب وأفصح ألفاظهم وتغنى بها على وحي نفسه — ونفسه جارية النغمة وعاشقة الايقاع — فافتن حتى أنسى الفن ، وجود حتى أذهل عن المعنى ، فمثل قارئه مثل سامع المنشد البارع لايتقى حين يلتبس عليه فهم الألفاظ إذا استمر النغم على نظامه وإتقانه ، بل يستمر في طربه ويترقرق فيه إلى ان يخلق لنفسه شجونا حيث تفوته شجون الأقوال المنشدة ، ذلك كان مذهبه في الشعر وتلك غايته منه ، ولا ننسى له فضلا جديراً بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة ، بمعنى أنه أول من رد الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين . وما أبز قريضه لقريض جيله ، فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعداً إلى عهد أرقى

ازمنة العرب فهى كالجبال الشامخة وحولها القصائد الأخر كالأركان المقـــامة من حجارة أطلال بلا اختبار ولا نسق ولا هندام .

والخلاصة أن المرحوم البارودى كان فى الطبقة الأولى بين شعراء العرب المحدثين وكان قلبه كلفا بالشعر وذهنه منصرفا إلى الصناعة كما يدل على ذلك منظومه، وكما يشير اليه اختياره من أقوال المتفوقين . فإنه لم ينتق منها إلا كل ماحسن لفظا ومعنى أو حسن لفظا وأهمل ماحسن بمعناه دون مبناه . فشعره إنما هو شعر الصنـاعة والإيقـاع .

عائشة التيمورية

١٨٤٠ — ١٩٠٢

مع الصعوبات التى كانت تجدها المرأة المصرية ، منذ نصف قرن فى تحصيل العلم ، كانت هناك من المصريات من يتلقين العلم فى بيوتهن ويفرغن للاطلاع والبحث ، بل إلى التأليف والكتابة أيضا . ومن هـــؤلاء عائشة التيمورية ، الشاعرة الكاتبة القديرة .

ولدت عائشة التيمورية قبل وفاة محمد على بتسعة أعوام، وتوفيت بعد تولى عباس الثانى الحكم بعشرة أعوام أى انها شهدت تطور بلادها فى عهد اربعة من الولاة هم : محمد على ، وابراهيم ، وعباس الأول ، وسعيد ، وثلاثة من الخديويين هم : إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس الثانى . . . وهى ابنة اسماعيل تيمور باشا من أم جركسية الأصل . . وقد شهدت فى فجر حياتها كبار الكتاب ، واعلام الشعراء يجتمعون فى قصر ابيها ، وعنهم سمعت روائع الشعر ، وآيات البلاغة ، مما قوى فيها الميل إلى ولوج الميدان الأدبى .

وكرهت امها فيها ذلك الميل ، ولكن فطرتها الأدبية كانت تحفزها إلى المضى فى الميدان الذى اختارته ، وتنأى بها فى الوقت نفسه عن الأعمال المنزلية التى ينحصر فيها نشاط لداتها .

على أنها وجدت مشجعا فى ابيها الذى أحضر لها الأساتذة يملونها القرآن والفقه واللغة والعروض . .

وتزوجت عائشة وهى فى الخامسة عشر من عمرها من احد اشراف الاتراك ، فقطعت بذلك دراستها لعلم العروض ، ولم تكن قد تمرست بعد على نظم الشعر . وطوتها الحياة الزوجية فى غمارها وشغلتها عن الشعر والإنشاء ، وملأت دنياها بزوج وبنين وبنات .. ولكن إلى حين .

ثم مضت الأعوام ، وخفت اعباء الأمومة نوعا ، فتوفر لعائشة شيء من الفراغ لتسمع العالم العربى أعذب الألحان من الشعر العربى الرصين . . وهكذا

ألهتها الحياة الزوجية لوقت ما عن النظم ولكنها أذاقتها من السراء والضراء ماهذب حسها وأرهف وجدانها ، وانضج الموهبة الكامنة فيها . وزادت هذه الحساسية وقويت الشاعرية فيها حين ماتت لها « توحيدة » كبرى بناتها . . وأصغت الدنيا إلى أنينها الموجع ، ونواحها الحزين . . ومن قصيدة لها فى رثاء ابنتها :

قد عز اللقاء وفى غــــد	سترين نعشا كالعروس يسير
قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى	جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدى بإزاء لحدى برهة	فتراك روح ساقها المقدور

ونظمت الشعر فى جميع فنونه وألوانه .. نظمت شعر المجاملة والشعر العائلى ، والشعر الغزلى ، والشعر الأخلاقى ، والشعر الدينى أو الابتهالى . . أما النثر فقد عالجته لملء ساعات الفراغ الطويلة ، وكتبت «نتائج الأحوال» وهو كتاب قصصى جميل . وعالجت الموضوعات الاجتماعية فى كتابها «مرآة التأمل فى الأمور» ومجموعة مقالاتها فى جريدة المؤيد «لاتصلح العائلات إلا بتربية البنات» .

وهكذا أثرت التيمورية فى الحياة الأدبية فى مصر فى الوقت الذى لم تكن فيه المرأة المصرية قد خرجت بعد إلى ميدان الحياة العامة ..

ومن شعرها فى تشطير هذين البيتين :

وليــــل ماكفاها الهجر حتى	أباحت فى الهوى عرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الآسى ، قالت:	وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟!

قولهــــا :

وليــــلى ماكفاها الهجر حتى	أطالت فى دجى ليـــلى أنينى
وكل تجـــلدى بالصبر لمـــا	أباحت فى الهـــوى عرضى ودينى
فقلت لها ارحمى الآسى ، قالت :	كذا خط اليراع على الجبــــين
فدع قلق الصغار وكن صبوراً	وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟!

وقولهـــا :

وليــــلى ماكفاها الهجر حتى	أرتنى جرح قلبي بالعيون
وما قنعت بسفك دمى ولكن	أباحت فى الهـوى عرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأمى ، قالت :	بأمى قد بليت . . فمن معينى ؟
أترحم فى الغرام وأنت صب ؟	وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟

وقولهـــا :

وليــــلى ماكفاها الهجر حتى	أذاعت بعد كتمان شجونى
وحين تبينت آيات وجـــدى	أباحت فى الهـوى عرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأمى ، قالت :	جننت ، وفى الهوى بعض الجنون
وهبنى كنت أمك كيف أحنو ؟	وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟

ولم تنبغ مثلها امرأة منذ كانت الخنساء تهز الرمال المقدسة فى الصحارى الشاسعة بنواحها الطويل . . . ولكم ناحت هى الأخرى وهزت أرجاء الحريم بصرخات حرة تريد بها أن تمزق الحجاب عن نساء مصر فى القرن التاسع عشر .

وقد كان أبوها من هواة الأدب ، وكانت رحبات قصره تزخر بنساخين يكتبون المخطوطات القديمة . وتعلمت عائشة منذ الطفولة المبكرة أن تندس بينهم، وتلتقط منهم الشعر والجمل العربية وتحفظها . وعندما أصبحت صبية يجدر بها أن تتعلم التطريز وشئون المطبخ، كانت تهجر هذا كله لتصغى إلى أصوات المقرئين وأنغام الطير فى حديقة القصر .. أو لتعكف على ديوان من الشعر تحفظه بيتا بعد بيت . وضاقت بها أمها ، وحاولت بالضرب والتأنيب أن تصرفها إلى شئون المطبخ، ولكن عبثا .. وتدخل الأب فقال لزوجته : « اهتمى بأختها ودعيها لى ، فقد خلقت لرسالة أهم من شئون المطبخ والتطريز » .. وأخذ أبوها يعلمها آداب اللغة العربية ، وجلب لها أساتذة العصر ليعلموها النحو والعروض واللغة .

ونمت ملكاتها ، وأصبحت هي نفسها تقول شعراً ، واغتبط أبوها بها ، وأخذ يذيع شعرها ، ويوما بعد يوم أخذت مكانتها في عالم الأدب ، فتفوقت على كثيرين من الرجال .

ومع ذلك فقد احتفظت بتقاليد « الحرملك » كاملة ، فلم تكن تظهر للرجال على نحو ما يحدث اليوم . وإن حطمت شاعريتها جميع هذه التقاليد ، فكتبت شعراً في الغزل ، وفي السياسة ، وشاركت بقلمها في كثير من الأحداث السياسية في ذلك العصر . ثم تزوجت فتفجرت شاعريتها ، ولم يكن يمر شهر من الزمان إلا تتناقل المجالس الأدبية قصيدة جديدة رائعة للشاعرة الحسناء .

ثم ماتت ابنتها فبكتها بأحر ما تبكي أم . وأرسلت فيها كثيراً من القصائد الدامية ، وظلت تبكي وتبكي حتى فقدت بصرها من الحزن ، فعادت تبكي ضياء العين .

وكانت إذ ذاك قد بلغت قمة مجدها كشاعرة . وكان الشعراء الشبان كشوقي ونسيم ومطران ومحرم وحافظ . كان هذا الجيل من الشعراء يعدونها أستاذة لهم ، ويتأثرون بها فيما يكتبون . ولم يكد القرن العشرون يطوي من كتابه صفحتين حتى سكتت الشاعرة الكبيرة إلى الأبد . هذه هي عائشة التيمورية ، التي قال عنها بعض النقاد الغربيين ، عند ما ماتت في سنة ١٩٠٢ : إن شعرها ليطوي القرون ويذكرنا بسافو زعيمة الشعر الأنثوي !

وهذه هي أهم أفكارها :

الحياة : كل شيء يصير إلى القبر ، فعلام إذن يتطاحن الناس ؟ .

الأمومة : هي أسمى ما في الحياة ، والأمومة وحدها هي منبع الحب الحقيقي الطاهر .

الصبر : الصبر نوع من العبادة والركون إلى الله ، والجزع كفر به لا يأتيه إلا من نقص عقله ودينه .

الهوى : لوموا القلوب على الهوى إن كان يستطيع اللوم أن يتحكم في قلب ، أو كانت القلوب تملك عقولا .

السعادة : السعادة الحقة ليست فى هذه الأرض المليئة بالشرور ، إنما السعادة فى دار الخلود فلتعمل فى الدنيا بما يجنب عذاب الآخرة .

النجاح : يجب على الإنسان ألا يطمئن إلى نجاحه أبدا ، فالدهر غادر متقلب .

ومن شعرها :

ملك الفؤاد وقد هجر ... بدر المحاسن مذ ظهر
ما حيلتى فى حبــه ... إلا الخضوع لما أمر
واحيرتى فى حبــه ... واطول هجوى بالخفر
ياقلب حسبك ماجرى ... أحرقت جسمى بالشرر
رام الحبيب لك الضنى ... لم ذا وأنت له مقر ؟
لكن تعذيب الهوى ... ما للشجى منه مفر
ألق الوشاح وخلنى ... أصلى سعيراً فى سقر
وعن العذار فلا تسل ... ولأنت أولى من عذر

ولما ماتت «توحيدة» فتاتها الكبرى ، ذاقت عائشة الحزن الأكبر ، وعرفت طعم الثكل ، وكانت « توحيدة » عروساً فى الثامنة عشرة من عمرها ، فاهتز قلب « الشاعرة » لذلك الشباب الذى يزف إلى القبر ورثتها بمرثية بليغة ستأتى

ومن شعرها :

كم قابلتنى ليال ريحها سحر ... بطيئة السير ترمى بالشرارات
لاقيتها بجميل الصبر من جلدى ... وبت أسق الثرى من غيث عبراتى
أقوم والضيم تطوينى نوائبه ... على السجل ولم أسمعه أناتى
ولم أزل أشتكى بثى ومظلمتى ... لعالم الجهر منى والخفيات
فيالها من جراح كلما اتسعت ... أعيت طبيبى رغماً عن مداواتى

مرثيتها لابنتها :

قالت عائشة هانم التيمورية ترثى ابنتها :

إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غــدور
فلكل عين حق مدرار الدما ... ولكل قلب لوعــة وثبور

ستر السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغيبت بعد الشروق بدور

ومضى الذى أهوى وجرعنى الأسا ... وغدت بقلبى جذوة وسعير

ياليته لما نوى عهد النوى ... وافى العيون من الظلام نذير

ناهيك ما فعلت بما . حشاشتى ... نار لها بين الضلوع زفير

لو بث حزنى فى الورى لم يلتفت ... لمصاب قيس والمصاب كثير

طافت بشهر الصوم كاسات الردى ... سحراً وأكواب الدموع تدور

فتناولت منها ابنتى فتغيرت ... وجنات خد شأنها التغيير

فذوت أزاهير الحياة بروضها ... وانقد منها مائس ونضير

لبست ثياب السقم فى صفر وقد ... ذاقت شراب الموت وهو مرير

جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا ... إن الطبيب بطبه مغرور

وصف التجرع وهو يزعم أنه ... بالبرء من كل السقام بشير

فتنفست للحزن قائلة له ... عجل ببرئى حيث أنت خبير

وارحم شبابى إن والدتى غدت ... ثكلى يثير لها الجوى وتثير

وارأف بعين حرمت طيب الكرى ... تشكو السهاد وفى الجفون فتور

لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير

أماه ! قد كل الطبيب وفاتنى ... مما أؤمل فى الحياة نصير

لو جاء عراف اليمامة يبتغى ... برئى لرد الطرف وهو حسير

ياروع روحى حلها نزع الضنا ... عما قليل ورقها مستطير

أماه ! قد عز اللقاء وفى غد ... سترين نعشى كالعروس يسير

وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى ... هو منزلى وله الجموع تصير

قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى ... جاءت عروساً ساقها التقدير

وتجلدى بإزاء لحدى برهة ... فتراك روح راعها المقدور

أماه ! قد سلفت لنا أمنية ... ياحسنها لو ساقها التيسير

كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مذ بان يوم البين وهو عسير

عودى إلى ربع خلا ومآثر ... قد خلفت عنى لها تأثير

صونى جهاز العرس تذكاراً فلى ... قد كان منه إلى الزفاف سرور

جرت مصائب فرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد وتنفذ المسطور

والقبر صار لغصن قدى روضة ... ريحانها عند المزار زهور

اماه لاتنسى بحق بشوقى   قبرى لئلا يحزن المقبور
ورجاء عفو أو تلاوة منزل   فسواك من لى بالحنين يزور
فلعلما أحظى برحمة خالق   هو راحم بر بنا وغفور
فأجبتها والدمع يحبس منطق   والدهر من بعد الجوار يجور
بنتاه؟ يا كبدى ولوعة مهجتى !   قد زال صفو شأنه التكدير
لاتوص ثكلى قد أذاب وتينها   حزن عليك وحسرة وزفير
قسما بغض نواظرى وتلهفى   مذ غاب إنسان وفارق نور
وبقبلتى ثغراً تقضى نحبه   لحرمت طيب شذاه وهو عطير
والله لا أسلو التلاوة والدعا   ما غردت فوق الغصون طيور
كلا ولا أنسى زفير توجعى   والقد منك لدى الثرى مدثور
إنى ألفت الحزن حتى إننى   لو غاب عنى ساءنى التأخير
قد كنت لا أرضى التباعد برهة   كيف التصبر والبعاد دهور
أبكيك حتى نلتقى فى جنة   برياض خلد زينتها الحور
إن قيل عائشة أقول لقد فنى   عيشى وصبرى والإله خبير
ولهى على توحيدة الحسن التى   قد غاب بدر جمالها المستور
قلبى وجفنى واللسان وخالق   راض وباك ، شاكر وغفور

مصطفى (بك) نجيب

هو المرحوم مصطفى بن محمد نجيب الأديب الشاعر الجيد ، والكاتب الطلى الأسلوب .

يمتاز شعره بسهولة اللفظ ورشاقة العبارة وإيراد أبرع النكات فى نثره وشعره(١) ، وقد نشأ فى معية الخديوى ، ثم نقل إلى وزارة الداخلية ، فشغل فيها منصباً كبيراً ، حتى مات رحمه الله سنة ١٣٣٠هـ — ١٩٠٢ م ، وهو صاحب رسائل : أحلام الأحلام ، وكتاب : حماة الإسلام ، الذى نشر فى جريدة اللـــواء . .

ومن أسلوبه ما كتب به إلى صديق له يصف نظارة ويشكر من أهداها ، وهى قطعة أدبية جميلة تدل على ذوق صاحبها وتمكنه فى الأدب والبيان ، والعربية : ورد الكتاب المطرز بحلى الكرم ، المحلى بجميل النعم ، واستلمت الهدية ، فسلمت يد أهدتها ، وحفظت السجايا التى لمحاسن الأعمال هدتها ، ودامت رحاب لمثـل هذه الحسنات فيها مجال ، وللمحسنات بهاء وجمال ، وللآمال محط رحال ، وللمقاصد كعبة إقبال ، وطابت نفس تعالى الله أن تماثلها نفس عصام ، فإنها نسخت آية الكر والإقدام ، بآية الجود والإكرام ، وفعلت فى القلوب بالعطاء والنوال ، ماقصرت عنه الرماح الطوال ، وتأملتها فأرتنى مالا عين رأت ، وأظهرت من محاسن المناظر ما أعمرت ، وقربت كل منظور بعيد . وقلت : فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وصفا وفى بصفاتها ، فلم أشته شيئاً إلا جمعت بينه وبينى . وصح علينـا قول القائل : رأيت بعينهـا ورأت بعينى ، ثم سرحت نظرى فى الأطلال والرسوم ، حتى نظرت نظرة فى النجوم ، فلم تخف عنى شجراً ولا مدراً ، لا نجما ولا قمراً :

يزيدك وجهه حسنا   إذا ما زدته نظراً

---

(١) راجع طائفة كبيرة من شعره فى مجلة أبوللو عدد ديسمبر ١٩٣٤ ص ٦٧٤ وما بعدها من مقالة عنه بقلم محمد عبد الغفور .

بهاء ، يخيل لى أنها صيغت من ضياء ، فلو كانت فى يد ذلك الظمآن ـ أستغفر الله ـ لما كان يحسب أن السراب ماء ، استغربتها العقول حتى صار لكل إنسان فيها نظر ، واطلعت على تفاوت الناس لجاءت لكل بصر بقدر ، ونال بها كل قصده ومرامه ، واستوى عندها : أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة ، فلو كانت عينا لكشفت حقائق الضمائر ، ونظر بها تقلب القلوب وحقيقة البصائر ، شهد لها الجمع بالفضل لما ظهر لكل إنسان لديها حالة ضعفه ، وعظم مقدارها كل فرد ورفعها — رغبة منه أو رغما — على أنفه ، ولا عيب فيها غير أنى نظرت بها فى سماء فضلك الباهر ، وأفق شرفك الطاهر ، فلم ينكشف لى بها لجودك آخر . . لازال كرمك بعيداً حده على كل ناظر وباصر ، وفضل مناهلك غاية تقصدها الأوائل والأواخر .

وله من قطعة أدبية يصف فيها (الفونوغراف) ، وتمتاز بأسلوبها الأدبى الرائع: مثال القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ اقتطافا ، ويختطف الصوت اختطافا ، مطبعة الأصوات ، ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية ، نقل كلام عمر رضى الله عنه إلى سارية ، أشد من الصدى فى فعله ، فى إعادة الصوت إلى أصله ، كأنه الحرف عن يد الطابع ، والوتر عن يد الضارب ، يحفظ الكلام ولا يبيده ، ومتى استعدته منه يعيده ، من غير أن يبق لفظاق صدره ، أو يكتم شيئا من أمره ، كأنما حفظ الوديعة فى نفسه طبيعة . فلو تقدم له الوجود فى مرتبة الزمن ، لما احتجنا فى الأخبار إلى عنعنة ، ولا فى الدعاوى إلى بينة ، بل كان يسمعنا كلام السيد المسيح فى المهد ، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم ، وأنشدوه كلمتهم ، فرأينا به غرائب اليونان ، وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان ، وشعر حسان .. نديم ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لاينسب إليه تقصير ، تسكته وتستعيده ، وتذمه وتستجيده ، و تنقصه وتستزيده ، وهو فى كل هذه الأحوال ، راض بما يقال . فهو المصور لكل فن ، المتكلم بكل لغة ، المحدث عن كل إنسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر الناثر ، المغنى العازف ، لاتعجزه العبارة .

ومن شعره قصيدة (البعث) وقد نظمها سنة ١٩٠٠ وقال فيها :

عصره مضى وأتى الجديد المعلم   ياغافلين عن الحياة تعلموا

إن يدفن الماضي العتاة فإنهم ... لن يدفنوا الآتي وإن هم أقدموا
فالبعث ليس يرده متجبر ... كالموت ليس يرده متقدم
إن يسلبوا ذاك التراث فإنهم ... لم يغنموا ، لو أن لها يغنم
سيجشمون من العقاب أمره ... إن تجمعوا أمراً لكم أو تصمموا
فيم التواني والتخاذل بينكم ... والنوم حين عدوكم لايرحم ؟
أنسيتم (التل الكبير) وغدره ... والاسكندرية حين ضرجها الدم
لم لا تكونون الذين توارثوا ... أنف الجدود وبالشهامة أقسموا
إن الغد المرجو يرقب حزمكم ... وكفاحكم ؛ فتهيأوا وتقدموا
لاترهبوا طول السنين فإنها ... لغو ، وكم سحق السنين المقدم
أو تحذروا ماخبأ الآتي لكم ... فيم الحذار إذا الحياة جهنم ؟
ياهادمي (الباستيل) كيف هدمتمو ... ثقة لشعب كان قد أولا كمو(١) ؟
مكنتمو للناهبي استقلالنا ... فكأنما القرصان باتوا منكمو

ومن شعره كذلك قصيدة (يوم النصر) ، وجاء فيها :

تهون الشعوب ولا تهزم ... ويهوى الطغاة وإن يحكموا
فيا (مصر) لاتيأسي في الهوان ... فحسبك تاريخك الملهم
تضمخ بالذكر الغاليات ... وإن كان يقطر منه الدم
فتوحاته مجدتها الشعوب ... ويحدها العلم والمرقم
فما ضرها مرة لاتعد ... وما هدها مرة تهزم
وما غلبتك جيوش العداة ... بل الخائنون بما أجرموا
هزمت القرون وكل الغزاة ... فما (الانكليز) بما أقدموا ؟
كما ضاع (قبيز) لابد أن ... يضيعوا ، ولا بد أن يرغموا
شبابك يكفل هذا المآل ... فمن حزمه النصر يستلهم
ولا بد للثأر من يومه ... وإن سوف الدهر والنوم

---

(١) يعني الفرنسيين .

وعندئذ ستهز الربوع　　كتائب ما بينها محجم
وحينئذ سيشيع الفداء　　هواء المسيحى والمسلم
وتغسل أرض (الكنانة) عما　　جنى أمسها الغادر المعتم
ويأتى الأباة محل الذين　　أضاعوا الكرامة واستسلموا
فينتزع الشعب حقا له　　وينسف أوتاد من خيموا !

ويقول أحمد زكى أبو شادى عنه : قد يحلو لأساتذة الأدب التنويه بأساليب مصطفى نجيب الطلية ، سواء منها ما كان اتباعيا وابتداعيا ، نثراً ونظما ، وقد تروق لهم الإشادة بأصالته ، وكيف تأثر اسماعيل صبرى خاصة بأناقته وبظرفه وموسيقاه ، ولكن الأهم عندى الالتفات إلى زعامته الفكرية فى جيله ، وقد امتد أثرها إلى عصرنا الحاضر ، وكان مصطفى كامل يحله عنده المحل الأرفع إذ لم يكن مصطفى نجيب مساعده الأيمن فحسب ، بل الفكر الخصب النير الملهم أيضا ، ولولا أن المنية عاجلته فى سنة ١٩٠٢ م . لكان خلف مصطفى كامل فى زعامة الحزب الوطنى ، إذ كان إلى جانب وطنيته الرفيعة ونزاهته العظيمة ، وثقافته العالية ، جريئا فى الحق إلى أبعد الغايات ، مهما لاقى من عنت فى سبيل عقيدته ، وقد كان موظفا كبيراً بوزارة الداخلية ؛ فما كانت قيود الوظيفة تحده عن ضرب المثل الصالح فى السلوك الوطنى القويم للموظفين خاصة ولأبناء مصر عامة ، والمطلع على كتبه : حماة الإسلام ، وأحلام الأحلام ، وأسباب ونتائج ، وسواها لا يرى شعلة الإيثار متقدة وحدها ، بل يرى إلى جانبها رجاحة التفكير ونفاذاً للبصيرة فوق ما ينتظر من بيئته وزمنه . أنظر مثلا إلى مقاله الأول (الحالة الاقتصادية فى مصر) من كتابه أسباب ونتائج ص ٤ — ولا تنس أنه كتب سنة ١٨٨٨ م ، وفيه يقول : «أعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة» : تقول العامة إن مصر أم الدنيا . ويصح إذا قورن بينها وبين مدن الممالك الأخرى مثل لندرة وباريس وهامبرج وبروكسل وأمثالها أن تسمى : خادمة الدنيا . لأنها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة . كما لو وضعت سائلة مكدية ذات أطمار بالية قذرة فى جانب عروس متحلية بأفخر الملابس وأثمن الحلى وأبهاها . والحقيقة أن

مصر بلد فقيرة جداً ، نصف أهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشيء التافه الذى لا يقى الحى من الموت جوعاً ، والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين :

الأول يشمل التجار والصناع، وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه أنه مالى ملىء ، والآخر يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحلة اليسار نوعاً ، وإذا تأخر مرتبهم وقعوا فى العسرة والضنك الشديد . أما أرباب الأطيان من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى البلاد فحالهم كحال رابيل المؤلف الفرنساوى المشهور إذ قال فى وصيته : إنى لا أملك شيئاً وعلى ديون كثيرة وأوصى ببقية ما أملك للفقراء . والبلد التى يكون أهلها فقراء مثلنا لا يمكنها ما دام فقرها أن تؤمل خيراً فى المستقبل، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، إذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم شيء مطلقا . والدولة لا تكون غنية إلا إذا كان أهلها أغنياء » ولذلك قال أحد الساسة المشهورين : أعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة . . وجميع فصول هذا الكتاب الشائق جد حيوية، لأنها نظرات قائد إدارى محنك ، ووطنى غيور على نهضة أمته بأقوم الوسائل ، التى برهنت تجاريب الأمم على صلاحيتها مدى الأيام .

إسماعيل صبرى

٢٠ فبراير ١٨٥٤ — ١٦ مارس ١٩٢٣

كان إسماعيل صبرى من شعراء مصر المعدودين فى مطلع القرن العشرين[١] ، وقد استقبل الحياة فى ١٦ فبراير عام ١٨٥٤ حيث كانت حركة الإحياء الأدبى سائرة فى خطاها الجادة العاملة ، وتزود صبرى بكثير من الثقافات الأدبية القديمة ، وقرأ طويلا فى الشعر العربى وأحبه محاولا تقليده ونظمه ، فى قصائد هى مجرد تقليد واضح فى أغراضها ومعانيها وأساليبها وخيالها للشعراء الكبار فى عصره : كالبارودى وعبدالله فكرى . وإن ظهرت عليها حينا مسحة رقيقة من جمال روحه وشخصيته ، ثم أخذ يقرأ بحكم ثقافته فى الأدب الفرنسى ، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق فى جامعاتها عام ١٨٧٣ ... تأثر بالبحترى فى روحه الغنائى كثيراً ، وتأثر بألوان من الخيال فى الشعر العربى ، وببعض مميزات الشعر الفرنسى ، فلما استوى سنه ، ونضج شعره ، بدأت شخصيته الأدبية تظهر بوضوح فى قصائده ، وخاصة تلك التى نظمها يصف بها عواطفه ومشاعره ، ويتغنى فيها بأناشيد الهوى والحب والجمال والحكمة والتصوف والروحية العميقة والوطنية ، وكان شعره يجمع بين عمق المعنى وحلاوة اللفظ ، فى بساطة وصدق وقوة عاطفة ، وكان يكره الصنعة والتعمل والتعقيد .

وقد بدأ ينظم الشعر وهو فى السادسة عشرة وكان ينشر فى مجلة « روضة المدارس » .

ويقول فيه طه حسين فى المقدمة التى كتبها لديوانه : أجمع الجيل الذى عاصر صبرى على أنه كان شاعراً ممتازاً ، وعلى أنه كان علماً من أعلام الشعر فيه ، وكان صبرى مقلا شديد الإقلال . ولم يكن يتخذ الشعر صناعة ، وإنما كان يتخذه لونا من ألوان الترف ، وفنا من فنون الامتياز العقلى والأدبى الرفيع ، تفكه صبرى فى شعره بعض الشىء ، ولكنه لم يعرف الفكاهة الخاصة التى تنتهى إلى الضحك

---

(١) ترجم له هيكل فى كتابه « تراجم شرقية وغربية » .

لاتتجاوزه إلى شىء آخر ، وفى الشعر السياسى لصبرى هذا الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ وشوقى ، ونعرفه فى حياة الجيل كله ، هذه الوطنية الحادة الطامحة إلى مثل أعلى غير محدود .

وقد ولد فى مصر ونشأ بها فلما ترعرع أدخل المدارس الابتدائية فأتم علومها وجاوزها إلى المدارس (التجهيزية) ثم ارتقى إلى مدرسة الإدارة (التى صارت مدرسة الحقوق فيما بعد) . ثم سافر فى إحدى البعثات إلى فرنسا ، وانتظم فى جامعة (إكس) . ونال إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م . وعاد فتولى منصب القضاء الأهلى ، وما برح يتدرج فيه حتى قلد منصب النائب العام ، ثم تحول إلى الإدارة فتولى محافظة الإسكندرية ، ثم قلد وكالة الحقانية ، حتى إذا بلغ الستين أقيل ، بحكمها ، من المنصب .

وكان إسماعيل صبرى ، رحمه الله ، رجلا رضى الخلق ، هادىء السمت ، وضىء النفس ، حلو الحديث ، وقد عالج الشعر من فتاء السن . فكان وهو لما ينيف على السادسة عشرة يرسل القصائد فى مجلة (روضة المدارس) . على أن شعره يومئذ كان مطبوعا على غرار الشعر فى الزمن الذى تقدم عصره وفى بعض عصره . على أن الرجل كان له طبع ، وكانت نفسه تنطوى على موهبة الشعر ، فما إن عاش فى فرنسا وطالع ما فيها من فتنة وجمال . وقرأ أدب القوم فى لغتهم . حتى جعلت نفسه تتفطن إلى مواطن الجمال حيث وقع . وبهذا جعلت موهبته الكامنة تتحرك ، وملكته الشعرية تنضج وتزكو ، حتى أوفى قريضه على الغاية من اللطف والإحسان والجمال .

ولقد انتهى إسماعيل صبرى إلى أن أصبح شاعراً بأدق معانى الكلمة ، فهو لايحتفل لقرض الشعر إلا إذا جاشت فى نفسه العاطفة القوية ، وسنح لذهنه الخاطر البديع . فلا يزال يتخير له الألفاظ الشريفة يرصعها فى الصيغ ترصيعا ، ومايزال بها يصقلها ويجلوها حتى يخرجها وكأنها من نظم جوهرى لا من نظم شاعر .

كان ، رحمه الله ، مرهف الحس ، تام الذوق ، صادق الوجدان ، يحتفل للموسيقى الشعرية ويهتز لها ، لاتقرأ شعره إلا أشعرك الحاجة إلى الاستماع للغناء ، لأن الموسيقى تستشرف له من جميع أقطاره . ولقد تغنى حذاق المغنين بشعره فزادوا بحسن الكلام إطرابا على إطراب .

ومما أغلى شعر صبرى وزاد فى بهائه وإشراقه أنه أضحى لا ينظم إلا لنفسه . فإذا أصاب من هذا غايته وإلا فلا، الشعر الهبل . فكان شأنه فى هذا شأن الكروان يغرد إذا تألق القمر ، والهزار يشدو إذا تفتح الزهر .

وشعره كله ، فى طوره الثانى ، يجرى فى سهولة ، وحلاوة لفظ ، ورقة أسلوب وتلاحم نسج ، ورصانة قافية . ولقد كان من أثر اقتصاره فى الشعر على الترجمة عما يختلج فى نفسه أن أصبح مقلا يقتصر على البيتين أو الأربعة أو العشرة . اللهم إلا أن تبعثه بعض الأحداث إلى القصيد فيطيل ما شاء أن يطيل . على أنه وإن كان لا يضعف فى الإطالة ولا يسف ، ولكنك لا ترى فى أكثر أبياته تلك الموسيقى ، ولا الارتفاع إلى تلك المعانى التى لم يصبها أحد قبله .

ولقد كان متقدمو الشعراء من أمثال شوقى ، فى أول نشأته . وحافظ وأضرابهما يعرضون عليه أشعارهم لما عرفوا من رفاهية حسه ، ودقة ذوقه ، ورقة طبعه . . وقال عنه خليل مطران :

أكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها : أو خبر ذى بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه .

ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه ، فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشيا ، وربما قاله بحضرة صديق وهو ماثل عنه بمتقه ، وله بين حين وحين أنة يمثل ما تتعلق الفكة أيه مستطيلة ، ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، شديد النقد لشعره ، كثير التبديل والتحويل فيه ، حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ، ثم نسيه .

وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش فى صدره الشعر فيرسل بيتيه إطلاق زوجى الطائر ، فيذهبان فى الفضاء ، ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتممة ، شاديين على توقيع العروض إلى أن يتواريا ، وينقطع نغمها من عالم ، ذلك هو الشعر للشعر

ومن شعره قوله :

سفرت . فلاح لنا هـــلال سعود وتمـا الغرام بقلبي المعمـــود
وجلت على العشاق روض محاسن فسقا الحيـاء شقـائق التوريد
ورنت بأحور طرفها وتبسمت فبـــدا ضياء اللؤلؤ المنضود
يا ربة الطرف الكحيل تعطفي وعلى محبـــك بالمودة جودي
جودي ولو بالطيف في سنة الكرى وصلى برغم مفنـــد وحسود
قسما بمـا يرضيك في صدق الوفا ما حلت عنك بسلوة وصــــدود
أنا قائم أبداً بفروض الهوى مستبدل للنـــوم بالتسهيد
فالى متى ولهى وفرط صبابتي وسرور عذالي وخلف وعودي
وإلى متى ذا الصدعن مضنى الهوى عودي ليورق بالتواصـل عودي
واستأنى موصول عائد أنسنا فالقرب عيدي والبعـاد وعيدي

وقوله :

تبسمت عن جوهر العقـــد فأكثرت عيني من النقـــد
رشيقة الأعطاف مهما انثنت جارت على الأغصـان بالقد
تخد بالخـــد حشا صبهـا فكل ما يشكو من الخـد
ولم أقـــل بالجفن تخديده لأنه زاد على الحـــد
تفردت في حسنهـا مثلما تفرد « إسمـاعيـل » بالمجـد

وقوله :

لو أن أطـــلال المنـازل تنطق ما ارتد حران الجوانح شيق
هل عند ذاك السرب أنا بعده في الحب من آماقنـا تتدفق ؟
أو أن أضلعنـا على ما استودعت يوم الفراق من الجوى تتحرق
أمنازل الأقمار أهلك أسرفوا في النأى إسراف الغنى وأغرقوا
لو أنهم قد أنصفوك منازلا ما حازهم في الكون بعدك مشرق

وقوله :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده حسناء مرهفة القوام فنذكر

هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما أوفى على قدر الكفاية يسكر
تثب القلوب إلى الرؤوس إذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد فإذا دنت من نحرها تستغفر
وتزيد فى فمها اللآلىء قيمة حتى يسود كبيرهن الأصغر

وقوله :

يالواء الحسن ، أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لاتذودى بعضنا عن ورده دون بعض ، واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن ، فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج بين لجين عناء وشقاء
شدة تمضى ، وتأتى شدة تقتفيها شدة ، هل من رجاء ؟
ساعفى آمال أنضاء الهوى بقبول من محياك رخاء
وتجلى ، واجعلى قوم الهوى تحت عرش الشمس فى الحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنه من معدات الهناء
واسفرى تلك حلى ماخلقت لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر إذا حدثتنا ناثر الدر علينا ماتشاء
وابسمى من كان هذا ثغره يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء
لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها والحياء
راضت النخوة من أخلاقنا وارتضى أخلاقنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا إلى ملك ماكدرت ذاك الصفاء
أنت روحانية لاتدعى أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

ومن شعره :

كم ساعة آلمنى مسها وأزعجتنى يدها القاسيه

فتشت فيها ـ جاهداً ـ لم أجد ... هنيهة واحــــدةً صافيه
وكم سقتنى المر أخت لهـا ... فرحت أشكوها إلى الثانيه
فأسلمتنى هـــذه عنوة ... لساعة أخرى ، وفى مابيه
ويحك يامسكين هل تشتـكى ... جارحة الظفر إلى ضاريه
حاذر من الساعات ، ويل لمن ... يأمن تلك الفئة الطاغيه !
وإن تجد من بينها ساعة ... جميتهـا من غصص عاليه
فاله بهـا لهو الحكيم الذى ... لم ينسه حاضرة ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة ... فى قلة من تحتها الهـاويه
فهى وإن بشت وإن داعبت ... محتــالة ، ختــالة عاديه
عناقهـــا خنق ، وتقبيلها ... كما تعض الحية الباغيـه
هذا هو العيش ، فقل للذى ... تجرحه الساعة والثانيه
يا شاكى الساعات أسمع عسى ... تنجيك منها الساعة القاضيه

وقال يتغزل :

أبثــــك ما بى فإن ترحمى ... رحمت أخا لوعة مات حبا(١)
وأشكو النوى ما أمر النوى ... على هائم إن دعا الشوق لبا(٢)
وأخشى عليك هبوب النسـ ... ـيم وإن هو من جانب الروض هبا
وأستغفر الله من برهـــة ... من العمر لم تلقنى فيك صبا(٣)

---

(١) اللوعة : حرقة الحزن والهوى . وأخوها : صاحبها .

(٢) النوى : البعد والفرقة . والهائم : العاشق . ولبى : أجاب . ودعا : دعـــاه .

(٣) البرهة : بضم الباء وفتحها القطعة من الزمن . وهو يريد بها هنا القطعة القصيرة . والصب : العاشق الشديد العشق .

تعالى نجدد زمان الهنــــاء   وننهب لياليه الغر نهبا(١)
تعالى أذق بك طعم السلام   وحسبي وحسبك ما كان حربا(٢)

وقال يتغزل :

يا راحة القلب يا شغل الفؤاد صلى   متيما أنت فى الحالين دنياه(٣)
زيني الندى وسيلى فى جوانبه   لطفا يعم رعايا اللطف رياه(٤)
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة   من الرياحين حيانا بها الله
إن غاب ساق الطلا أو صد ، لا حرج
هــــذا جمــــالك يغنينــــا محيــــاه(٥)

وقال متغزلا :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة   ولا بشافعة فى رد ما كانا(٦)
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا   حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا(٧)

---

(١) الغر : جمع غراء بتشديد الراء : يريد الحسان .

(٢) السلام : ضد الحرب . ويريد بالسلام القرب والتواصل ، وبالحرب البعد والتنافر . وهذا شبيه بقول العباس بن الأحنف :

تعالى نجدد دارس العهد بيننا   كلانا على طول الجفاء ملوم

(٣) المتيم : الذى استذله الحب . وفى الحالين : أى فى حالى الوصل والهجر .

(٤) الندى : بتشديد الياء ، النادى . والريا بفتح الراء وتشديد الياء : الريح الطيبة الزكية .

(٥) الطلا بكسر الطاء : الخمر . والمحيا بضم الميم وتشديد الياء المفتوحة : الوجه .

(٦) أقصر : كف وأقلع .

(٧)سلا : هجر ونسى . يريد بالفؤاد فؤاد التى كانت تبادله الحب . والصبابة بفتح الصاد : العشق .

هلا أخذت لهـــذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا(١)؟

لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا(٢)؟

على أن صبرى على قلة منظومه ، كان شاعراً واسع الاطلاع ، موفور الثقافة ، قوى الخيال ، متعدد الجوانب والآفاق الشعرية . نظم أجمل المقطعات فى الغزل والوصف والاجتماعيات والوطنيات ، وتفوق تفوقا نادراً فى الشعر الصوفى وفى المراثى ، وتجلت موهبته المصرية الأصلية فى أغانيه . . فأما غزله فرقيق ، عذب عذوبة الطبع المصرى ، تمازجه حسرة الفلاسفة ، ويشوبه أسف الحكماء وإحساسهم بفناء كل ما فى الحياة من متع الحب وأحلام الهوى ، فناء مطرداً مروعا ، ومن نمــاذجه قوله :

تزود من الأقــار قبل أفولهــا لظلمة أيام الفراق وطولهــــا

قرب وداع ينفع المرء بعضه إذا رضيت نفس امرىء بقليلها

غدا تفعل الأشجان بالركب فعلها وتجتث هاتيك المنى من أصولها

ويدرى أخو الأشواق سر هلوعه لذكر النوى والخوف قبل نزولها

لقد بوغتت تلك المنى فتصرمت ولم تقض منها النفس أيسر سولها

أأنت رزين أيهــا القلب فى غد كعهدك أم سار وراء حنولها

ولقد يبرح الحب بالشاعر ، وتهتاجه الذكرى ، فيشعر بوحدته ، ويلمس عذاب قلبه ، ويدرك أن ذكريات الماضى لن ترد إليه سعادته ، فينشد صائحاً متحرراً ،

---

(١) الأهبة بضم الهمزة وسكون الهاء : العدة . تقول : اتخذت للأمر أهبته أى هيأت له أسبابه . والأشجان : الهموم والأحزان ، واحدها شجن . يقول : هلا حسبت حساب هذا اليوم يوم القطيعة والهجران ، فأعددت له عدته قبل أن تندفع فى تيار العشق ، فلا ينقلب ما كنت تجده من الشوق هموما وأحزانا بما تعانى من القطيعة .

(٢) اقتحم النار : أى رمى بنفسه فيها وهجم عليها .

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة   ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا   حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وحين يحس دل حبيبه ، وصده وجفاءه وإعراضه ، يعاتبه فى رفق ، هذا العتاب الجميل :

لما تبوأ من فؤادى منزلا   وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحماً من زفرة   أفضت بأسرار الضمير إليه
رفقاً بمنزلك الذى تحتله   يامن يخرب بيته بيديه !

فهذه البساطة فى التعبير تدلنا على أن الشاعر قد عرف الحب حق المعرفة فلم يمثله بخياله بل صوره بقلبه النابض ونفسه المختلجة حرارة وحياة . . وأما الوصف فقد نبغ فيه إسماعيل صبرى نبوغا لايقل عن نبوغه فى الغزل . فعينه الثاقبة شديدة الملاحظة ، لا يغيب عنها شىء . ومن هنا كان شعره الوصفى أقرب ما يكون إلى تمثيل الواقع تمثيلا دقيقاً ؛ لا يطغى عليه الخيال فتضطرب معالمه ، ولا تنوء عليه الاستعارات فتقطع الصلة بينه وبين الحقيقة . بل على النقيض تدنيه منها وتضاعف تأثيره قوة وفتنة ، كما ترى فى هذه الأبيات التى يرسم فيها لمحات البرق والسحاب :

أبرق يتوج هام الربى   وإلا فهاتيك نار القرى
كأن سناه عيون مراض   يحاولن تحقيق شمس الضحى
وإلا فتلك مصابيح قبل ان   طفاء يثرن لصدع الدجى
وإلا فتلك سيوف تميل   بأيدى كماة عراها الونى
وإلا مواطىء خيل على   صخور تطاير منها اللظى
تكاد تطير اشتياقا لها   إذا أشرفت ظامئات الربى
كأن الثرى رام تقبيلها   فمد إليها رؤوس الربى
إذا هى مرت بواد محيل   وجرت عليه ذيول الحيا
كسته مطارف من سندس   وآنست جوانبه ما ظما !

ويتفرد فى الاجتماعيات والوطنيات ، بنظرات حرة ، ونزعات تجديدية ، وعواطف تجيش حماسة ونخوة . فشعره الاجتماعى مثال التركيز والقدرة على حصر

الفكرة الكبيرة في أضيق حيز ممكن ، بحيث تثبت في الذهن وترسخ في قرارة النفس ، كقوله :

يامن تزوج باثنتين ألا اتئد ... ألقيت نفسك ظالما في الهاوية
ما العدل بين الضرتين بممكن ... لوكنت تعدل ما أخذت الثانية

ويمتاز شعره الوطني بفيض إيمانه بواجب إنهاض أمته وإبلاغها بين شعوب العالم المتحضر المكانة الخليقة بماضيها المجيد . وأما شعره الصوفي فيدل على ولع شديد بالتأمل التجريدي ، وعلى رغبة عميقة في التطلع إلى ماوراء الطبيعة واكتناه سر الأشخاص والأشياء ، والاتصال بالقوة الخالقة العليا . والواقع أن الأصل في سمو شاعرية إسماعيل صبري ، وحبه البساطة ، وغرامه بالصدق ، كامن في نزعته الصوفية . . . وأخيراً توفي صبري في ١٦ مارس ١٩٢٣ .

ولى الدين يكن

١٨٧٣ — ١٩٢١ م (١٣٣٩ هـ)

هناك شاعر كان يعاصر صبرى ، وهو ولى الدين يكن ، الذى ولد فى الآستانة عام ١٨٧٣ ، وجاء به أبوه إلى القاهرة فى فجر حياته ، ثم فقد والده وهو دون السادسة ، والتحق بالمدرسة ، حيث تتلمذ على أستاذه الشيخ محمد النشار ، ثم التحق بوظائف النيابة ، مع ميل شديد إلى الأدب والشعر .

وتنقل بين الآستانة والقاهرة ، وأصدر جريدته « الاستقامة » ، ثم نفاه السلطان عبد الحميد إلى « سيواس » ، ولما أعلن الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ عاد من المنفى ، فالتحق بخدمة خديوى مصر . ويكن شاعر مصرى رغم أصله التركى ، فقد نشأ وتعلم وقضى معظم حياته فى القاهرة . وله شعر متنوع فى كثير من أغراض الشعر وفنونه ، نظمه فى السياسة والاجتماع والوصف والمدح والرثاء ، والحكمة والمثل والشكوى والحنين ، وله ديوان مطبوع ... يقول لعبد الحميد متهكما ساخرا :

تجود بالعفو لكن لست تضمره ... كما يجود مريض الموت بالمال
ماذا يؤمل من آتيك ذو أمل ... وأنت ماضيك لا يلتام بالحال

وقال يعارض قصيدة شوقى التى قالها فى وداع عبد الحميد عند ما خلع عام ١٩٠٩ ، والتى جاء فى مطلعها :

سل يلدزا ذات القصور ... هل جاءها نبأ البدور

يقول الشاعر فى ثورة وطنية عميقة ، يخاطب شوقى :

هاجتك عالية القصور ... وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى ... ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزيـ ... ـر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثيـ ... ـر وناهب المال الكثير
إن كان أخلى يلدزا ... فخلى الخورنق والسدير
أو فاستترت من سما ... ها أنجم بعد الظهور

فلتأهلن من بعــدها آلاف أطلال ودور
بعض النجـــوم ثوابت والبعض دائمـــة المسـير

ويدافع عن الزهاوى الشاعر حينما أسر ، فيقول :

أسير بدار الظلم أعياه آسره أمامن فتى فى الناس حر يناصره
أفى النـاس أحرار وفيهم أحبة فما لأخيهم لايرى من يؤازره ؟
عفاء على الزوراء بعد (جميلها) إذا ربعه المعمور أخلق داثره
ألم به خطب من الجـور فادح كما انقض باز أقتم الريش كاسره
أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغـــيره بالذم فى الناس غابره ؟
يقوم رجال يستعيدون عهـده وفينا نيـازى قائم وصـاكره

وقال من قصيدة عنوانها « ويل للناس من الناس :

يريد الناس الدنيا هنـــاء ويأبى أن يجـود به الزمان
حياة حاربتهم منـــذ كانت وحظ حاربوه منـــذ كانوا
وآمال تغرهم عجـاف وأحداث تـكذبها سمان(١)
وكم من مستنيل ليس يعطى وكم من مستعين لا يعـان(٢)
تـكاثرت الهموم فلا يراع توفيها الشـكاة ولا لسـان(٣)
أماناً أيهـا الخصم المعـادى إذا دان العـدا وجب الأمان
ألا إن رغبوا إليك رغبت عنهم لقد هانت رغائبهم وهانوا
يمنى الناس بعضهم بخــير ألا كذبوا على بعض وماتوا(٤)
وداع جاء يدعونى لنصـــح وقد وهن النهى ووهى البنان(٥)

---

(١) عجاف : جمع عجفاء أى هزيلة ضامرة . وسمان : جمع سمينة .
(٢) مستنيل : طالب نوالا أى عطاء . مستعين : طالب عونا .
(٣) اليراع : الأقلام ، والمفرد يراعة .
(٤) ماتوا : من المين بسكون وهو الـكذب .
(٥) وهن : ضعف . النهى : العقول جمع نهية بضم النون وسكون الهاء . وهى : الضعف . البنان : أطراف الأصابع ، جمع بنانة .

تعبت من الكلام فليس يجدى ـ كما أملت ـ نظم أو بيان
وكانت صبوة ونزعت عنها فهأنا لا أدين ولا أدان(١)
وما أسفى على عهد تقضى ولكن صنت عهداً لا يصان
ظللت أميته دهراً طويلا وكنت أظن أنى لا أعان
ودار لا يزول القتل عنها كأن الحرب فيها مهرجان
أهاب بها اليراع فلم تجبه وناداها فجاوبت السنان(٢)
تظل بها السواعد عاملات يصرفها ضراب أو طعان
بكت عينى الشباب وحين جفت مدامعها غداً يبكى الجنان(٣)
لعمرك ما لذى نصح مكان ولا للنصح فى الدنيا مكان
فدعنى إن آمالى استكفت فلى شان وللآمال شان(٤)

وعارض الحصرى فى قصيدته «ياليل الصب متى غده» بقصيدته :

الحسن مكانك معبده واللحظ فؤادى مغمده(٥)
ياسيدتى هذا حر لم يعرف قبلك سيده
الليل وطيفك يعرفه إن كان فؤادك يجحده
كم يوحى طرفك لى غزلا وأنا فى شعرى أنشده
وتساجلنى الأطيار هوى فى الدوح أبيت أردده(٦)
للصبح سناؤك أبيضه لليل غرامى أسوده

---

(١) صبوة : من صبا بمعنى مال وأحب .
(٢) السنان : نصل الرمح .
(٣) الجنان بفتح الجيم : القلب .
(٤) استكفت : انقطعت وانتهت .
(٥) مغمده : مكان غمده شبه اللحظ بالسيف ، والفؤاد بالغمد الذى يحتويه .
(٦) تساجله : تباريه . والدوح : الشجر . واحدته دوحة بسكون الواو .

احببت قـــلاك فطلقـه ... عندى عـذب ومقيـده(١)
إن ضل حنانك عن قلبي ... فأنا بولوعى أرشـــده
قد بات دلالك يخذله ... وجمالك كان يؤيده
زيدى تيها أزدد كلفا ... كلفى إن رث أجدده(٢)
(شوق) إن بنت يضاعفه ... (صبرى) إن جرت يؤكده(٣)
خلان هما شمسا فلك ... طرفى مع طرفك يرصده(٤)
فصـــلى بالله ولو حلما ... (مضنـــاك جفاه مرقده)
وعديه اليوم ولو كذبا ... الصب يماطله غـــده(٥)

وقد توفى ولى الدين يكن فى ليلة الأحد ٦ مارس ١٩٢١ بمدينة حلوان ، وهو فى التاسعة والأربعين . وكان مولده كما سبق فى الآستانة التى وصفها فى شعره ومؤلفاته ، ولا سيما كتابه « المعلوم والمجهول » . وهو ابن حسن سرى باشا يكن ، وحفيد إبراهيم باشا يكن ابن أخت محمـــد على ، ولقب أسرته يكن معناه بالتركية « ابن الأخت » .

وكانت أم ولى الدين يكن بنت أحـد أمراء الجراكسة . وقد جاء ولى الدين مصر مع والده ، وكان لايزال فى أول العمر ، وتوفى والده وهو فى السادسة من عمره ، وتلقى تعليمه فى مصر ، وتدرج فى وظائف الدولة ، وتنقل بين مصر

---

(١) قلاك : هجرك .

(٢) كلفا : ولوعا وشوقا . يقول : كلما زدت تيها ودلالا ازداد بك هياما وحبا . رث : تقادم وبلى .

(٣) شوق : من الشوق ، وهو المعنى الظاهر من السياق : والمراد الحقيقى بلفظه المرحوم (شوقى بك) أمير الشعراء فى العصر الحديث . بنت : بعدت . صبرى : من الصبر ، وهو المعنى الظاهر . والمراد بلفظه المرحوم (إسماعيل باشا صبرى) الشاعر المعروف . جرت : ظلمت ، والجور هنا يراد به الهجر وادعاء النسيان .

(٤) يقول إن (شـوقى) و (صبرى) الشاعرين صـديقان هما كشمسى فلك يرصدهما طرفى وطرفك . إيماء إلى سطوع شهرتهما فى الشعر وتعلقه بهما .

(٥) يماطله : يسوفه ويباعده .

والآستانة ، وعين بعد ذلك عضوا في مجلس المعارف الأعلى بالآستانة ثم نفاه السلطان عبد الحميد إلى « سيواس » كما سبق ، لأنه كان يندد في كتاباته باستبداده ، وظل في النفي سبع سنوات ، وفي كتابيه « المعلوم والمجهول » تاريخ منفاه ، ولما أعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨ عاد إلى الآستانة ومنها إلى مصر .

وقد طبع ديوانه عام ١٩٢٤ ، وصدر عن دار المقتطف بمصر في ١٢٧ صفحة ، وقدمه أنطون الجميل بدراسة عن ولي الدين وشاعريته ، وصدره يوسف حمدي يكن جامع الديوان بكلمة وجيزة .

حفنى ناصف

١٨٥٦ — ١٢٧٢ هـ : ٢٥ فبراير ١٩١٩ — ١٣٣٧ هـ

توفى الشاعر حفنى ناصف عن ثلاثة وســتين عاما ، وذلك فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩١٩ ، حيث قضى حياته مجاهدا فى سبيل الوطن والأدب والعربية والتعليم والقضاء .

ولد بعد وفاة والده بثلاثة أشهر فى « بركة الحج » ، وقدم إلى الأزهر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، حيث درس فيه تسع سنين ، ثم التحق بدار العلوم واشتغل بالتدريس ثم بالقضاء ، ثم عين كبيرا لمفتشى اللغة العربية خلفا للمرحوم حمزة فتح الله ، وألف فى اللغة والأدب والنحو والصرف والعروض والدين ، وعمل فى فى الصحافة فى المؤيد والأهرام ، وله خطب فى الثورة العرابية . وقد امتاز نثره ، بالجمع بين الجزالة والسهولة الممتنعة . وابنته « باحثة البادية » لها مقام مشهور فى الأدب والشعر ، ومات من الحزن عليها بعد وفاتها بقليل .

كان شعره صافى الديباجة والطبع ، ناصع الأسلوب ، بارع الأداء ، ومعانيه مصبوغة بصبغة الفلسفة العميقة السهلة التناول . وكان حفنى ناصف حريصا على التجديد فى الشعر ، ومع ذلك كان يأخذ من محاسن القديم ماشاء له ذوقه المطبوع أن يأخذ . . وصف الحرب العالمية الأولى ، فقال :

مدافع تستك المسامع دونها ... وتخرج من أفواههن جهنم
إذا فغرت أفواهها لكريهة ... تدك الرواسى ، والحصون تحطم
وسفن تبارى فى المسير أراقا ... إذا زال منها أرقم صال أرقم
إذا انساب منها بضعة نحو معقل ... فلا شىء مما ينفث الموت يعصم
وغواصة كالحوت تسبح خفية ... تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لايبلغ النسر شأوها ... تدل على جيش العدو ، وترجم
فتنقض منها كالصواعق تارة ... كرات . وأحيانا تسدد أسهم
وأنبوبة تنساب منها سوائل ... ترد هواء الجو يعمى ويبكم

متى فارقت أنيوبها صرن صرصراً ⠀⠀⠀ إذا اشتم منها القوم فالقوم جثم

وكان حفنى ناصف عظيم الحظ من فقه العربية ، ومطالعة دقائقها ، ومعرفة نكاتها وفرائدها ، وواسع العلم بفنونها وقواعدها ، إلى مشاركة محمودة فى سائر العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر ودار العلوم فى ذلك الحين .

وكان إلى هذا حاد الذكاء ، حاضر البديهة ، خفيف الروح ، بارع النكتة ، جم التواضع . وكان شعره رصينا سهلا ، ونثره محكما جزلا . إذا تعمد السجع فيه أحكم فواصله ، وأصاب منه كلامه ومفاصله ، وإذا أرسل القول جاء بالسلس العذب من الكلام . وشعره ونثره كلاهما لا يكادان يخلوان من نكتة بارعة ، أو إشارة إلى نادرة رائعة . يجىء بهذا فى غير تكلف ولا استكراه ، حتى لكأنك ، إذ تقرؤه ، فى حديث تديم لبق نضاح الذهن ، يفاكهك بالرائع مما تبعث إليـه مناسبات الكلام ، ويعد فى صدر من بعثوا نهضة العربية ، فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، وفى أوائل من عملوا على رد بيانها القديم بما علم وما ألف وما حاضر ، وما نظم ونثر ، وما اجتمعت الخاصة فى هذه البلاد لحدث يتعلق باللغة والأدب إلا شارك فى الأمر بأوفى نصيب .

وقال يخاطب ناظر الحقانية وقد نقله إلى قنا :

رقيتنى حسـا ومعنى ⠀⠀⠀ فلصنعك الشكر المثنى
وجعلت رأس الحاسد ⠀⠀⠀ ين يمصر من قدمى أدنى
وجعلت سدة منزلى ⠀⠀⠀ من أسقف الهرمين أسنى(١)
أسكنتنى فى بقعـة ⠀⠀⠀ فيها غدوت أعز شأنا
أرد المشـارع سابقا ⠀⠀⠀ والسبق عند الورد أهنا(٢)
وأزور آثار المـلو ⠀⠀⠀ ك ، وكنت قبل بها معنى(٣)

---

(١) سدة المنزل (بتشديد الدال) : عتبة بابه .

(٢) أراد المشارع : آتيها للارتواء . والمشارع : جمع مشرع وهو المنهل يرده الظماء .

(٣) معنى : كلفا : (بكسر اللام) مشتاقا .

بـــلد إذا حلت به قدماك قلت حللت حصنا

جبـل المقطم حوله متعطف كالنون حسنا(١)

هيهات أن يصل العدو له ، ويدرك ما تمنى

قالوا : شخصت إلى قنا يا مرحبا «بقنا» و «إسنا»

قالوا : سكنت الصفح قل ت : وهل يرد الحر قنا(٢)؟

سر الحياة حـــرارة لولاه ماطـــير تغنى

كلا ! ولا زهر تبسـ م ، لا ولا غصن تثنى !

تتدفق الأنهـــار من حر ، وتزجى الريح مزنا(٣)

ها قد أمنت البرد والـ ـبرداء ، والقلب اطمأنا(٤)

ووقيت أمراض الرطو به ، واسترق الريح وهنا(٥)

ألق الهواء فـــلا أها ب لقاءه : ظهرا وبطنا

وأنام غــــير مـــدثر شيئا إذا ما الليل جنا

قـــد خفت النفقات إذ لا أشترى صوفا وقطنا

وفرت من ثمن الوقـــو د النصف أو نصفا وثمنا

فالشمس تكفل راحتى ، فكأنها أمى وأختى

فـإذا بدت لى حاجـــة فى الغسل ألق الماء سخنا

أو رمت طبخا أو علا ج الخبز ألق الجو فرنا

سكنى القرى تدع السفيـ ـه موكلا بالمال معنى

---

(١) متعطف : منحن كالقوس .

(٢) القن : العبد الرقيق : وفاعل يرد يعود على (حر) بفتح الحاء . يقول: وهل يصير حرقنا الرجل عبدا رقيقا .

(٣) المزن : المطر . واحدته مزنة بضم الميم وسكون الزاى .

(٤) البرداء : الثقلاء ، جمع بارد وهو الإنسان المتبلد الإحساس .

(٥) استرق الريح : سرى رقيقا ناعما . الوهن : بسكون الهاء الضعف .

أى الملاهى فيه يعـ سرف ماله ومتى وأنى ؟
كل امرىء تلقاه من بعد الظهيرة مستكنا(١)
ويرى الغريب السحر أيـ ـسر حالة ، وأخف غبنا
يجد الحليب بعينـه لبنا ، ويلق السمن سمنا
عش فى القرى رأسا ، ولا تسكن مع الأذناب مدنا
ودع الجـزيرة والمها والجسر والظبى الأغنا(٢)
واسل الأغانى والغـوا نى ، واسأل الرحمن عدنا(٣)!

وقال عندما أعلن بالإحالة إلى المعاش قبل انتهاء مدة خدمته بعشرين يوما :

برزت فى مصر البيا ن وشاب فيه مفرق
وقضيت عمرى فى البلا غـة سابقا لم ألحق
وخدمت ديوان المعا رف مخلصا بتشوق
والآن أذن بالرحيـ ـل مؤذن لم يشفق
عشرون يوما قـد بقين وبعدها لا نلتقى
فتبـلغى يا نفس بالمفروض للسترزق
فات الكثير من الحيا ة وقل منها ما بقى

وقال قطعة لتكتب على باب دار أحمد باشا تيمور فى « دعوة » :

زوروا الذى بجميلكم قبل الزيارة يعترف
واسعوا لأحـد إنه عن شكركم لاينصرف

---

(١) مستكنا : مختبئا .

(٢) الظبى الأغن : الذى فى صوته غنة بضم الغين وتشديد النون المفتوحة .

(٣) اسل : فعل أمر من سلا بمعنى ترك ونسى . الغوانى : جمع غانية وهى الحسناء التى غنيت بجمالها عن غيره . وعدن بسكون الدال : جنة عدن .

وقال تاريخا يكتب على قبر عريان بك :

لقد هوى فى أفق هذا المكان   بدر العلا عريان فخر الزمان
ومـــذ أتى الجنات أرخته   عريان أضحى فى شباب الجنان

أى سنة ١٨٨٨ م

وهو من أعلام الطبقة التى نشأت بعد طبقة البارودى وعبد الله باشا فكرى وكل من نبغ بعد ممن انتهت إليهم الرياسة فى الشعر فعليه تعلم ، أوله قلد ، وأكثر شعره من نوع السهل الممتنع الكثير الملح المطربة ، والنكت الأدبية المعجبة ، حتى فى المراثى : لتمثلها فى صورة جدية بديعة .

وحفنى ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة البديعية المسجوعة الكثيرة التورية (التى سميناها طريقة القاضى الفاضل) إلى طريقة الترسل الحالية ، ويشاركه فى ذلك الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وإبراهيم بك المويلحى ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد . وله فى كلتا الطريقتين رسائل بليغة .

ومن شعره يخاطب أحد الرؤساء :

أحييت آمالى وكنت أمتها   من طول ما لاقيت من إخوانى
أدلى بإخلاصى لهم وأذود عن   أعراضهم بجوارحى ولسانى
محضتهم ودى فلما أيسروا   كانت بداية أمرهم نسيانى

وقال أيضا :

أتقضى معى ، إن حان حينى ، تجاربى   وما نلتها إلا بطول عناقى
ويحزننى أن لا أرى لى حيلة   لإعطائها من يستحق عطاقى
إذا ورث المثرون أبناءهم غنى   وجاها ، فما أشقى بنى الحكماء !

والمرحوم حفنى ناصف كتب فى النحو والبلاغة ، وله كتاب مميزات اللغة ، وكتاب حياة اللغة العربية ، ودروس الأدب بالجامعة المصرية . وكتاب القطار السريع فى علم البديع ، ورسالة فى البحث والمناظرة ، ورسالة فى المنطق ، ورسالة فى الأصول ، ورسالة فى العروض والقوافى ، وكتاب الأمثال العامية ، وكتاب بديع اللغة العامية ، وكتاب عامية الشام ، وكتاب عامية الصعيد ، ورحلته إلى

الأستانة ، وديوان شعره ، وديوان رسائله ، وكتابه الذى ألفه فى رسم المصحف وضبطه . . وأكثر كتبه غير مطبوع .

ولم تكن النكتة تفارقه حتى فى مواقف الاستعطاف والرثاء ، فنى حفل خيرى نراه يقول :

واحسرتاه ألا يولى الجميل سوى　　أمثال «روتشلد» أو أشباه «قارونا»
أعط القليل فما فى البر من حرج　　على امرىء ، وقليل منك يكفينا

ويقول من قصيدة أنشدها فى حفلة لإعانة الطلبة الأغراب فى الأزهر :

قالت إلى أذنى بفيها ، تقول لى :　　تجنب قرى الأضياف بالكرم الشمرى

وفى رثائه للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، يقول مشيراً إلى رحلتهما معاً إلى فينا واستوكهلم لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين ، وكان الشيخ قد حرص هناك على زيه الشرقى :

كم فى «فينا» وفى «استكهلم» صوره　　مصور القوم عن بعد وعن كثب
وكم أحاط بنا خلق تسائلنا　　من كل منجذب فى إثر منجذب :
مليك أى بلاد ذاك ؟ قلت لهم :　　هذا الإمام مليك العلم والأدب!

وقال يرد على من أخذوا عليه إقلاله من نظم الشعر :

شعر — على قلته — جيد　　والشعر لا يعتاز بالطول
والدر بالقيراط مقياسه　　والأرض بالفرسخ والميل !

ولاحظ حفنى ناصف أن الأربعة الذين سبقوه هو وحافظ فى رثاء الإمام محمد عبده ، قد ماتوا واحداً بعد واحد بترتيب وقوفهم موقف الرثاء ، فكتب إلى حافظ يقول :

أتذكر إذ كنا على القبر ستة　　نعدد آثار الإمام ونندب ؟
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا　　ممات على وفق الرثاء مرتب
وأبو خطوة» ولى ، وقفاه «عاصم»　　وجاء لـه «عبدالرازق» الموت يطلب
فلبى ، وغابت بعده شمس «قاسم»　　وعما قريب نجم محياى يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت وإن أمت　　فما أنت إلا خائف تترقب

خاطر ، وقع تحت الترام ولا تخف ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل ، آمنا فان المنايا منك تجرى وتهرب

فلما عين حفنى ناصف عميدا لمفتشى اللغة العربية ، وأقيمت حفلة لتكريمه،
أشار حافظ إلى هذا المعنى فقال :

أخشى عليك من المنايا حتى كأنك منى
إذا شكوت صداعا أطلت تسهيد جفنى
وإن عراك هزال هيأت لحدى وقطنى
وإن دعوت لحى يوما ، فإياك أعنى
عمرى بعمرك رهن فعش أعش ألف قرن

أمير الشعراء احمد شوقى

١٨٦٨ — ١٩٣٢ م (١٢٨٥ — ١٣٥١ ﻫ)

تمهيـــد :

كان شوقى شاعر مصر والعروبة والإسلام ، وشاعر القومية العالية التى ضرب على أوتارها ، فهزت الشرق العربى وأيقظته من سبات ، وإذا كان رواد النهضة الأدبية فى القرن التاسع عشر : كأمين الجندى وبطرس كرامة وناصيف اليازجى ، وعبد الغفار الأخرس ونجيب الحداد وإبراهيم الأحدب ، وعلى الليثى ومحمود سامى البارودى وخليل الخورى اللبنانى وسواهم ، قد رفعوا الأدب العربى عما كان عليه فى عصر الانحطاط ، فنزعوا عن الشعر أطماره البالية ، وألبسوه حللا قشيبة من البيان والمعانى ، فإن شوقياً وأضرابه قد نهضوا به نهضة فعالة ، وجعلوا من الشعر العربى فنا جديراً بخطره وتاريخه العريق ، كان شـــوقى صناجة مصر والعروبة والإسلام فى العصر الحديث ، عقل كبير تفيض منه الحكمة ، وقلب كبير يشع منه الحب ، وخيال لطيف خصب يصور آلام العرب ، وآمالهم ، وماضيهم ، وحاضرهم أبدع تصـوير . وكان شوقى أنضج شعراء طبقته ، وأدقهم تعبيراً ، وأبدعهم بيـانا .

حياته :

هو أحمد شوقى بك بن على شوقى . ولد بالقاهرة ونشأ فيها . وقد حدث عن نفسه فى مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (الشوقيات) قال : « سمعت أبى يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ، ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على . . . فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام . وهو يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب فى المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية » . ثم ذكر طرفا من سيرة جده لوالدته إلى أن قال عن نفسه : « أنا إذن عربى ، تركى ، يونانى . جركسى » .

وقد كفلته من المهد جدته لأمه ، وكانت فى يسر ونعمة ، على حين أتلف أبوه ما ورثه . وكانت جدته من وصائف قصر الإمارة فى عهد إسماعيل . قال : حدثتنى (يريد جدته) أنها دخلت بى على الخديو إسماعيل ، وأنا فى الثالثة من عمرى ، وكان بصرى لا ينزل عن السماء لاختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فوقعت عينه على الذهب فاشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدتى : اصنعى به مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى . قال : جيئى به متى شئت .

فلما بلغ الرابعة أدخل فى مكتب الشيخ صالح ، وكانت نشأته فى خط الحنفى ، وقد جاز بعد ذلك متفوقا بارعا مرحلتى التعليمين الابتدائى والثانوى بالناصرية ، والتجهيزية الخديوية . فلما تقدم إلى مدرسة الحقوق اعتل ناظرها عليه لصغر سنه ، على أنه دخلها ودرس بها عامين ، وكان قد أنشىء فيها قسم للترجمة ، فعدل إليه ولبث فيه سنتين أخريين ، وأحرز الإجازة النهائية . وألحقه الخديو توفيق بمعيته ، ثم أشخصه على نفقته إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، على أن يقضى عامين فى مدينة « مونبليه » وعامين فى باريس . حتى إذا أحرز الشهادة النهائية رأى توفيق أن يظل فى فرنسا ستة أشهر أخرى ففعل ، وعاد بعدها إلى مصر وتولى منصبه فى معية الأمير . وفى سنة ١٨٩٦ م ناب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف من أعمال سويسرا .

وما برح شوقى يتدرج فى المناصب حتى تولى رياسة القلم الإفرنجى فى المعية الخديوية . ولما نشبت الحرب الكبرى أزيل عن منصبه ، ثم رؤى له أن يغادر البلاد ، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مثوى له ولأسرته . ولم يؤذن له فى العودة إلى مصر إلا بعد أن استقر السلام ، وانتهت الحرب العالمية ، وكان أكبر منصب سما اليه شوقى فى معية الخديو هو رياسة القلم الإفرنجى ، على أن نفوذه وسلطانه تجاوزا شأن هذا المنصب إلى حد بعيد ، فلقد نال من الحظوة عند ولى الأمر ما لم ينله من قبل أحد ، فكانت داره (كرمة بن هانىء) مثابة طلاب الحاجات ، ومورد المستشفعين من كل ناحية ، صغار الناس وكبارهم فى هذا بمنزلة سواء ، فلقد كانت إشارته حكما ، وطاعته عند أكثر الحكام غنما .

ولقد كانت مصر إلى ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية ، فكان شوقي كثير الاختلاف إلى الآستانة ، فلا يكاد يدخل الصيف من العام إلا وهو على جناح السفر إليها ، فلا يلقى من أولياء الأمر هناك إلا الإجلال والإكرام . ولقد انتهى إلى الخليفة في إحدى السنين خبر مقدمه ، فأمر بأن يقيم ما أقام هناك ضيفا على مقام الخلافة . وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصنف الثاني ، وهو يتقدم بها على بعض من يحملون لقب الباشوية . كما أنعم عليه بكبار الأوسمة من الدولة العلية ، ومن ألمانيا (قبل الحرب) ، ومن الدولة السورية .

وكان ذا شغف بالسياحة في الغرب وفي بلاد الشرق القريب ، ولكنه في آخر عمره قصر سياحته على البلاد السورية واللبنانية ، فكان يلقى من أعيانها وأدبائها أبلغ العطف وأعظم الإكرام .

وفي سنة ١٩٢٧ عقد في مصر مؤتمر لتكريمه اشترك فيه كثير من رجالات مصر وعلمائها وأدبائها ، وحضر إليه عدد غير قليل من أدباء الأقطار العربية ، وبويع بإمارة الشعر وسلم لواءه ، وعاش ما عاش مبجلا عالي الاسم رفيع المنزلة ، إلى أن قبض إلى رحمة الله تعالى ، فأقامت له وزارة المعارف بالاشـــتراك مع طائفة من أهل الفضـــل والأدب حفلة تأبين دعت إليها كبار العلماء والأدباء في الأقطار العربية ، وقد أقيمت هذه الحفلة في دار الأوبرا في شهر ديسمبر من السنة التي قبض فيها .

وهكذا تقلب شوقي من أول نشأته في النعمة ، وأصاب ما شاء من متع الحياة ، ولو قدر لخلق من الناس أن يدركوا كل مناهم ، وأن يبلغوا في الحياة مدى آمالهم ، لكان شوقي أحد هؤلاء .

وإذ قد عرفت هذا فلا يتعاظمنك ما ترى من شيوع الترف في شعره ، فلا تقع من تشبيهاته ، إلا على كل فاخر ثمين .

وكان شوقي ذكيا وافر الذكاء ، حييا جم الحياء ، لا يتبسط في الحديث إلا إذا خلا له وجه صـــديق أو صديقين ، ولعل بعض ما حمله على هذا أن طلاقة لسانه لا تكافىء فصاحة قلمه ، ولا تواتي مطالب عقله . يكره الدخول في زحمة الناس ، وينفر من شهود الحفل الجامع ، إلا أن ينقبض في ركن من ملهى أو ملعب ، وادع النفس ، هادىء السمت . لا تراه يعنف ، وقل أن يستفزه الغضب .

وكان عطوفا شديد العطف ، رحيما كثير الرحمة . ينفر من ذكر المآسى ويفر من رؤيتها ، على أنه مع هذا قد راض نفسه على الصبر على المكروه ، ودربها على الرضا بالقضاء واقعا حيث وقع ، ولعل أوجع ماشكى فيه قوله :

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس ؟

وقد قاله وهو منفى من وطنه ، وهو الذى يقول فى هذا الوطن من القصيدة نفسها :

وطنى ، لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

وكان فى شباب السن مستهترا بلذائذ الدنيا ، مسرفا فى الإصابة مما يطيب له منها ، ويقول :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل فى الله يجعلنى فى خير معتصم

وهو بعد هذا شاعر بأجمع معانى الكلمة ، يكلف بفنه إلى حد الافتتان ، بل إنه لا يكاد يرى الرجل كل الرجل يتمثل إلا فى الشاعر . ولا يرى للحياة فى جميع صورها غاية إلا قرض الشعر . ويعبر عن اعتزازه بالشعر وبشاعريته قوله :

جاذبتنى ثوبى العصى وقالت : أنتم الناس أيها الشعراء !

ولقد كان إلى هذا شديد التمكن من نفسه حتى لا يرى فى الدنيا شاعرا يباريه ، أو يتعلق بغباره .

شاعريته :

لم يطاول شوقى فى قرض الشعر ولم يجهد فيه ، بل لقد جاء به فتى ، وأطلقته قريحته الفضة عالى المعنى ، فخم اللفظ ، متلاحم النسج ، ومدح الخديو توفيقا وهو لما يزل طالبا حدثا ، ونشرت مدائحه يومئذ فى (الوقائع المصرية) . فدل هذا على أن فيه طبيعة ، وأنه أوتى الموهبة .. ثم كشف الزمن عن أن تلك الموهبة من الضرب الرفيع الغالى ، الذى يضن بنفسه على الأجيال ، والمواهب الفنية لا تعلل :

وقد يكون للعنصر والدم دخل فى توجيه شاعرية الشاعر ، وتكوين عقليته . وكذلك البيئة والثقافات التى حصلها ، وسمو منزلة الأدب ورفعة مكانة الأدباء فى عصره ، وتلمذته على أئمة الأدباء وعلى شعر البارودى .

وكان أعلام الشعراء قبله هم : عبد الله فكرى ، ومحمود سامى البارودى وإسماعيل صبرى . فدلته الموهبة عليهم ، وعدل من فوره إلى احتذائهم ، وانتهاج طريقهم فى تجويد الشعر ، باصطفاء اللفظ ، وإحكام الصياغة ، والاحتفال للمعانى، وعدم استهلاكها فى سبيل البديع ، صنع أكثر من يقوم فى العصر من الشعراء .

وكان فى صدر شبابه كلما قرض قصيدة أو نظم مقطوعة من الشعر ، عرضها على إسماعيل صبرى ، وهو شاعر قد بلغ الغاية من دقة الذهن ، وكمال الذوق ، ورهافة الحس ، فلايزال يعالج معه ماعسى أن يقع من قلق فى اللفظ ، أو انحراف فى المعنى ، أو نشوز على مواقع الجمال . وتلك سنة كثير من الشعراء من قديم الزمان.

وشوق ، فوق هذا ، شديد الاكباب على قراءة الكتب عامة ، وكتب الأدب والشعر خاصة . ومن أعظم من عنى بقراءة دواوينهم ، واستظهار أشعارهم ، وانتهاج طرائقهم ، ومباراتهم فى منازعهم : أبو نواس ، وأبو تمام ، والبحترى ، والمتنبي . وقد ظهر أثرهم على شعره ، فكان أثر كل منهم فيه بينا . وإنك لتلمح فيه حلاوة أبى نواس ودقة وصفه ، وتصرفه فى فنون الغزل ، وإشادته بمجالس اللهو ، وافتنانه فى الخريات . كما تلمح فيه احتفال أبى تمام للمعانى الرفيعة والارتصاد لاصابتها مهما جشمه ذلك من إعنات اللفظ وجاجلة الصياغة . وتلمح فيه هلهلة البحترى ، وإحكام نسجه ، وبراعة نظمه . أما أثر المتنبي فى شعره فقيما ترى من شيوع الحكمة والاكثار من ضرب المثل .

ومن الأسباب التى أثرت فى شوق وشاعريته حذقه اللغة الفرنسية ، وسعة اطلاعه فيها على أدب الغرب .

وكذلك من العوامل التى لها أثر واضح فى شاعرية شوق نشأته فى بيت الملك ، ومقامه فى بطانة الأمراء ، ودخوله فى أدق الأسباب السياسية فى مصر .

وسياحاته الكثيرة فى بلاد الغرب ، وفى بلاد الشرق القريب ، ومخالطته لأصناف الخلق ، ووقوفه على طباعهم وأخلاقهم ومأثور عاداتهم ، وما تجلى من صور الطبيعة فى بلادهم ، وغير ذلك مما لايتهيأ لكثير من الشعراء . كل هذا كان له أثر فى شعره وشاعريته . وشوق يعد، بحق ، من أقطاب الشعراء فى العالم العربى كله ، بل

إن بعض النقاد ليتخطى به القرون فيصله بأعلام الشعراء في أزكى عصور العربية وأنضرها بيانا ، ولقد تصرف شوقي في كل فن ، وجال في كل غرض ، وأصاب من كل مطلب ، فبذ وبرع ، وعارض متقدمي الشعراء ومتأخريهم فما قصر ولا تخلف . ولقد ظل أمداً يرسل غالي الشعر ، ما وقع في البلد من حدث إلا جلجل بالقريض ، ولا كانت الجلى في بلد من بلاد العالم إلا نظم ما تنهر دونه أنفاس الشعراء .

وله مقطوعات شعرية يلحنها ويغنيها « الفنانون » وديوان شوقي رحمه الله يقع في أربعة أجزاء ، وله غير الشعر كتاب (عظماء الإسلام) ، وكشكول جامع لقصائد لم تنشر ، وقصائد سهلة للأطفال والأغاني ، وربما استغرق هذا الكشكول ثلاثة أجزاء . وله في النثر كذلك : كتاب (أسواق الذهب) جارى فيه الزمخشري رحمه الله في كتابه (أطواق الذهب) وله روايات شعرية وهي : علي بك الكبير ، وكليوبترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة . وله روايات أخرى نثرية منها : لادياس ، وورقة الآس ومذكرات بنتاؤر ، وأميرة الأندلس . ومن هذا نعرف مبلغ إنتاج الرجل وسخاء ذهنه ، من يوم نجم إلى أن أدركته الوفاة .

ومن شعره الذي لو تقدم به الزمان لكان حقيقاً بأن يتغنى به أمثال ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق قوله من قصيدة (لبنان) :

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل	فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضبانا وأعرض نافرا	حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابي إلى أترابه	وزعمتهن لبانتي فأغرته
فمشى إلي وليس أول جؤذر	وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادني	وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به على حرم الهدى	لابن البتول وللصلاة وهبته

ولما بويع بامارة الشعر تجلت عبقريته وبدت بدعه وروائعه فيما نظم من القصائد ومن الروايات ، التي ردت على الشعر العربي نضارة تزول السنون ولا تزول . وما زال شوقي يطالع الأمة العربية والعالم الإسلامي أكثر من أربعين عاما بروائع شعره . حتى اختاره الله لجواره في ١٣ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هـ — ١٣ أكتوبر

سنة ١٩٣٢ م ، فترك مكانا شاغرا (١)، وقد انثالت الوفود من الأقطار العربية . على مصر لتأبينه . فكان يوما مشهوداً .

وهكذا كان شوقى شاعرا عبقريا موهوبا منذ خلق . وقد شهد حلبة الشعر الحديثة ، ودولة الأدب الجديدة ، التى كان مسعر نارها ومذكى أوارها : عبد الله فكرى والبارودى وصبرى ومن إليهم . فكان له فيهم خير إمام يؤتسى ، وقد مر بك أن هذه الحلبة ردت على الشعر بهجته . ونفخت فيه حياة فتية ، وقد نبت شوقى فى رياض العلم المزدهرة بمظاهر المدنية الحديثة ، والمطبوعات التى بعثت الآداب العربية القديمة . ولقد امتزج شعر الأولين بنفس شوقى ، حتى ظهر فى إيثاره لقوالب الفحول منهم ، يتوخى التراكيب الجزلة والألفاظ الفحلة . وقد تعلم اللغة الأوربية ، ودرس حظا من ثقافتها فدرت على شعره بكثير من الأخيلة البديعة . ووجهته إلى النظم القصصى الذى بدت فيه عبقريته ونبوغه .

ولقد فطره الله ميالا إلى الشعر ، ولعل من أسرار ذلك كما قدمنا : انحداره من أصول أربعة : العرب ، والترك ، واليونان ، والجركس ، فورث الشاعرية عن العرب واليونان وهما أمتا شعر وشعور ، ثم إنه غذى هذا الاستعداد بالثقافة المتنوعة

---

(١) فى منتصف الساعة السابعة من هذا اليوم ، ركب الفقيد سيارته وطاف ببعض الشوارع فى مصر الجديدة ، ثم قصد إلى دار اسماعيل شيرين فلم يجده . فاستقل سيارته إلى مطعم سلستينو حيث تناول طعام العشاء ، ثم زار دار «الجهاد» ومكث هناك إلى نحو الساعة الحادية عشرة . وكانت مظاهر الصحة بادية عليه ، حيث تناول طعام غدائه بشهية ، وقال لأحمد عبد الوهاب وكيل أعماله : إنه يشعر اليوم بسرور ، ثم انصرف الفقيد إلى داره ، وعند الساعة الثانية عشرة كان مستغرقا فى النوم ، وفى منتصف الساعة الثالثة استيقظ ودق الجرس فلباه خادمه ، فطلب منه أن يعد له ماء ساخنا وبعضا من ورق الكافور وشكا تعبا فى صدره ، ثم كلفه استدعاء طبيبين سماهما وأن يوقظ السيدة قرينته وأنجاله وقال لخادمه : «إنى أشعر بأن أمرى انتهى فعليك أن تبلغ سلامى إلى أصدقائى الذين كانوا يزورونني هنا» . وحضر الطبيب عند منتصف الساعة الرابعة صباحا ، فوجد الفقيد أسلم روحه إلى الله بين يدى أسرته وأنجاله .

وحفظ الأشعار العربية والفرنسية ، على أنه تتلمذ فى أول أمره لعبد الله فكرى والبارودى وإسماعيل صبرى ، وهم رواد الشعر الحديث ، وأذكى شاعريته نشأته فى قصر إسماعيل ، وحياته فى قصر توفيق وعباس ، واتصاله بالسياسة العالية ، وصحبته لمصطفى كامل ، وسياحاته فى الشرق والغرب ، وأثر النعمة عليه ، ومنافسته لحافظ ولشعراء آخرين ، مما أمده بالموهبة والملكة والطبع .

معانى شعره وأغراضه وأسلوبه :

١ — ما أكثر ما اخترع أمير الشعراء من المعانى . على أن ما سبق به قد نفخ فيه من روحه تجديدا فى سبكه . اقرأ فى ديوانه تركيف تسمو العبقرية بصاحبها إلى مقام الاستلهام ؟ وكيف يهبط إلى مهبط السرائر ، ويهيمن بروحه القوى على النفوس فى الأفراد والجماعات . فيكون أقوى من السحر ، ويكثر من ضرب الحكم والأمثال والاستشهاد بحوادث التاريخ ، وتخير روائع المعانى والتجديد فيها ، والاقتباس من معانى الغرب وأخيلته ، وهذه قصيدته التى يخاطب بها أبا الهول ومنها :

أبا الهول ويحك لايستقل	مع الدهر شىء ولا يحتقر
تهزأت دهراً بديك الصباح	فنقر عينيك فيما نقـــر
أسال البياض وسل السواد	وأوغـل منقاره فى الحفر
فعدت كأنك ذو المحبسين	قطيع القيام سليب البصر

وأخرى (عبرة الدهر) وغيرها (الطيران) وسواها (توت عنخ آمون) وكلها من آيات الإحكام وبديع الفن ، والنمط الذى لايدرك .

٢ — وقال الشعر فى أغراضه القديمة ما عدا الهجاء ، فقد كان عف اللسان على أنه ابتكر الشعر المسرحى التمثيلى بصورته الكاملة فى مصرع كيلو باترة ومجنون ليلى وغيرهما ، وأكثر من الشعر السياسى والاجتماعى والتاريخى ووصف الآثار المصرية ، وهو فى ثنايا ذلك ينثر الحكم الخالدة ، داعياً إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة والتحلى بالثقافة ، والتسابق إلى المجد ، وقوة الجيش ووحدة الأمة الخ . ذلك عـــدا قصائده فى الوصف والرثاء والمدح والغزل ، وفى الموضوعات الاجتماعية والسياسية .

ويغلب على نسيب شوق روح الوصف . والألفاظ ومتانتها وضخامتها هى عنده الألوان التى يبرز بها صورته للناس ، سواء فى النسيب أم فى سواه من أغراض الشعر وفنونه ، بعكس صبرى ، فكانت ألفاظه عذبة حلوة موسيقية جميلة ، وكأن الروح المتصل فى شعره هو النغمة الموسيقية الحلوة التى تطرب لها حتى فى القصائد التى يكلف الشاعر نفسه فيها أن يكون حماسيا ، كقصيدة فرعون وقومه .

وشوق فى الوصف فى نسيبه مبدع فى الدقة متقن فى تخير الألفاظ التى تبرز الصورة التى يريد وصفها واضحة قوية من غير أن يتحرى النغمة الموسيقية للألفاظ ، ومن غير أن يحرص على سهولتها وسلاستها كما فى قصيدته « مال واحتجب » مثلا .

وهو فى نسيبه لم يكن ينطق عن عاطفة قوية صحيحة ، بل كان ينظر إلى النسيب كفن خالص ، فتراه يقول :

إذا ما اعتضت عن عشق بعشق أعيـــد العهد وامتد الشراب

ويقول :

فقلت للمجد أشعارى مسـيرة وفى غوانى العلا لافى المها وطرى

وشأن شوق شأن سـواه من الشعراء المحدثين الذين ينطقون بالغزل فنا لا عاطفة .

ومن قصائد شوق فى النسيب قصائد خالدة مثل :

مضنـــاك جفـاه مرقـــده وبكاه ورحــم عـــوده

فهى فى النسيب نمط جميل من أعذب الشعر وأروعه ، رغم ما فيها من روح التقليد الحصرى .

والشوق مهارة فنية خارقة تعتمد على الفكر العربى والحياة العربية قبل كل شىء . ولقد استطاع أن يذلل ناحية اللفظ الشعرى والأسلوب الموسيقى إلى حد كبير .

٣ — أما أسلوب الشاعر :

ا — فقد كان فى أول حياته يصرف عنايته إلى المعانى ولا يحفل كثيراً بالمبانى ، وكان حافظ على عكسه فكان لكل منهما أنصار ، ولكن لما عاد شوقى من منفاه جزلت عبارته وفخمت صياغته ، وراع أسلوبه ، ففاق حافظاً فى اللفظ والمعنى .

وسئل حافظ فى ذلك فقال : كان شوقى قليل البضاعة فى الشعر العربى واسع الاطلاع على الشعر الإفرنجى ، فلما كان فى منفاه بالأندلس عكف على قراءة دواوين فحول الشعراء ، وكشف كنوزها ، وعلق عيونها ، فأصبح جامعاً للمزيتين حائزاً للفضيلتين .

ب — وكان يطيل القصائد دون إسفاف أو ضعف ، حتى لقد تبلغ القصيدة مائة بيت أو تزيد ، وقصيدته فى (كبار الحوادث فى وادى النيل) بلغت نحو ثلاثمائة بيت أكثرها جيد بارع على أنها من شعر الشباب .

ج — وكان شوقى يختلف أسلوبه باختلاف الفرصة التى ينظم فيها : فله فى الغزل والوصف رقة مهيار والبحترى ، وفى الحماسة والمدح فخامة أبى فراس والرضى ، وفى الأدب والحكمة دقة أبى تمام .

لا عجب بعد ذلك ، أن انعقدت لشوقى إمارة الشعر العربى فى العصر الحديث وبايعه بها شعراء العرب وأدباؤهم فى حفل عظيم أقيم بمصر سنة ١٩٢٧ ، وكان من المبايعين منافسه الأول حافظ ابراهيم القائل :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولقد تقلب شوقى طول حياته فى النعمة . ونال من متاع الدنيا ما لم ينل مثله كثير من الناس . وهذا هو السبب فيما ترى من شيوع الترف فى شعره . حتى لاتكاد تقع فى تشبيهاته إلا على كل فاخر ثمين ! .

وبعد ، فلقد نظم شوقى الشعر فتى ، فجاء عالى المعنى ، فخم اللفظ ، محكم النسج ، ومدح الخديو توفيقا وهو لايزال طالبا حدثا . فشاع اسمه ، وتردد على الألسنة ذكره . فدل ذلك على أن موهبة الشعر مطبوعة فى نفسه ، لم يكتسبها بكثرة المحاولة وطول التمرين .

وتصرف شوقى فى كل فن ، وجال فى كل غرض . وعالج القول فى كل

مطلب ، فما وهن ولا خاب له سهم . بل أصاب وأجاد أيما إجادة ، وأحسن أيما إحسان . وعارض متقدمي الشعراء ومتأخريهم ، فما قصر دونهم ، ولا تخلف عنهم . وعاش جيلا طويلا ونصف جيل ، وهو ينظم عالي الشعر . ما وقع في البلد ولا في العالم حادث يستحق الاهتمام ، إلا نظم فيه من رائع الشعر ما يعجز عنه الشعراء .

ومن هذا ندرك مبلغ إنتاج هذا الرجل وسخاء ذهنه ، من يوم نشأ إلى أن أدركته الوفاة .

وكان شوقي من أظهر أعلام مدرسة البارودي ، ولكنه فاق أستاذه ، وقد ظهر البارودي في طليعة النهضة الحديثة حاملا لواء الشعر ، وتبعه من بعده شوقي وإسماعيل صبري ، وحافظ ، والزهاوي ، والرصافي ، ومطران ، وشكري ، ومحرم ، وغيرهم ، فنهضوا بالشعر وأدخلوا فيه فنونا جديدة : كالشعر التمثيلي ، والشعر القصصي ، ووصف مظاهر المدنية الحديثة ، ووصف آثار المدنية القديمة . وعنوا بالناحية الاجتماعية والوطنية ، فوصفوا المجتمع المصري ، وحاولوا أن يعالجوا عيوبه ، كما وصفوا ما توالى على مصر من حوادث جسام .

وهؤلاء قد أعادوا للشعر العربي شبابه وجماله من حيث روعة الأسلوب وجمال الفن ، وتعدد الموضوعات . وقد أدخلوا كثيراً من الأساليب الأوربية والمعاني الأجنبية بعد صقل وتهذيب . فخطوا بالشعر خطوات موفقة ، وكان لهؤلاء القادة فضل كبير في فتح أبواب جديدة للناشئين من الشعراء المعاصرين الذين تتلمذوا عليهم .

ويمتاز شوقي في رواياته التمثيلية بالجدة والابتكار والذهن الفني الرفيع ، ولا نفكر أن هناك من نجح في ذلك قبله ، ولا نعرف أحداً يدنو من شوقي في هذا المضمار . فرواياته معرض لتحف شعرية نادرة . وهي في غاية ما يكون من حسن التناسق والتآلف ، فليست هي خاطراً ناشئا عن مؤثر خاص كحج الخديو مثلا ، أو كنوز توت عنخ آمون ، أو سقوط عبدالحميد ، أو ضرب الشام ، بل هي رسوم فنان يتأمل وينظر .

وليس كل شاعر يستطيع أن يخرج عن نفسه إلى الكون فيريك جماله ومعانيه

وإلى الحياة فيوقفك على منازعها وأحوالها . وذلك ما فصله شاعرنا فى أكثر رواياته .

وينطق أشخاصه على اختلاف أحوالهم ونزعاتهم نطقا ترتاح اليه النفس ، ويحدثك عن علاقات الناس وخوالج نفوسهم حديثاً صحيحاً يهز الجوارح .

خصومات أدبية :

قال(١) حافظ ابراهيم يوما لجلسائه :

إن أمير شعرائنا قد غضب لأن هيكلا قال : « شوقى وحافظ » فى مقال له ، ولم يعجبه الجمع بين اسمى واسمه ، ألم يسمع الناس يقولون : « زفتى وميت غمر » ! وهل غضبت زفتى لقرنها بميت غمر ، وهل احتجت ميت غمر لقرنها بزفتى ؟ . ثم ألم يسمع قول الناس : « سميط وجبنه » ، و « خيار وفاقوس » ، و « عسل وبصل » ؟ وضحك حافظ رحمه الله وقال : « ولكن يبقى من يكون فينا البصل ، ومن يكون العسل ؟ » ! .

وهنا حاول بعض الزوار أن ينال من شاعرية شوقى ، فنفر حافظ نفرة قوية ، وقال :

كلا . . . لا تكونوا خبثاء أوجهلاء ، والله إن شوقى لشاعر ، وإنه لأشعر منى . . وما كفرت بهذه الحقيقة فى شبابى وكهولتى . ولا أريد أن أكفر بها فى شيخوختى . وأود أن يعرفها الناس بعد مماتى .

وقد صدق حافظ ابراهيم ، فانه اعترف لشوقى بالسبق طول حياته ، حتى بلغ به أنه مدحه فى القصائد التى كان يمدح بها الخديو عباس حلمى الثانى فى أعياد الجلوس والميلاد . ومن ذلك :

قل للأولى جعلوا للشعر جائزة ... فيم الخلاف ألم يرشدكم الله ؟
إنى فتحت لها صدراً تليق به ... إن لم تحلوه فالرحمن حلاه
لم أخش من أحدفى الشعر يسبقنى ... إلا « فتى » ماله فى السبق إلاه

---

(١) من مقال لطاهر الطناحى فى مجلة الهلال .

ذاك الذى حكمت فينا يراعته وأكرم الله والعباس مثواه

وهو يعنى بالفتى شوقى ، وكان فى ربيع الحياة وعنفوان الدنيا ، وكان حافظ أقل حظاً منه ، بل غير ذي حظ ، ولكنه لم يقصر عنه همة وطموحا ، وكان أكثر وفاء وإخلاصا . وكانت لشوقى بدوات وغفلات أغضبت حافظا ، وحركت فى نفسه نزوة الشباب ، حتى إنه لما أنعم الخديو عباس على حافظ برتبة البكوية وأقيمت له حفلة تكريم ترأسها شوقى صامتا ، ولم يحى صديقه ببيت واحد ، ولم يفت ذلك حافظا فحملها له مع ما حمل من أشياء ، ولما وضع كتابه « ليالى سطيح » تناول فيه ديوان الشوقيات الأول ، ونقده نقدا لاذعا ، فقال :

« بربك ماذا رأيت فيها (الضمير للشوقيات) من الآيات ، وما جاء به صاحبها من المعجزات . اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغربية التى ما سكنت فى معنى عربى إلا وذهبت بروائه » . . . ثم يقول عن شوقى إنه لا يزال مهزول اللفظ ، غامض المعنى يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم . وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها ، حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره ، وإن طريقته فى شعره أن يغير على صحائف الأولين ، ومعانى الشعراء السابقين . فهو لم يغادر معنى فى خدره إلا سباه ، ولا لفظا فى وكره إلا أزعجه . .

ذلك ما كان يقوله حافظ فى ليـــالى سطيح عن شوقى ، وقد دفعته إليه نزوة الشباب وثورة الغضب . وحدث أيضا أن أقيم مرقص فى قصر عابدين ذات ليلة فحرك هذا المرقص شاعرية شوقى ، فقال فى وصفه قصيدته التى مطلعها :

مال واحتجب وادعى الغضب

فاتخذها حافظ وقتئذ وسيلة للتهكم والاستخفاف ، وسار يوما فى نزهة مع صديقه المرحوم عبد العزيز البشرى بجزيرة الروضة ، وجعلا ينظمان قصيدة هزلية فى معارضة هـذه القصيدة ، كان أحدهما يقول شطرا والآخر يقول شطرا ، ومطلعها :

شـال واتخبط وادعى العبط

ليت هاجرى يبلغ الزالط(١)

إلى آخر ماجاء فى هذه القصيدة التى بلغت ستين بيتا ، ولا ريب أن الباعث الذى جعل حافظا يستخف بشوقى ويغمزه تلك الغمزات كان لفترة قصيرة من الزمن ، وكان سببه يعود إلى شوقى أكثر مما يعود إلى حافظ ، فقد أوتى شوقى من الجاه فى عهد عباس ما ترنو إليه العيون ، وبلغ الله به من المنزلة غاية رفيعة ، وأتت نعم الله إليه من وراء الآمال . وكان فى مكنته أن ينظر من علياته إلى صديقه ؛ فيشد أزره فى معركة الحياة . ولكنه لم يفعل ، بل كان شأنه كحاشية الخديو السابق ، لا يسرها أن يحظى أحد سواها بقربه وعطفه وتشجيعه . ووجد حافظ فى الشيخ محمد عبده خير عون ، وأكبر مشجع ، حتى إذا افتقده سنة ١٩٠٥ بكاه بكاء حارا ، وبكى حظه الذى ذهب بذهابه ، وراح يشكو الزمان الأبله ، ويألم من صديقه شوقى ، بل راح يشايع خصومه ويخاصم أصدقاءه : كالسيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى كان ينافح عن الشوقيات ، ويناجز عن شاعرية صاحبها وزعامته بين شعراء العربية . ولهذا انكمش حافظ عن المنفلوطى ، وتراخى عن وداده . ثم لما مات تلكأ فى رثائه ، ثم عوتب فى ذلك فرثاه بأبيات لا تتجاوز العشرة ، وليس فيها من ألم الفجيعة ما يليق بهذا الأديب الكبير .

على أن حافظا كان وفيا ، وكان عيوفا سليم الطوية ، لم يحمل فى نفسه موجدة لشوقى ، ولم ينطو على وغر فى الصدر مكنون . وكان برغم غضبه ونقمته على بعض أخلاق شوقى يضمر له الإعجاب ، ولا يبرأ من تقديره والاعتراف بنبوغه وعبقريته . ولذلك لما أقيم سنة ١٩٢٧ مهرجان الشعر لمبايعته بالامارة على الشعراء ، كان حافظ فى المقدمة بين شعراء هذا المهرجان الذين وفدوا من أقطار العربية ، وأنشد قصيدته العصماء التى قال فيها :

أمير القوافى قد أتيت مبايعـا وهذى جموع الشعر قد بايعت معى

وقد كانت هذه القصيدة تكفى لمبايعة شوقى بإمارة الشعر ، بل كان يكفى هذا البيت البليغ الذى هز شوقى هزا ، وأطرابه طربا لامزيد عليه ، حتى نهض إليه وقبله

---

(١) يبدو أن الصحيح أن هذه المعارضة كانت عام ١٩٢٧ يوم أقيم مهرجان مبايعه شوقى بامارة الشعر ، وكان مع حافظ فى ذلك محمد الهراوى الشاعر .

فى وجهه ، وآمن بوفاء حافظ له ، إن لم يكن آمن به فى السنين الخالية . .

ولما مات حافظ رد له شوقى جميله بأحسن منه فى قصيدته البليغة التى رثاه بها رثاء يتجلى فيه عظم لجيعته فيه وأساه لفقده ، وقد تمنى فى هذه القصيدة أن لو افتداه من الردى ، وكاد أن يقدمه على نفسه فى قوله :

انظر فأنت كأمس شأنك باذخ ... فى الشرق واسمك أرفع الأسماء
يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاء

وقال الهراوى فى مناسبة مبايعة شوقى بإمارة الشعر عام ١٩٢٧ :

إن شوقى شـــاعر ... كلنـــا أجـــله
غـــير أنا معشر ... ليس يرضى ذلـــه
وهى « جمهورية » ... لا ترى محـــله

على أن ما كان « بين شوقى وحافظ » ، صوره حافظ فى شعره وفى نثره وأفصح عنه ، على حين كان شوقى يطوى ذلك فى نفسه ، ويصوب إلى منافسه الغمزات

وكان حافظ فى بداية الأمر يضع شوقى أمامه ، ويشهد له بالسبق ، فتراه حين يتقدم لمدح الخديوى فى عيد الجلوس عام ١٩٠١ م يقول :

ماذا ادخرت لهذا العيد من أدب ؟ ... فقد عهدتك رب السبق والغلب
لم يبق (أحمد) من قول أحاوله ... فى مدح ذاتك ، فاعذرنى ولا تعب

ثم يأتى العيد الثانى فيبقى حافظ على عهده ويقول كما سبق أن قدمنا :

يا ليـــلة الهمتنى ما أتيه به ... على حماة القوافى ، أينا تاهوا
إنى أرى عجباً يدعو إلى عجب ... الدهر أخمره والعيد أنشاه
قل للألى جعلوا للشعر جائزة ... فيم الخلاف ؟! ألم يرشدكم الله ؟
إنى فتحت لها صدراً تليق به ... إن لم تحلوه فالرحمن حلاه
لم أخش من أحد فى الشعر يغلبنى ... إلا فتى ما له فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا يراعته ... وأكرم الله والعباس مثواه

بل لقد رضى حافظ لنفسه أن يتشبه بشوقى ، لا أن يقف معه فى ميدان المنافسة ، فنراه يمدح الخديوى فى عيد الفطر فيقول :

مطالع سعد أم مطالع أقمار … تجلت بهذا العيد أم تلك أشعارى ؟
إلى سدة العباس وجهت مدحتى … بتهنئة شوقية النسج معطار

ولكنا بعد ذلك نرى حافظاً يتغير على شوقى ، ويلق به إلى الخلف ، ويعلن عليه هذه الغارة الشعواء إذ يقول فى مدح الخديوى :

طف بالأريكة ذات العز والشان … واقض المناسك عن قاص وعن دان
يا عيد . . ليت الذى أولاك نعمته … بقرب (صاحب مصر) كان أولانى
صفت القريض ، فما غادرت لؤلؤة … فى تاج كسرى ، ولا فى عقد بوران
شكا عمان ، وضج الغائصون به … على اللآلى ، وضج الحاسد الشانى
كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف … ساعت فيه لنظام ووزان
عابوا سكوتى ، ولولاه ما نطقوا … ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم … عهد النواسى أو أيام حسان
أزف فيه إلى العباس غانية … عفيفة الخدر من آيات عدنان
من الأوانس حلاها يراع فتى … صافى القريحة صاح غير نشوان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده … ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهل بذكر الغيد مدحته … فى موطن بجلال الملك ريان

وهكذا أخذ حافظ يغمز شوقى ويقرصه فى كل مناسبة ، وكان من ذلك حملته عليه فى كتابه « ليالى سطيح » ، وله شعر فى هجائه . . . ويقول الباحثون :

إن هذا الذى كان « بين شوقى وحافظ » لا يمكن أن نسميه «خصومة» ، وإنما هو مظهر لخلاف بين طبيعتين :

فقد كان شوقى فى ميدان السباق كالجواد الحر ، يغار من ظله ، ولا يطيق أن يرى أحداً يلحق بغباره ، وكان يعيش فى رحاب الخديوى ، وكانت له عنده حظوة بالغة ، وكلمة نافذة ، ومشورة مسموعة ، ولكنه لم يحاول أن

ينفع أحداً من الأدباء والشعراء بجاهه هذا ، بل إنه كان يدس الدسائس ولا يتورع عن الأساليب النابية فى قطع الطريق على كل متقدم ، وبهذا الدافع وقف لحافظ — وهو الذى كان يخافه — بالمرصاد ، فسد فى وجهه باب الخديوى ، وقطع عليه الصلة بالخلافة العثمانية ، وساعدته الأقدار فحرمت حافظاً أكبر عطف بموت الأستاذ الإمام ، فلم يجد حافظ أمامه إلا الشعب ، فعاش للشعب ، وبالشعب .

وتلك كانت طبيعة شوقى ، أما حافظ فكان أوفى منه إنسانية وأسمح طبعا ، لقد كان يحمل بين جنبيه قلبا يود لو يسع فيه كل محروم ومظلوم ، ويود لو يستطيع أن يوزعه على الجميع ، ثم لا يبقى له منه شيئاً ... وكان حافظ يذكر أنه لما جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى إلى مصر غريباً طريداً ، طمع أن يكون له فى رحاب الخديوى متسع ، ولكن شوقى خشى منافسة الشاعر العراقى ، فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، وكفر فى هذا بأخوة الأدب ، وأخـوة العرب ، وبالواجب نحو رجل شطت به الدار ، ووجد السيد عبد المحسن فى الأستاذ الإمام حمى ، ولكن الحمام لم يمهل الأستاذ الإمام . وكانت نزوات حافظ تثور على شوقى ، ولهذا كان يناله بقارص الكلم أحياناً فى شعره وكثيراً فى مجلسه ؛ ولكنه ـ رحمه الله ـ كان يحب خليل مطران كل الحب ، ويثنى عليه كل الثناء ، ذلك لأنهما كانا متوافقين إنسانية وأريحية ، كما كان يثنى على أحمد محرم وأحمد الكاشف وأحمد نسيم ، ويذكرهم بالخير ، فهل كان يبلغ به التهافت بعد ذلك أن يجحد شاعرية شوقى بجانب هؤلاء ..

كلا ! إن حافظا لم يجحد شوقى من ناحية شاعريته ، ولكنه كان يجحده من ناحية إنسانيته .. نفى شوقى عن مصر ، فشمت فيـه أولئك الذين كان يقف فى طريقهم . أما حافظ ، فقد جزع عليه غاية الجزع ، واشتد الحنين بشوقى إلى النيل .. فأرسل بهذه الزفرة الحارة :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على ... عهد الوفاء ـ وإن غبنا ـ مقيمينا
هلا بعثتم لنـا من ماء نهركم ... شيئاً نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيـل آسنة ... ما أبعد النيل إلا عن أمانينا !

فأجابه حافظ بتلك الزفرة الصادقة :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله ... صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

آراء فى شـــوق :

١ ـ أصدر المازنى والعقاد كتاباً فى النقد باسم «الديوان» . ولهذا الاسم تاريخ يرجع إلى سنة ١٩١٥ ليس هذا مكان سرده ، ويقول المازنى(١) : كان الغرض من هذا الكتاب أن نشرح للناس مذهبنا الجديد فى الأدب ، بنقد المعاصرين وبعرض نماذج للأدب كما ينبغى فى رأينا أن يكون . ولم يتيسر لنا أن نصدر غير جزءين ، وكان العزم أن نجعله فى عشرة أجزاء كما أعلنا ، وفى هذين الجزءين تولى الأستاذ العقاد نقد شوقى وكتب فصلا مرا عن المرحوم مصطفى صادق الرافعى — ولم يكن يومئذ قد أصبح مرحوما ـ وتوليت أنا نقد المرحوم المنفلوطى ، ولا أدرى متى أيضاً فقد نسيت ، فطارت إشاعة مضحكة خلاصتها أنى أنا ناقد شوقى والرافعى ، وأن العقاد هو ناقد المنفلوطى ، وأنا تبادلنا التوقيع ! فوضع اسمه على مقالاتى ، ووضعت اسمى على مقالاته . ويظهر أن سبب الإشاعة أنى كنت محرراً بجريدة الأخبار لصاحبها أمين «الرافعى» ، فظن بعضهم أنى خفت سوء العاقبة إذا صرحت باسمى فى نقدى المزعوم للرافعى فى كتابنا ، ونسوا أنى نقدت كتابا للرافعى فى جريدة الأخبار نفسها نقداً شديداً .

وشوقى كان فى صدر حياته أشعر منه فى أخرياتها ، ولكنه فى العهد الأخير كان أبلغ عبارة ، وأعلى بياناً ، وكان ذا حيوية عجيبة . من ذلك أنه اقتنع فى شيخوخته بأن نظم القصائد على الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل ليس يجدى ، فتحول إلى وضع الروايات الشعرية التمثيلية ، وطمع أن يكون فى الأدب العربى ، كشكسبير فى الأدب الانجليزى . ورأيى أنه لم يوفق ، ولكنه لا يسعنى إلا أن أجل هذه الحيوية فى شيخوخته ، وهذا الاجتهاد المضنى فى سن عالية ، وتلك الغيرة الرائعة على شعره ومكانته وسمعته . ولم ينقطع عن نظم القصائد المألوفة ، ولكنه صار عظيم الاهتمام بالشعر التمثيلى .

وأنا أعتقد أنه مدين لخليـــل مطران بأكثر مما يعرفه الناس — ولا سيما فى صدر حياته ـ فإن خليل مطران هو أول من أدخل شيئاً من التجديد على الشعر فى مصر ، وتبعـــه شوقى حينا ، ثم صرفه مركزه الرسمى فى بلاط

---

(١) من مقال لإبراهيم عبد القادر المـازنى ـ مجلة الهلال .

الخديو عباس ، عن مواصلة الإتباع . ثم ظهر مذهبنا الجديد ـ ولست أفاخر، فإنها حقيقة تاريخية ـ لحاول أن يساير زمانه بالتحول إلى الشعر التمثيلي ، ولا عيب في شعره هذا من حيث إنه شعر ، وإنما العيب في القصة نفسها وفي طريقة عرضها ، أي في الفن التمثيلي لا النظم .

٢ ـ نبغ في عصر واحد شوقي ومطران وصبري وحافظ(١) ، وكان لمطران رسالة مستمدة من الإنسانية أولا ومن القومية ثانية ، إلى جانب شعره الوجداني وشعر الطبيعة المنوع ؛ وكانت رسالة إسماعيل صبري وجدانية وطنية وأقلها الجانب الوطني ، وأغلبها شعر العواطف المترفة التي لا تحمل أية رسالة فوق المتعة الموسيقية والأناقة الفنية للترويح عن النفس . وكانت رسالة حافظ وطنية سياسية شعبية إلى أبعد غاية ، وإن حفظت له نماذج رائعة في شكوى الزمان . وأما رسالة شوقي فكانت أساسيا التغني بمجد مصر ، ثم بتاريخ الإسلام والعرب ، تسعفه في كل ذلك ثقافته التاريخية وقربه من ولي الأمر في مصر ، واستجابته لميوله .

ولا ريب أن شوقي كان صادقاً في تاريخياته المنوعة التي تجلت فيها عبقريته ولم يجزأحد فيها . وتفوقه في هذا المضمار جدير بالتمجيد والتبجيل ، وإنها لرسالة ذات قيمة كبيرة لا يعاديها أي إنسان حصيف ولا أي ناقد منصف ، إلا إذا جاز أن يعادي من يسجل أمجاد التاريخ القومي بإخلاص ولذة بل وشراهة .

إن طاقة شوقي الفنية عظيمة وموسيقاه أعذب في جملتها من موسيقى المتنبي ، ولكن طاقة المتنبي الفنية أعظم وأصالته أجل .

ولا ريب أن أحمد شوقي في مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية في الشعر العربي الحديث . ونحن نعد ديوان شوقي وآثاره الأخرى ثروة للعربية ، خلافاً لما يرى عباس محمود العقاد وأقرانه الذين لا تصل شاعريتهم إلى شاعرية شوقي منزلة وتنوعاً ، ولو أن شوقي في كثير من آثاره جاري عصره وخصوصاً ثقافته الغربية ، إن أحمد شوقي هو من أولئك الشعراء الذين قلما عاشوا في شعرهم ، وإن استمتعوا بنظمه . وروح الموسيقار تغلب فيه روح الشاعر ، وأحياناً تتساويان .

---

(١) من مقالة عن شوقي بقلم الدكتور الشاعر أحمد زكي أبو شادي ـ المقتطف فبراير ١٩٥٢ .

وقد يسف فى نظام المناسبات التقليدى كما قد يحلق فى روائعه تحليق الخلود . ومن الخـــير للأدب والأدباء أن تحصر العناية فى الناحية الفنية وحدها من شعره . ولقد أثبت أحمد شوقى بألمعيته كفاية العربية استيعاب المعانى العصرية فى أسلوب كلاسيكى ساحر يمرح فيه الخيال كما تتدلل الموسيقى والمعانى وتتألق الصور فتنة للقارئين .

٣ ـ ويقول باحث : يختلف النقاد حول مجدد الشعر فى هذا العصر فقال جماعة : إنه البارودى بلا منازع . وقال آخرون : إن الشعر لم ينل حظه من التجديد إلا عند شوقى . على أن للبارودى وشوقى آثاراً تجديدية فى الشعر العربى لا يمكن إنكارها ، ويكفيها قوة أن يعرضها المنهج العلمى فى صورة تجريبية لا تقبل الجدل ، ونحن فى هذا نعرض الرجلين فى ضوء المنهج العلمى لنحكم لهما أو عليهما مقررين ما لكل من آثار فى التجديد . استفاد البارودى من الشعر الجاهلى والعباسى فاطلع عليه وقرأه فى تضاعيف كتبه . وقد كان الشعر العربى فى هذا العصر مقبوراً مهجوراً لا تحيط به إلا بطون الكتب ، وكان الشعراء فى ذلك العصر لا يعنون بدراسة مسائله أو الاتهال من بحاره الزاخرة ومنابعه الأولى . فجاء البارودى واستطاع بثاقب فكره وثقافته العريضة أن يبعث الشعر القديم من مرقده وأن يخرجه من مكمنه ، وبذلك أعاد للشعر سابق صولته ، وأهدى إليه عنفوانه وقوته ، ويكفينا دليلا على ذلك ما نقرؤه فى ديوانه من قصائد فى الفخر ومقطوعات فى الرثاء ونتف فى الغزل وشذرات فى الوصف ، استطاع بها أن يكون أكبر مقلد للقدماء وأعظم مجود لأغراضهم بعد أن مضت عليهم عصور سحيقة وأزمان طويلة .

ويكفى أن تقرأ له هذه الأبيات فى الفخر لتعرف كيف أوفى على القدماء فى خمرياته حتى كاد يبذ عمرو بن كلثوم ، ومنها :

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها فى حواشى كل داجية فجر

إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

فأنت ترى كيف جارى البارودى القدماء . ومع ذلك فلم يكن فى تقليده مفلسا أو معيبا ، ذلك لأن الصبغة التقليدية كانت قوية فى نفسه ، فامتدت عدوى

التقليد من طريقة التفنن فى الأغراض إلى عناصر القصيدة نفسها . فتراه يقتفى آثار الجاهليين ـ فى صناعة الشعر ، فهو يبدأ قصائده بالغزل كما يبدءونها ، وينطلق فى عناصر القصيدة ولا ينسى فيها الفخر بنفسه كما كانوا لا ينسون أنفسهم .

ونحن لا نعتبره مقلدا صرفا لسببين : أولهما : الإجادة فى أغراضه ومطابقتها لواقع الحياة ، وثانيهما : أن نفسه ـ لما فيها من استعداد وراثى ، ولما يحيط بها من أجواء دافعة ـ أشربت أساليب هؤلاء الشعراء حتى صارت طريقة البارودى أشبه بمشاعر الجاهليين المنبعثة من النفس بلا قصد ممجوج وتكلف ممقوت .

ومن هنا نقضى بما قضى به المنهج العلمى : أن البارودى بعث الشعر الجاهلى من رقدته وإن لم يجدد فيه .

فماذا فعل شوقى ؟ حين تقرأ لشوقى تحس أن التجديد قد بدأ واضحا فى شعره ، ذلك لأنه استطاع أن يتحلل من قيــود الشعر الجاهلى ومن تقاليده العتيقة ، فهو لا يبدأ القصيدة بالغزل كما بدأ القدماء وفعل البارودى ، وهو لا يجعل الفخر منتهى همه ومبلغ مزاجه الأدبى كما فعل أسلافه ، بل يضرب بإجادته فى أطباق الشعر جميعاً ، وهو فى ذلك فضلا عن تحرره مبتدع ، أمين على أساليب الشعر ، فهو يسير فى «وحدة القصيدة» على طريقة قويمة ـ يرتضيها المحدثون ـ فلا يقسم القصيدة أجزاء مفككة لا تآلف بينها ، وتستطيع أن تلمس ذلك فى وصفه «لحادث دنشواى» فهو حين تحدث عنه تكلم عن كل ما يتصل بهذا الحادث ، ذكر الحادث ، وذكر شهداءه ، وذكر ما قاساه أبناء دنشواى من استعباد ، وما جر إلى ذلك من ويل وثبور وتنكيل بالمظلومين فقال :

يا دنشواى على رباك سلام	ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا	هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة	ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها	وبأى حال أصبح الأيتـــام
عشرون بيتا أقفرت وانتابها	بعد البشاشة وحشة وظـلام

فأنت ترى كيف وصل ما بين الأبيات فى موضوع واحد هو «دنشواى» وهكذا إلى آخر هذه القصيدة ، لا يكاد يخرج عن هذا الموضع قيد أنملة ، كما أننا

لا ننسى أن فى شوقى عنصرا خطيراً آخر من عناصر التجديد هو ـ الشعر التمثيلى ـ فقد استطاع شوقى بحسن ثقافته وسعة اطلاعه وبراعة تذوقه للأدب أن ينقل إلى الشعر العربى لوناً جديداً من ألوانه ، وأن يطعمه بهذه التمثيليات التى تعد عنصراً دخيلا فى الشعر العربى ، وقد كاد أن يكون خلوا منها ، اللهم إلا شذرات وخطرات جاءت فيه عفوا وهى شاذة ـ والشاذ لاحكم له ـ هذه التمثيليات قائمة على الحوار الشعرى ، ومنها تمثيلية « كليوباترة » و « على بك الكبير » و « مجنون ليلى » « وعنترة » وغيرها .

وهذه البدعة الحسنة التى استنها شوقى لاتزال سنة يحتذيها الشعراء من بعده مكثرين ومقلين وخاصة المجيدين منهم . وبعد هذا كله لايسعنا إلا أن نقول : إن البارودى استطاع أن يبعث الشعر العربى من رقدته الطويلة ، بينما استطاع شوقى أن يجدد فيه حتى ساير الشعر الغربى الحديث فى كثير من شعابه ونواحيه .

ولم يقتصر فضل أمير الشعراء أحمد شوقى على الشعر العربى الذى ترك له ذخيرة ستظل خالدة على مدى الدهور ، ولكن فضله على الموسيقى والغناء العربى سيبقى حديث الأجيال .

سيتحدث التاريخ عن صداقة الشاب الرقيق محمد عبد الوهاب للأستاذ مصطفى رضا رئيس نادى الموسيقى الشرقى الذى تحول فيما بعد إلى معهد الموسيقى ، وكان مصطفى رضا يصحب عبد الوهاب معه إلى النادى ، فتعرف إلى كبار هواة الموسيقى ، كالأستاذ حسن أنور الذى كان يعد موسوعة متحركة حية للموسيقى الشرقية .

وكان أمير الشعراء شوقى عضواً فى مجلس إدارة النادى ، فتعرف إلى عبد الوهاب ورأى فيه أمير الشعر شابا طموحا جميل الصوت ، ذكى الفؤاد ، فاحتضنه إعجابا به ، وقرر أن يضعه تحت رعايته ، فقد توسم فيه الموسيقى الكبير الذى يستطيع التعبير عن أعمق المعانى بترتيل أجمل الشعر ، وكان شوقى مؤمناً بأن شعره كذلك ، وقد اختار عبد الوهاب لينشده حتى يجمع بين المعنى البديع والنغم الرائع ، وبدأ يؤلف له خصيصا ، وكان من أول أعماله لعبد الوهاب أغانى « اللى يحب الجمال » و « بلبل حيران » وغيرها .

وقد شجع شوقى عبدالوهاب على إقامة الحفلات العامة ، وكان يغنى خلالها أشعار

شوقى ، وكان يدعو إليها كبار القوم ، فترددت كلمات شوقى على كل لسان بفضل موسيقى عبد الوهاب وألحانه .

ولما دعا الملك فيصل الأول محمد عبد الوهاب إلى العراق ليغنى هناك نظم شوقى له : ياشراعا وراء دجلة يجرى . . ويقصد عبد الوهاب الملك بذلك ، ونجح عبد الوهاب نجاحا دعا شوقى إلى تشجيعه على غناء قصائده الطويلة مثل « أنا أنطونيو » ، و « خدعوها بقولهم حسناء » و « ياجارة الوادى » . . . وتزايدت الصلات بين شوقى وعبد الوهاب ، فاستصحبه معه فى رحلاته بأوربا ولبنان .

وهكذا نجح شوقى فى تخليد غناء عبد الوهاب ، ونجح عبد الوهاب فى ترجمة شعر شوقى إلى موسيقى تترنم بها الجماهير .

٤ — وكتب الشاعر حسين شوقى عن أبيه يقول :

كانت لنا فى المطرية دار واسعة أطلق عليها أبى اسم « كرمة ابن هانىء العباسى » أى أبى نواس ، لأن أبى كان معجبا بهذا الشاعر الذى لم ينل حظه من الدراسة العميقة مع الأسف الشديد ، كما أن الأساطير جعلت منه شاعراً ماجناً .

وكذلك اشترى أبى دارا عامــة فى ذلك الوقت يضع فيها ما كان يشتريه من أثاث وتحف من وقت لآخر فى المزادات العامة ، بدون أن تكون هناك حاجة إلى إلى أكثره . إذ كانت هذه هواية أبى فى ذلك الوقت .

وإذا كان أبى قد وفق فى حياته الأدبية فأكبر الفضل فى ذلك يرجع إلى والدتى التى لم تكن تتدخل مطلقاً فى شئونه الخاصة ، وبسبب طبيعتها الطيبة التى لاحد لها ، فهى لم توجه إليه لوما فى حياته مرة . مع أنه كان خليقا باللوم أحيانا ، فهو كثيراً ما كان يصطحب وقت الظهر أصدقاءه ، حين عودته إلى المنزل فيتغذى معهم ، على حين تتغدى هى وحدها ، أما العشاء فكان يتناول معظمه فى الخارج .

وعند ما كنا فى أوروبا ، كان يغضب من أخى ومنى ، حين نذهب إلى أحد المطاعم ونختار الأصناف المألوفة ، فقد كان رأيه أن نختار أصنافا جديدة مجهولة الأسماء ، كى يختار هو منها فى المرات القادمة ، إذا راقته !.

ولما اضطر أبى والأسرة إلى المقام فى أسبانيا تزايد حنينه إلى الوطن ، وقد ظهر هذا الحنين واضحاً فى كثير من قصائده التى نظمها هناك .

وكان أبي يعطيني بنفسه دروساً فى اللغة العربية طوال مدة مكثنا فى أسبانيا كما كان يدرس لأخوى ، وقد شرع هو فى تعلم اللغة الأسبانية وقد تعلمها فعلا، ولكن نطقه بها لم يكن سليما مما كان يثير ضحكنا كلما أخطأ فى النطق أمامنا ، وكان ذلك يغضبه ويقول لنا : أنتم أولاد غير مؤدبين !

ولا يزال الكتاب الذى كان يتعلم منه النحو الأسبانى عندى ، وقد غطى غلافه بأشعاره التى جمعها فيما بعد فى كتاب « دول العرب وعظماء الإسلام » الذى ألفه هناك ، كما ألف فى تلك الحقبة رواية « أميرة الأندلس » .

وقد تزايد إنتاج أبى فى تلك الفترة فكتب قصائد عن قرطبة وغرناطة وقصورها ، ولما سمح لنا بالعودة إلى مصر كان أبى متعجلا فى السفر إذ كان حنينه شديداً إليها ، وقال على أثر العودة :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

ومما زاد فى فرح أبى بالعودة أنه رأى بنى وطنه قد بعثوا من جديد ، وقد كتب فى ذلك يقول :

عثمان قم تر آية الله أحيا الموميات
خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات
واسمع بمصر الهاتفين بمجدها والهاتفات
والطالبين لحقها بين السكينة والثبات

وكان أبى يحب منطقة الجيزة ونهر النيل ، فاختار المنطقة التى بها كرمة ابن هانىء الحالية ، وكان يردد فى ذلك الحين بيتاً من الشعر لأحد شعراء الفاطميين يقول:

إن كنت فى مصر ولم تك ساكنا على نيلها الجارى فما أنت فى مصرا

وكان يذهب بنا كل يوم جمعة إلى مقهى صغير أمام فندق مينا هاوس ويتركنا نلعب ونصخب ويجلس هو يتأمل ويسرح ، يؤلف قصائد فى ذهنه ليعود لكتابتها فى البيت كاملة ، وقد نظم فى إحدى تلك الرحلات الأسبوعية قصيدته المشهورة :

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت فى الأرض أقصى العمر

وكان وهو فى باريس يقضى معظم لياليه فى مسرح « الكوميدى فرنسيز » كى يزداد علما فى الفن المسرحى ، إذ كان يفكر إذ ذاك فى عمل مسرحيات شعرية ، وكان قد

قد أخرج فعلا فى شبابه مسرحية شعرية هى : « على بك الكبير » فى عام ١٨٩٣ ولكنه أعاد نظمها فى سنة ١٩٣١

وقد افتتن أبى بمحاسن لبنان ، وكان يذهب للاصطياف هناك بدلا من أوربا ، وقال فى لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأزين منهما ملكوته
وكأن أيام الشباب ربوعه ... وكأن أحلام الكعاب بيوته

وكانت حساسية أبى شديدة فلم يكن يطيق أن يرى أحدنا مريضا رغم حبه لنا ، فعندما يمرض أحدنا مرضا شديداً يهرب من البيت ، بل يسافر إلى الاسكندرية حتى يزول الخطر ، ومن ذلك أنه لما توفيت والدته فى حلوان رثاها بمرثية طويلة ثم طواها لأنه تحاشى أن ينظر اليها فيما بعد ، ولم تنشر إلا بعد وفاته ، كما أنه لم يطق أن يذهب إلى حلوان حيث ماتت أمه المحبوبة .

وقد اهتم فى عامى ١٩٣١ ، ١٩٣٢ بتأليف رواياته التمثيلية ، فأتم مجنون ليلى وقمبيز والست هدى والبخيلة مما أجهد صحته ، فأمره الأطباء بملازمة حجرته ومنعوه من معظم متعه ، لذلك صار سريع التهيج . فإذا قال له أحد الزائرين إن صحته ليست على ما يرام أو أن سيماء التعب تبدو عليه ، كان لا يسمح لهذا الزائر برؤيته مرة ثانيـــــة .

وكان يفخر بشعره فخراً شديد وهو القائل :

كل حمد لم أصفه زائل ... خالد الحمد بما صغت رهين

والواقع أن مقدرته على النظم عجيبة ، فقد نظم قصيدة النيل التى مطلعها :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق

وهى تزيد على مائة بيت ، فى جلسة واحدة فى فندق سميراميس ، وكانت آخر قصيدة له هى التى حيا بها مشروع القرش ، وقد تليت يوم وفاته فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، وقد كتبها وهو فى سرير مرضه .

وقد كتبنا على قبره عملا برغبته هذين البيتين من نهج البردة :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل   في الله يجعلني في خير معتصم

نماذج من شعر شوقي :

من شعر شوقي في القصة التمثيلية قوله :

ديار الحي من ليلى   سلام من شجي صب
على الحي على الدار   على ليلى على الحب
عسى الخطبة لا تنزل   في ناديك كالخطب

ومن شعره في الوصف قوله يصف قصر أنس الوجود وقد كادت المياه تغرقه :

قف بتلك القصور في اليم غرقى   ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا   سابحات به وأبدين بضا
شاب من حولها الزمان وشابت   وشباب الفنون مازال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا   نع منه اليدين بالأمس نفضا
ومحاريب كالبروج بنتها   عزمات من عزمة الجن أمضى

ومن شعر شوقي ما نظمه في استنهاض العمال سنة ١٩٢٣ :

أيها العمال أفنوا العمـ   ـر كدا واكتسابا
واعمروا الأرض فلولا   سعيكم أمست يبابا
إن لي نصحاً إليكم   إن أذنتم وعتابا
في زمان غبي النا   صح فيه أو تغابى
أين أنتم من جدود   خلدوا هذا الترابا؟
قلدوه الأثر المعـ   ـجز والفن العجابا
وكسوه أبد الدهـ   ـر من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى   أخذوا الخلد اغتصابا
إن للمتقن عنـ   ـد الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببكم الـ   ـله ويرفعكم جنابا

ومن شعره قصيدته «الحرية الحمراء» :

في مهرجان الحق أو يوم الدم ... مهج من الشهداء لم تتكلم
يبدو على هاتور نور دمائها ... كدم الحسين على هلال محرم
يوم الجهاد بها كصدر نهاره ... متهلل الأعطاف ، مبتسم الفم
طلعت تحج البيت فيه كأنها ... زهر الملائك في سماء الموسم
لم لا تطل من السماء وإنما ... بين السحاب قبورها والأنجم
ولقد نجاها الغائبون وراءها ... ما حل بالبيت المضىء المظلم
وإذا نظرت إلى الحياة وجدتها ... عرسا أقيم على جوانب مأتم
لابد للحرية الحمراء من ... سلوى ترقد جرحها كالبلسم
وتبسم يعلو أسرتها كما ... يعلو فم الثكلى ، وثغر الأيم
يوم البطولة لو شهدت نهاره ... لنظمت للأجيال مالم ينظم
غبنت حقيقته ، وفات جمالها ... باع الخيال العبقري الملهم
لولا عوادي النفي أو عقباته ... والنفي حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورة ... مثلت فيها صورة المستسلم
وحكيت فيها النيل كاظم غيظه ... وحكيته متغيظا لم يكظم
دعت البلاد إلى الفخار فغامرت ... وطنية بمثقف ومعمم
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت ... بسواء جل جلاله لا تحتمي
نثر الكنانة ربها وتخيرت ... يده لنصرتها ثلاثة أسهم
من كل أعزل حقه بيمينه ... كالسيف في يمنى الكمى المعلم
لم يحجموا في ساعة قد أظفرت ... ملك البحار بكل قيصر محجم
وقفوا مطيهمو بسلم قصره ... والبأس والسلطان دون السلم
وتقدموا ، حتى إذا ما بلغوا ... أوحوا إلى مصر الفتاة تقدمي
سالت من الغاب الشبول غلابها ... لبن اللباة ، وهاج عرق الضيغم
يوم النضال كستك لون جمالها ... حرية صبغت أديمك بالدم

أصبحت من غرر الزمان وأصبحت ضحكت أسرة وجهك المتجهم
ولقد يتمت فكنت أعظم روعة يا ليت من « سعد » الحمى لم تيتم
لينم أبو الأشبال ملء جفونه ليس الشبول عن العرين بنوم

وقال يتغزل :

تأتى الدلال سجية وتصنعا وأراك فى حالى دلالك مبدعا
ته كيف شئت فما الجمال بحاكم حتى يطاع على الدلال ويسمعا
لك أن يروعك الوشاة من الهوى وعلى أن أهوى الغزال مروعا
قالوا لقد سمع الغزال لمن وشى وأقول : ما سمع الغزال ولا وعى
أنا من يحبك فى نفارك مؤنسا ويحب تيهك فى نفارك مطمعا
قدمت بين يدى أيام الهوى وجعلتها أملا عليك مضيعا
وصدقت فى حبى فلست مباليا إن أمنح الدنيا به أو أمنعا

وقال يتغزل أيضا :

ردت الروح على المضنى معك أحسن الأيام يوم أرجعك(١)
مر من بعدك ما روعنى أترى يا حلو بعدى روعك ؟
كم شكوت البين بالليل إلى مطلع الفجر عسى أن يطلعك
وبعثت الشوق فى ريح الصبا فشكا الحرقة مما استودعك
يا نعيمى وعذابى فى الهوى بعذولى فى الهوى ما جمعك ؟
أنت روحى ، ظلم الواشى الذى زعم القلب سلا أو ضيعك(٢)
موقعى عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندى موقعك
أرجفوا أنك شاك موجع ليت لى فوق الضنا ما أوجعك
نامت الأعين إلا مقلة تسكب الدمع وترعى مضجعك

---

(١) ضنى الرجل على وزن علم : مرض ، فتمكن منه الضعف والهزال .
(٢) سلا : سلاك أي نسيك .

ومن مشهور شعره أندلسيته التي قالها في منفاه والتي يقول فيها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا(١)
ماذا تقص علينا غير أن يدآ ... قصت جناحك جالت في حواشينا(٢)
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ... أخا الغريب ، وظلا غير نادينا(٣)
كل رمته النوى : ريش الفراق لنا ... سهما ، وسل عليك البين سكينا(٤)
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع ... من الجناحين عى لا يلبينا(٥)
فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا ... إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمأ ... ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا(٦)
تجر من فنن ساقا إلى فنن ... وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا(٧)

---

(١) الطلح : واد بإشبيلية كان ابن عباد (أحد ملوك الطوائف وصاحب أشبيلية ومن شعراء الأندلس) شديد الولع به ، والمراد بنائح الطلح الحمام (كناية عن موصوف) ، أشباه : جمع شبه وهو المثل . عوادينا : مصائبنا . نشجى : نأسى : نحزن . وأشباه عوادينا : مبتدأ وخبر ، أشباه خبر مقدم وعوادينا مبتدأ مؤخر .

(٢) الحواشي : جمع حاشية وهي جانب الثوب ، وأهل الرجل ، وناحيته .

(٣) البين : الفراق . الأيك : الشجر الكثير الملتف . السامر : النادي .

(٤) ريش السهم (بالبناء للمجهول) : ألصق عليه الريش ، ومعنى ريش الفراق لنا سهما : بليت بفراق موجع أليم كأنه السهم في إيلامه .

(٥) منصدع : مشقوق . عى : عاجز .

(٦) لم تأل : لم تقصر ، من ألا يألو أي قصر ، وفلان لا يألوك نصحا يعني لم يقصر في نصحك ، الادكار : التذكر ، الشجو : الحزن والحنين . أفانين : أنواع وهي جمع أفنان جمع فن وهو الغصن ، وماءك مفعول به . وتحنانا تمييز . وأفانين صفة لشجو .

(٧) ترتاد : تقصد وتطلب .

أساة جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنطس المداوينا ؟(١)

آهاً لنا نازحى أيك بأندلس ... وإن حللنا رفيفا من روابينا(٢)

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع ، والإجلال يثنينا(٣)

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ... ولا مفارقهم إلا مصلينا(٤)

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ... للناس كانت لهم أخلاقهم دينا(٥)

لم نسر من حرم إلا إلى حرم ... كالخمر من (بابل) سارت (لدارينا)(٦)

لما نبا الخلد نابت عنه نسخته ... تماثل الورد (خيريا) و (نسرينا)(٧)

نسق نزاهم ثناء ، كلما نثرت ... دموعنا نظمت منها مراثينا(٨)

كادت عيون قوافينا تحركه ... وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا(٩)

---

(١) أساة : أطباء ، المفرد آس من أسا الجرح يأسوه أى داواه . النطس : مهرة الأطباء والواحد نطاسى .

(٢) النازح : البعيد . الرفيف . الشجر الندى ، والخصب .

(٣) الرسم : الطلل والأثر . رسم الوفاء : دين الوفاء . نجيش بالدمع: تفيض أعيننا به .

(٤) المفارق : جمع مفرق وهو وسط الرأس ويريد بها هنا الرءوس نفسها .

(٥) منبهة : شرف ومجد .

(٦) بابل : مدينة بالعراق وكانت تشتهر بجودة الخمر ، ودارين : مدينة بالبحرين .

(٧) الخلد : الجنة ، ويريد بنبو الخلد زوال ملك العرب الذى كان بالأندلس — الخيرى والنسرين : نوعان من الزهر .

(٨) المعنى : أنا الشاعر الكلف بهذا المجد لا أفتأ أبكيه ، ولا أفتأ أطريه ، ولا أفتأ أرثيه بشعر ملتاع أسيف .

(٩) المعنى : لقصائدى فى رثاء ملك العرب هناك حرارة وروعة حتى لتكاد تحرك التراب ، وتبعث من القبور خلفاء الأندلس وحكامه .

لكن مصر وإن أغضت على مقة … عين من الخلد بالكافور تسقينا(١)
على جوانبها رفت تمائمنا … وحول حافاتها قامت رواقينا(٢)
ملاعب مرحت فيها مآربنا … وأربع أنست فيها أمانينا(٣)
ومطلع لسعود من أواخرنا … ومغرب لجدود من أوالينا(٤)
بنا فلم نخل من روح يراوحنا … من بر مصر وريحان يغادينا(٥)
كأم موسى على اسم الله تكفلنا … وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا(٦)
ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة … لحاضرين وأكواب لبادينا(٧)
يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا … بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا(٨)
لما ترقرق فى دمع السما دماً … هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا(٩)
الليل يشهد : لم تهتك دياجيه … على نيام ولم تهتف بسالينا(١٠)

---

(١) المقة : الحب ، الكافور : نبت طيب وعين فى الجنة .

(٢) رفت : اهتزت . التمائم : مفردها تميمة ، وهى العوذة (الحجاب) ، الرواق: جمع راقية : التى ترقى الصبي من سحر أو حسد .

(٣) المآرب : الآمال ، الأربع : المنازل مفرده ربع .

(٤) الجدود جمع جد : أبو الأب وإن علا أو الحظ والعظمة .

(٥) الروح : الرحمة والرزق .

(٦) تكفلنا : تعولنا وتربينا .

(٧) الحاضرون : سكان الحضر والمراد هنا المقيمون بمصر . البادون : سكان البادية والمراد البعيدون عن مصر .

(٨) الهدوء : حين يهدأ الليل والناس : الجوانح : الأضلاع . يهمى : ينصب. والمآق : جمع مؤق وهو مايلى الأنف من العين والمراد بها العيون .

(٩) ترقرق : لمع . دمع السماء : كناية عن المطر . خضبنا : صبغنا .

(١٠) الدياجى : الظلمات والمفرد دجية وفاعل تهتك ضمير يعود على البرق .

والنجم لم يرنا إلا على قــدم ... قيام ليـل الهوى للعهـد راعينا(١)
كزفرة فى سماء الليـــل حائرة ... مما تردد فيـه حـــين يضوينا(٢)
بالله إن جبت ظلماء العباب على ... نجائب النور محدوا (بجبرينا)(٣)
ترد عنـك يداه كل عادية ... إنساً يعثن فساداً أو شياطينا(٤)
حتى حوتك سماء النيـــل عالية ... على الغيوث وإن كانت مياميناً(٥)
وأحرزتك شفوف اللازوردعلى ... وشىالزبرجد من أفواف وادينا(٦)
وحازك الريف أرجاء مؤرجـة ... ربت خمائل واهتزت بساتينـا
فقف إلى النيل واهتف فى خمائله ... وانزل كما نزل الطل الرياحينـا
وآس ما بات يذوى من منازلنا ... بالحادثات ويضـوى من مغانينا
ويا معطرة الوادى سرت سحراً ... فطاب كل طروح من مرامينا(١٠)
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها ... قميص يوسف لم تحسب مغالينا(١١)
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا ... بالورد كتبا وبالريا عناوينا(١٢)
فلو جزيناك بالأرواح غالية ... عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا(١٣)

---

(١) والنجم يشهد أنه ما رآنى إلا يقظا طول الليل راعيا عهد الوفاء لمصر .

(٢) يضوينا : يضعفنا أو يشملنا .

(٣) ظلماء العباب : الأمواج المتراكبة . النجائب : النوق الجياد مفرده نجيبة . جبرين : جبريل .

(٤-٩) عادية : مكروه . يعثن : يفسدن : ميامين : مباركة . شفوف : جمع شف : الثوب الرقيق ، اللازورد : حجر صاف أزرق شفاف . الأفواف جمع فوف المراد بها الخمائل والحدائق والحقول . يذوى : يذبل : يضوى : يضعف : المغانى المنازل .

(١٠) طروح : بعيد .

(١١) ذكية : عطرة ، الغلالة : ثوب شف .

(١٢) جشمت : تحملت على مشقة ، السرى : سير الليل . الريا : الريح الطيبة

(١٣) الجوازى : جمع جازية : المكافأة .

هل من ذيولك مسكى نحمـــله ... غرائب الشوق وشيا من أمانينا ؟(١)
إلى الذين وجـــدنا ود غيرهم ... دنيا وودهم الصافى هو الدينا(٢)
يامن نغار عليهم من ضمائرنا ... ومن نصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم فى خواطرنا ... عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا ... فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد ... حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغى كأن الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا(٣)
نطوى دجاه بجرح من فراقكم ... يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا ... حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ... حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا ... للشامتين ويأســوه تأسينا
سقيا لعهد كأكناف الربا رفة ... أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا(٤)
إذا الزمان بنا غيناء زاهــية ... ترف أوقاتنا فيها رياحينا(٥)

(١، ٢) الوشى : الزخرف .

(٣) الصياصى : الحصون وما يحتمى به جمع صيصية .

(٣) نابغى : ليل طويل ثقيل بغيض .

الدجى : الظلام . غلس الأسحار : ظلام آخر الليل .

لم ترقأ : لم تسكن . التراق : جمع ترقوه : مقــدم الحلق فى أعلى الصدر .

حسرى : حزينة متلهفة أو ضعيفة عاجزة : يأسوه : يعالجه . التأسى : التشجع والتصبر .

(٤) الرفة : الناضر من النبات . أعطاف الصبا : جوانب الريح الهابة من الشرق وكان العرب يحبونها .

(٥) غيناء : خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان .

الوصل صافية ، والعيش ناغية … والسعد حاشية ، والدهر ماشينا[١]
والشمس تختال فى العقيان تحسبها … (بلقيس) ترفل فى وشى اليمانينا[٢]
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت … لو كان فيها وفاء للمصافينا
والسعد لو دام ، والنعمى لو اطردت … والسيل لو عف ، والمقدار لو دينا[٣]
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا … ماء لمسنا به الإكسير أو طينا[٤]
أعداه من يمنه (التابوت) وارتسمت … على جوانبه الأنوار من (سينا)[٥]
له مبالغ ما فى الخلق من كرم … عهد الكرام وميثاق الوفينا
لم يجر للدهر إعذار ولا عرس … إلا بأيامنا أو فى ليالينا[٦]
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته … منا جياداً ولا أرخى ميادينا[٧]

---

(١) الوصل : الرفقة أو الصلة . والعيش : الحياة . وناغية : فيه مناغاة أى مايسر ويعجب . الحاشية : الظل . ماشينا : ماشئنا . مخفف الهمزة . وأنث الخبر حملا على المعنى إذ معنى الوصل الصلة ومعنى العيش الحياة ولهذا نظائر فى كلام العرب .

(٢) بلقيس : ملكة سبأ ولها قصة مع سيدنا سليمان ذكرها القرآن الكريم ، ترفل : تطيل ثيابها وتجرها متبخترة . وشى : ثوب منقوش مزخرف . اليمانين : اليمنيين .

(٣) دين : خضع وذل وسلس ، جاء فى الأساس ، دان القوم إذا ساسهم وقهرهم فدانوا له ، فنائب الفاعل فى قول شوقى ضمير مستتر يعود على المقدار .

(٤) الإكسير : سر الحياة .

(٥) اليمن : البركة . التابوت : ما وضع فيه سيدنا موسى فى النيل .

(٦) الإعذار : طعام وليمة الختان . العرس : طعام الوليمة .

(٧) أطغى جياداً : يريد أكرم خيلا . أرخى ميادين : أوسع ميادين .

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ... ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولاخلق ... إذا تلون كالحرباء شانينا[١]
لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت ... في ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ورأت ... عليه أبناءها الغر الميامينا؟[٢]
إن غازلت شاطئيه في الضحى لبسا ... خمائل السندس الموشية الغينا[٣]
وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظ القز بالخيطان ترمينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل (القياصر) دناها (فراعينا)[٤]
ولم يضع حجراً بان على حجر ... في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان فانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره ... يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا[٥]
كأنها ورمالا حولها التطمت ... سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحا ذهباً ... كنوز فرعون غطين الموازينا

---

(١) يحول : يتغير ، الصبغ : مايصبغ به والمراد الخصائص والأخلاق . الشانىء : العدو .

(٢) الغر : جمع أغر والمراد السادة المشهورون . الميامين : السعداء ذوو البركة والخير .

(٣) خمائل السندس : الأشجار الكبار الخضر كالحرير . الموشية : المزخرفة . الغين جمع غيناء : الخضراء . المجاج : الريق ترميه من فيك . ومجاج النحل : العسل ومجاج المزن : المطر ، ومجاج الواد : ما ينبته الوادي . لوافظ القز : مخرجات الحرير .

(٤) أخضع فراعنتنا العالم القديم البادي منه والحاضر ، قبل أن يحكم قياصرة الروم ، وكنا رواد الحضارة ، اقتفى أثرنا كل متحضر .

(٥) الأواوين : جمع إيوان وهو القصر المظيم . الأساطين ، جمع اسطوانة : سارية السفينة . لألاء : ضوء واشتعال من لألأت النار أظهرت .

أرض الأبوة والميلاد ، طيبها ... مر الصبا في ذيول من تصابينا
كانت محجلة فيها مواقفنا ... غراً مسلسلة المجرى قوافينا[١]
فآب من كرة الأيام لاعبنا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا
ولم تدع لليالى صافيا فدعت ... (بأن نغص فقال الدهر : آمينا)
لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى ، والبحر غسلينا[٢]
سعياً إلى مصر نقضى حق ذاكرنا ... فيها ـ إذا نسى الواف ـ وباكينا
كنز (بحلوان) عند الله نطلبه ... خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا ... لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أوله شجنا ... لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

أندلسية شوقية :

والشوق قصيدة بائية مشهورة قالها بعد عودته من المنفى حيث كان فى الأندلس وهى فاتحة قصائده بعــــد العودة ، وقد أشاد فيها بذكر الأندلس ، إعجابا بها ، وعرفانا لفضلها وجميلها ، ثم وصف استقبال بلاده بعد تلكم الغيبة الطويلة ، وعرج على مسألة التموين التى كانت حينئذ شغل البلاد الشاغل ، وهاهى ذى كلها :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا ... وأجزيه بدمعى لو أثابا[٣]

---

(١) محجلة ، التحجيل بياض فى قوائم الفرس والمراد غراء مشهورة . مسلسلة: طيعة سهلة . آب : عاد . ثاب : أفاق . التصابى : تكلف الصبا .

(٢) الوغى : الحرب . الغسلين: الشديد الحرارة . الكنز: المراد به والدة الشاعر وكانت تقيم بحلوان ، الشجن : الحزن .

(٣) الرسم : بقايا آثار الديار والدمن والأطلال . المعنى : أعاطب آثار الديار لو كانت تجيب ، أى لو كانت تجيب خطابى لخاطبتها ، أو لو كانت تجيب لسرنى ذلك ، ولكافأتها بدمعى لو كان دمعى يصلح مكافأة لها ، ولكنها لا تكفى فى مكافأتها .

وقل لحقه العبرات تجرى ... وإن كانت سواد القلب ذابا(١)
سبقن مقبلات الترب عنى ... وأدين التحية والخطابا(٢)
نثرت الدمع فى الدمن البوالى ... كنظمى فى كواعبها الشبابا(٣)
وقفت بها كما شاءت وشاءوا ... وقوفا علم الصبر الذهابا(٤)
لها حق وللأحباب حق ... رشفت وصالهم فيها حبابا(٥)
ومن شكر المناجم محسنات ... إذا التبر انجلى شكر الترابا(٦)

---

(١) تقل فى مكافأتها عبراتى الجارية ، ولو كانت هذه العبرات سواد القلب ذائبا .

(٢) سبقت دموعى إلى الديار تقبل ترابها نائبة عنى ، وأدت التحية لها ، وخاطبتها معبرة لها عن أشواق .

(٣) الدمن : آثار الديار . الكواعب : جمع كاعب وهى الجارية الحسناء البارزة الثدى .

المعنى : نثرت دمعى فى دمن الديار وآثارها البالية ، شوقا اليها كما نظمت شبابى وقولى فى حسانها الناهدات.

(٤) وقفت بالآثار كما شاءت وأرادت ، وكما شاء أهلها وقوفا طويلا يذهب الصبر .

(٥) رشف الماء : أخذه بشفتيه قليلا قليلا ، الحباب : معظم الماء أو الفقاقيع تطفو على وجهه ، والمراد هنا الأول .

المعنى : لهذه الديار حق على ، وللأحباب فيها حق على أيضا ، لأنى رشفت فيها وصالهم وودهم فيها كما أرشف الكأس وحبابها وهو معظمها .

(٦) أى : شكرت الديار التى أنبتت أحبتى كما يشكر مستخرج الذهب المناجم ، وشكرت أرضها وترابها لعيش الأحبة فيها ، كما يشكر مستخرج الذهب المكان الذى يسكن فيه الذهب ويخالطه .

وبين جوانحي واف ألوف ... إذا لمح الديار مضى وثابا(١)
رأى ميل الزمان بها فكانت ... على الأيام صحبته عتابا(٢)
وداعا أرض أندلس وهذا ... ثنائي إن رضيت به ثوابا(٣)
وما أثنيت إلا بعد علم ... وكم من جاهل أثنى فعابا(٤)
تخذتك موئلا فحللت أندى ... ذرا من وائل وأعز غابا(٥)
مغرب آدم من دار عدن ... قضاها في حماك لي اغترابا(٦)

---

(١) ولي بين جوانحي قلب واف للأهل والأحبة ، ألوف لهم ، إذا لمح ديارهم رجع إليها وثاب أي عاد ورجع .

(٢) رأى هذا القلب ميل الزمان بها وجوره عليها فكانت صحبته لي عتاباً للأيام على ميلها وجورها .

(٣) أي وداعا يا أرض الأندلس ، وهذا ثنائي ألقيه على مسامعك إن رضيت به جزاء وثوابا على ما لقيت فيك من حسن الضيافة وما تمتعت به في ربوعك من أيام جميلة ذكرتني عهد عزة الإسلام ، وقوته ، وبعثت في نفسي الكرامة .

(٤) ولم أثن عليك إلا بعد علم بما تستحقينه من ثناء ، فأنت أهل لكل إجلال واحترام ، لما يتضمنه تاريخك الحافل من أيام للعرب والإسلام ، وكثير من الجاهلين يثني فلا يعرف موضع الثناء فيعيب من أراد الثناء .

(٥) الموئل : الملجأ . من وأل أي طلب النجاة ، وائل : جبل وبه سميت قبيلة وائل من العرب .

المعنى : تخذتك ملجأ لي في محنتي فأقمت بأكرم أرض من بلاد العرب في بلاد كأنها الغاب الذي يعيش فيه الأسود .

(٦) قضى الله الذي أخرج آدم من الجنة أن أقضي أيام محنتي فيك مغتربا كما اغترب آدم في الأرض بعد الجنة .

شكرت الفلك يوم حويت رحلى ... فيا لمفارق شكر الغرابا(١)

فأنت أرحتنى من كل أنف ... كأنف الميت فى النزع انتصابا(٢)

ومنظر كل خوان يرانى ... بوجه كالبغى رمى النقابا(٣)

وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خرابا(٤)

أحق كنت للزهراء ساحا ... وكنت لساكن الزاهى رحابا(٥)

---

(١) شكرت السفينة التى نقلتنى إليك وألقت بى وبأمتعتى فيك ، ومع أن السفن هى السبب المباشر الذى نقلنى من وطنى الحبيب فقد شكرتها لأنها أنزلتنى منزلا عزيزاً على نفسى ، له فيها ذكريات خالدات . فكنت كالمفارق الذى يشكر غراب البين ، والعادة أن الناس تذم الغراب ويتطيرون به ، ولكنى شكرته ، لأن فراق كان من وطنى إلى بلاد هى من أفضل بقاع الوطن العربى إلى نفس العربى .

(٢) أى فأنت أرحتنى من الجبناء الذين رغمت أنوفهم حتى صارت كأنوف الموتى ، قد فارقها الشمم ، بل فارقتها الحياة أو كادت تفارقها .

(٣) وأرحتنى من منظر كل خوان متقلب يرانى بوجه ليس فيه حياء كالبغى الفاجر . قد ألقى نقاب الحياء عن وجهه ، وتبجح وأظهر ما لم يكن يقدر على إظهاره .

(٤) ولا يمكن أن تقوم الدولة ويرتفع بنيانها ويعمر ، إذا خربت أخلاقهم وخوت نفوسهم من العزة والكرامة فإنما الأمم الأخلاق ، لا البنيان ولا العمارات .

(٥) الزهراء : مدينة كانت بالأندلس عظيمة فيها من مظاهر الحضارة ما يأخذ بالألباب ، والزاهى قصر بها .

المعنى : أحقا يا بلاد الأندلس كنت ساحة لمدينة الزهراء العامرة الحافلة بمظاهر

ولم تك (جور) أبهى منك وردا ... ولم تك بابل أشهى شرابا (١)

وإن المجـد فى الدنيا رحيق ... إذا طال الزمان عليه طابا (٢)

أولئك أمـة ضربوا المعالى ... بمشرقها ومغربها قبابا (٣)

جرى كدرا لهم صفو الليالى ... وغاية كل صفو أن يشابا (٤)

مشيبة القرون أديل منها ... ألم تر قرنها فى الجو شابا (٥)

الحضارة والرقى ، وكنت ، رحابا ومجالا لهذا الملك المعظم الذى يسكن القصر المسمى بالزاهى ، لقد تغيرت معالمك حتى ينبك الناظر إليك فى ذلك .

(١) ولم تكن جور وهى مدينة فيروز أباد ببلاد الفرس الشهيرة بالورد الجورى المعروف ، أبهى وردا منك بل كنت تضاهينها فى إخراج الزهور الجميلة ، ولم تكن بابل وهى بلد العراق المشهورة بالخمر أشهى شرابا منك بل كان عصير عنبك يضاهى عصير بابل .

(٢) وإن المجد فى الدنيا كرحيق الخمر كلما طال عليه الزمن طاب وتحسن ، كما أن الخمرة كلما مضى عليها الزمن صارت معتقة جيدة وارتفعت قيمتها .

(٣) أولئك الذين سكنوا أرضك وملكوها وهم العرب ، أمة اتخذوا المعالى فى الشرق والغرب خياما لهم ، فكانت المعالى بيوتهم وملك أيمانهم يبنونها كيف شاءوا وفى أى موضع أرادوا .

(٤) تغيرت بهم الأيام وتنكرت لهم الليالى فأصبح صفوها كدرا ، وغاية كل صفو ومآله أن يشاب ويختلط بغيره وتتبدل حاله ، فلا بقاء لصفو ، كما أنه لا بقاء للكدر .

(٥) مشيبة القرون يريد الشمس . وأدال الله فلانا من فلان نزع الدولة من الثانى وحولها للأول .

المعنى : حتى الشمس التى شيبت القرون وأهرمتها وهى باقية تمر عليها السنون قرنا بعد قرن وتشيب وتنتهى وهى باقية أديل منها واقتص ونالها من نال غيرها عاشيته وأفنته ، فتراها عند الظهيرة بيضاء الشعاع قد فقدت حمرتها حتى كادت تنقلب إلى بياض خالص .

معلقة تنظر صـــولجانا ... يخر عن السماء بها لعابا(١)

تعد بها على الأمم الليالى ... وماتدرى السنين ولا الحسابا (٢)

ويا وطنى لقيتك بعد يأس ... كأنى قد لقيت بك الشبابا(٣)

وكل مسافر سيؤوب يوما ... إذا رزق السلامة والإيابا(٤)

ولو أنى دعيت لكنت دينى ... عليه أقابل الحـــتم المجابا(٥)

أدير إليك قبل البيت وجهى ... إذا فهت الشهادة والمتابا(٦)

---

(١) لعاب الشمس شىء كأنه ينحدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة ، والصولجان العصا المعوجة الطرف .

المعنى : وهذه الشمس معلقة فى الجو كأنها تنتظر صولجانا ينزل إليها من السماء وهو الذى يسمى لعاب الشمس ، ويكون ذلك فى وقت الظهيرة ، وفى البيتين حسن التعليل حيث جعل بياض الشمس وقت الظهر ووقوفها فى وسط السماء بالتعليق فى الجو لانتظار الصولجان المسمى بلعاب الشمس شيبا .

(٢) يحسب حساب الأيام والليالى بســـير الشمس ، وتحسب أعمار الأمم والأفراد والجمادات والحيوانات بها ، وهى لاتعرف السنين ولاتدرى الحساب .

(٣) عند ماعدت إليك ياوطنى بعد يأس من العودة اليك ، كأنى رجع إلى الشباب الذى لايعود ، فقد كنت يائسا جدا من عودتى اليك .

(٤) وكل مسافر وغائب عن وطنه سيعود اليه ، إذا رزقه الله السلامة وقدر له الإياب والعودة .

(٥) الحتم المجاب : هو الموت . دعيت : نوديت .

المعنى : ولو أن أجلى وافانى ، ودعانى الله إلى جواره ، لكنت ياوطن دينى الذى به أقابل الموت . وعلى حبه ألقى الله تعالى .

(٦) أتوجه إليك قبل أن أتوجه إلى البيت الحرام وهو الكعبة قبلة المسلمين عند ما أنطق بالشهادتين وأتوب إلى الله من ذنوبى ، لتمكن حبك فى قلبى .

وقـــد سبقت ركائبي القوافي   مقيـــدة أزمتها طرابا(١)
تجوب الدهر نحوك والفيـافي   وتقتحم الليـالي لا العبابا(٢)
وتهديك الثناء الحر تاجا   على تاجيك مـؤتلقا عجابا(٣)
هدانا ضـوء ثغرك من ثلاث   كما تهدى (المنورة) الركابا(٤)
وقد غشى المنـار البحر نوراً   كنار الطور جللت الشعابا(٥)
وقيل الثغر فاتأدت فأرست   فـكانت من ثراك الطهر قابا(٦)
فصفحا للزمان لصـبح يوم   به أضحى الزمان إلى تابا(٧)

---

(١) وقد سبقت أشعارى فيك ركائبي إليك ، وقد أخذت الأشعار بمقاليد أزمة ركائبي حال كون هذه الركائب طربة أى مسرورة بقدومها إليك .

(٢) تقطع أشعارى إليك الدهر والفيافي والقفار ، وتقتحم الليالي حتى تصل إليك .

(٣) وتهدى إليك الثناء الخالص عن الشوائب فيكون هذا الثناء تاجاً مضموما إلى تاجيك ، ومصر لها تاجان فى التاريخ السابق : تاج الوجه البحرى وتاج الوجه القبـــلى .

(٤) لما قاربنا الوصول إليك رأينا ضوء ثغرك وهو الإسكندرية قبل وصولنا بثلاث ليال فهدانا اليك كما تهدى المدينة المنورة ركاب الزائرين لها .

(٥) جلل الشيء : غطاه وعمه ، الشعاب : جمع شـعب وهو القطعة من الأرض المتشعبة منها .

المعنى : غمر منار الإسكندرية البحر بالنور كما غمرت نار الطور التى رآها موسى عليه السلام شعاب الوادى الأيمن .

(٦) وقيل لنا هذا ثغر الإسكندرية ، فتمهلت السفينة وألقت مراسيها فكانت قاب قوسين أى قريبة من ثرى ترابك الطاهر .

(٧) وبعد وصولى إليك صفحت عن الزمان وما يلاقى به صفحا ، فإن الصبح فى هذا اليوم الذى وصلت فيه إليك يعتبر توبة من الزمان عما جناه على .

وحيا الله فتياناً سماحاً ... كسو عطفي من فخر ثياباً(١)
ملائكة إذا حفوك يوماً ... أحبك كل من تلقى وهابا(٢)
وإن حملتك أيديهم بحوراً ... بلغت على أكفهم السحابا(٣)
تلقونى بكل أغر زاه ... كأن على أسرته شهابا(٤)
ترى الإيمان مؤتلقاً عليه ... ونور العلم والكرم اللبابا(٥)
وتلمح من وضاءة صفحتيه ... محيا مصر رائعة كعابا(٦)
وما أدبي لما أسدوه أهل ... ولكن من أحب الشيء حابى(٧)

---

(١) حيا الله أصدقائي ومستقبلي من الشباب السمح ، الذين لقوني بالترحاب والثناء حتى كأنهم ألبسوني من الفخر والعز ثيابا .

(٢) هؤلاء الشباب كالملائكة إذا حفوا بإنسان يحبه من يراه ويجله ويهابه .

(٣) إذا حملك هؤلاء الشباب على أكفهم الكريمة كالبحور فإنك تطاول السماء مجداً وعزاً .

(٤) قابلني هؤلاء الشباب وفيهم كل أغر أبيض الوجه زاهي الحسن كأن على أسرة وجهه شهاباً مضيئاً .

(٥) لباب الشيء : خالصه .

المعنى : يرى الرائي الإيمان متألقاً على وجوههم ويرى نور العلم وسيما الكرم الخالص من الشوائب .

(٦) الوضاءة : الحسن والجمال .

المعنى : ويرى الرائي من وضاءة صفحة وجوههم وجه مصر الرائعة كالشابة الحسناء ناهدة الثديين .

(٧) وليس أدبي وشعري أهلاً لما لقوني به وما أسدوه من الجميل بتكريمهم لي ، ولكنهم يحبونني فيحابونني بالزيادة على ما أستحقه ، ومن أحب إنساناً حاباه وزاد في إكرامه له ، وهذا تواضع من الشاعر .

شباب النيل إن لكم لصوتا ... ملبى حين يرفع مستجابا(١)
فهزوا العرش بالدعوات حتى ... يخفف عن كنانته العذابا(٢)
أمن حرب البسوس إلى غلاء ... يكاد يعيدها سبعا صعابا(٣)
وهل فى القوم يوسف يتقيها ... ويحسن حسبة ويرى صوابا(٤)
عبادك رب قد جاعوا بمصر ... أنيلا سقت فيهم أم سرابا؟(٥)
حنانك واهد للحسنى تجارا ... بها ملكوا المرافق والرقابا(٦)
ورقق للفقير بها قلوبا ... محجرة وأكبادا صلابا(٧)
أمن أكل اليتيم له عقاب ... ومن أكل الفقير فلا عقابا؟(٨)

(١) ياشباب النيل إن صوتكم حين يرفع بالنداء يجاب ويلبى ويستجيب الله دعاءكم.

(٢) فادعوا حتى يهتز عرش الله لدعائكم فيخفف عن مصر ـ كنانة الله فى أرضه ـ ماهى فيه من العذاب .

(٣) فهل ننتقل من محاربتنا للانجليز هذه الحرب الشعواء التى تشبه حرب البسوس فى الجاهلية ، إلى الغلاء الفاحش الذى يكاد يكون كغلاء يوسف سبع سنوات صعاب عجاف

(٤) الحسبة : الحساب . والمعنى : وهل فى مصر من هو كيوسف عليه السلام فيتقى هذا الغلاء ويحسن فى علاجه ويرى الرأى الصواب لتلافيه .

(٥) فيارب إن عبادك بمصر قد جاعوا وفيها النيل الذى سقته يجلب الخير والخصب ، فهل هذا نيل أو عذاب .

(٦) فيارب حنانك ورحمتك ، واهد تجار مصر الذين ملكوا رقاب الناس ومرافقهم باختزان الطعام والحاجيات للطريقة الحسنى ، حتى يخففوا من جشعهم ومغالاتهم فى الأثمان .

(٧) ورقق للفقراء قلوب هؤلاء التجار التى تحجرت ، ولين أكبادهم الصلبة ، حتى يعطفوا على الفقراء الذين لايجدون أثمان قوتهم .

(٨) فهل آكل مال اليتيم تعاقبه بالنار وتغضب عليه ومن أكل الفقراء وضيق عليهم عيشهم ليس له عقاب ، وهذا استنجاز من الشاعر لعقاب الله حتى ينزل بالتجار الجشعين .

أصيب من التجار بكل ضار ... أشد من الزمان عليه نابا(١)
يكاد إذا غــذاه أو كساه ... ينــازعه الحشاشة والإهابا(٢)
وتسمع رحمة الله فى كل ناد ... ولست تحس للبر انتدابا(٣)
أكل فى كتاب الله إلا ... زكاة المال ليست فيه بابا(٤)
إذا ما الطاعمون شكوا وضجوا ... فدعهم واسمع الغرثى السغابا(٥)
فما يبكون من ثكل ولكن ... كما تصف المعددة المصابا(٦)
ولم أر مثل سوق الخير كسبا ... ولا كتجارة السوء اكتسابا(٧)

---

(١) لقد أصيب الفقير من التجار بأمثال السباع الضارية ذات الأنياب الحادة التى هى أشد وأفتك من الزمان الذى صار عليهم هو الآخر سبعا ضاريا .

(٢) الحشاشة : بقية الروح فى المريض . الإهاب : الجلد . المعنى : يكاد التاجر إذا باع للفقير غذاء أو كساء يطلب منه حشاشته وأمعاءه وجلده ثمنا لما يعطيه .

(٣) وتسمع من الناس فى كل مكان رحمة بالفقراء كلاما فقط ، ولا تحس من ينتدب لعمل البر ويتطوع به ويفعله فيعمل بكلامه .

(٤) فهل كل العبارات موجودة فى كتاب الله إلا زكاة المال ليست فيه ، لقد نسى الأغنياء زكاة المال حتى كأن الله يأمر بها وليست موجودة فى كتاب الله .

(٥) الغرثى : جمع غرثان وهو الجائع . السغاب : جمع ساغب وهو الجائع أيضا . المعنى : إذا سمعت الواجدين للغذاء والكساء يشكون من الغلاء فلا تنظر إليهم وانظر للغرثى الجائعين الذين لايجدون شيئا .

(٦) فإن هؤلاء الواجدين لايبكون لألم عندهم ، ولكنهم يتظاهرون بالبكاء والشفقة ، كما تتظاهر المعددة فى المآتم بالحزن ، وشدة وقع المصاب عليها .

(٧) وليس مثل التجارة فى الخير وسوقها ما يعدلها فى الكسب الطيب وليس كتجارة السوء والشدة والمغالاة فى الأثمان جريمة تكتسب .

ولا كأولئك البؤساء شاء   إذا جوعتها انتشرت ذئابا(١)

ولولا البر لم يبعث رسول   ولم يحمل إلى قوم كتابا(٢)

تحليل القصيدة :

وهـــذه القصيدة الرائعة من عيون الشعر العربي الحديث ، وهي في نسجها وأسلوبها وألفاظها وموسيقاها وخيالها ومعانيها شوقية اللحم والعظم والعصب والدم، فيها روائع من الحكمة التي كان شوقي يستوحيها من تجاربه وثقافته وعقله . وقد هزت هذه القصيدة المحافل الأدبية في مصر والشرق العربي حين عاد شوقي إلى وطنه من منفاه في أرض الأندلس الخالدة .

والغرض العام من القصيدة هو استقبال الشاعر لوطنه بعد عودته من المنفى ، وقد ألم الشاعر فيها بمعان وأغراض عديدة .

(ا) فقد بدأها بالحديث عن الآثار الأندلسية العريقة في المجد والتاريخ والتي طالما وقف فيها الشاعر يتأملها ويناديها ويستلهمها غر القصيد وروائع النظم ، ويبكي في رسومها ، ويقبل ثراها ، وينثر الدموع في دمنها الباليات ، من حيث ينظم ألحان الغزل والنسيب في وصف جمال الجميلات ، ويتمتع بوصالهن في رحلاته إلى الآثار الخالدة ، ويتذكر ماضيها المجيد ، وتاريخها العريق بالفخر والإعجاب .

(ب) ثم تحدث الشاعر عن وداعه للأندلس ، فأتى على أهلها ، وذكر طيب إقامته في المنفى بينهم ، وكيف كان سعيداً بهذه الإقامة ، وكيف حزن لفراقه لها ، ووداعه إياها ، وكيف كان يستريح في أرضها من حسد الحاسدين وخيانة الخائنين .

---

(١) وإن هؤلاء البؤساء كالحملان الوادعة ولكنها إذا جاعت صارت ذئابا ضارية تفتك بمن تجده أمامها ، يحذر الشاعر الأغنياء من ثورة الفقراء عليهم .

(٢) وإن الله قد بعث الرسل بالبر والخير والإحسان وأرسل معهم الكتب بالحق والعدل ، ولولا هذا لما أرسل الله رسله ولا أنزل كتبه ، فعلى الأغنياء الذين يدعون الإيمان بالرسل أن يعملوا البر ويرحموا الفقراء .

(ج) ثم تحدث عن ماضى الأندلس ، وماضى قصورها ومدنها الزاهرة التى كان من أروعها « الزهراء » التى لم يبلغ مبلغها فى عظمة البناء وروعة الصنعة قصر ولا مدينة فى الزمن القديم ، وأشاد بتاريخ الأمة العربية فى الأندلس ، وكيف جرى كدرا بها صفو الليالى .

(د) ثم وصف الشاعر فرحه بلقاء وطنه ، وعودته لبلاده ، وما أجمل قوله « كأنى قد لقيت بك الشبابا » وقد أتى هنا بمعان خالدة فى حب الوطن ، كقوله « ولو أنى دعيت لكنت دينى ـ البيت » .

ووصف الشاعر حنينه لوطنه ، وفرحه به وهو راكب السفينة فى البحر وكيف كان ضوء ثغر الاسكندرية يهدى السفينة من بعيد ، كما تهدى المدينة المنورة ركاب السائرين إليها ، ووصف أشعة المنارة وهى تملأ البحر نوراً ، وكيف وقفت السفينة بالميناء ، ثم دخلت إليه فى رفق ولين .

(هـ) ثم تحدث الشاعر عن استقباله فى أرض الوطن ، وحيى مستقبليه والمرحبين به ، وذكر فى تواضع أن شاعريته ليست هى كل شىء دفع هؤلاء المستقبلين لكى يحفوا لاستقباله ، إنما هو حسن الظن والعطف والإكرام والمحاباة .

(و) ثم تحدث عن أزمة الغلاء الشديد فى مصر ، وطالب التجار بالتخفيف من جشعهم وطمعهم فى كسب المال من شتى الطرق ، وطالب برحمة الفقير وإنقاذه من براثن المستغلين والجشعين .

(ز) ثم حث على البر والرحمة وأداء الزكاة ، علاجا للفقر ومشكلاته ، وتخفيفا من ويلات الفقراء ، وذكر أن البر والرحمة من أهم شعائر الإسلام وأصوله واشتراكيته العادلة .

وبذلك تنتهى هذه القصيدة .

والقصيدة فى جملتها جيدة رصينة مهذبة عديدة المعانى والأخيلة ، كثيرة الحكم التى من روائعها : البيت السابع ، والسابع عشر ، والثانى والعشرون ، والسابع والعشرون ، والواحد والخمسون ، والبيت الأخير من القصيدة .

شاعرية شوقي من القصيدة :

وشوقي كما تراه في هذه القصيدة شاعر مجيد مطبوع محلق ، له ذوقه العربي ، وأسلوبه الأنيق ، وحكمته الرائعة ، وخياله العبقري ، وبلاغته المتدفقة .

وكان شوقي شاعراً مطبوعا مطيلا ، مجيدا رغم إطالته ، وكان يتأثر خطى القدماء في الشعر مع لون من التجديد الذي يسمح به عصره ، ولا يتنافى مع ذوقه العربي ، وكان يحلق ، وما عرفناه انخذل يوماً في تحليقه أو إسفافه عن مواقف العبقرية . ولئن كان شعره في شبابه مأسور الفكر ، محصور الخيال ، محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأي القصر ، ولا يصور إلا ألوان البيئة التي يعيش فيها ، فلقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذهولا منه عن وجوده ، وقديماً كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة العبقرية ، فلما أعتقته الحرب من رق الوظيفة ، وأطلقته انجلترا بالنفي إلى الأندلس ، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فحلق بخياله في كل جو ، وسطع بعقله في كل أفق ، وشدا بالإسلام والعروبة والمصرية شدوا ردده كل لسان ، واهتز له كل قلب ، ثم زاد في القيثارة العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصي والشعر التمثيلي إلى شعرنا الغنائي ، فكان بذلك الشعر شاعرا عبقريا .

وشوقي كله من صنع الطبيعة ، ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً ، فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه في مكانه ، ولا يزنه بميزانه ، كما يقول الزيات . اقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر في أثره حسك ، فإذا وجدت ذهنك يشتعل وشعورك يشتغل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك يرتاح لذوقه ، فثق أنك بإزاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه بالقيود .

موازنة أدبية :

وهذه موازنة أدبية بين قصيدة لشوقي وأخرى للحصري :

قال أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الضرير المقرىء القيرواني الملقب بالحصري المتوفى ٤٨٨ هـ :

يا ليل ، الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

رقد السمار وأرقه   أسف للبين يردده

فبكاه النجم ورق له   مما يرعاه ويرصده[1]

كلف بغزال ذى هيف[2]   خوف الواشين يشرده

نصبت عيناى له شركا   فى النوم فعز تصيده

وكفى عجبا أنى قنص[3]   للسرب سبانى أغيده[4]

صنم للفتنة منتصب   أهواه ولا أتعبده

صاح والخمر جنى فمه   سكران اللحظ معربده

ينضو من مقلته سيفاً   وكأن نعاساً يغمده

فيريق دم العشاق به   والويل لمن يتقلده[5]

كلا لاذنب[6] لمن قتلت   عيناه ولم تقتل يده

يامن جحدت عيناه دمى   وعلى خديه تورده

خداك قد اعترفا بدمى   فعلام جفونك تجحده ؟

إنى لأعيذك من قتلى   وأظنك لا تتعمده

بالله هب المشتاق كرى   فلعل خيالك يسعده

ما ضرك لو داويت ضنى   صب يدنيك وتبعده

لم يبق هواك له رمقا   فليبك عليه عوده

وغدا يقضى أو بعد غد   هل من نظر يتزوده ؟

---

(١) رصده بالخير وغيره يرصده رصدا ورصدا : رقبه .

(٢) هو ضمور الخصر .

(٣) القنص : ما اقتنص .

(٤) الأغيد من النبات : الناعم المتثنى ، والوسنان المائل العنق من الناس .

(٥) تقلد السيف : حمله .

(٦) الذنب : الاثم . «وكلا» تأتى بمعنى حقا وبمعنى ألا التنبيهية وبمعنى لا النافية .

يا أهل الشوق لنا شرق(١) ... بالدمع يفيض مورده
يهوى المشتاق لقاءكم ... وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه ... لولا الأيام تنكده
وبالبين وبالهجران فيا ... لفؤادي كيف تجلده ؟

معارضة شوقى للقصيدة :

مضناك جفاه مرقده ... وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه ... مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا(٢) إلا رمقا(٣) ... يبقيه عليك وتنفده
يستهوى(٤) الورق(٥) تأوهه ... ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه ... ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة(٦) ... شجنا فى الدوح تردده
كم مد لطيفك من شرك(٧) ... وتأدب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه ... ولعل خيالك مسعده

---

(١) الشرق : الشجا والغصة والشرق بالماء والريق ونحوهما ، كالغصص بالطعام ، والشرق : دخول الماء فى الحلق حتى يغص به ، مورده : يقال ورد فلان أى حضر وأورده غيره وتورده كورده أحضره فورده اسم مكان من ورده .

(٢) الحرق : من حرقته النار ، وفى الحديث الحرق والغرق والشرق شهادة ، وفيه أيضا الحرق شهيد .

(٣) الرمق : بقية الحياة .

(٤) يستهوى : يستهيم ويحير

(٥) الورق : جمع ورقاء وهى الحمامة والورقة السمرة .

(٦) المطوقة : الحمامة التى فى عنقها طوق .

(٧) الشرك : حبائل الصيد.

الحسن حلفت بيوسفه ... والسورة أنك مفرده
قد ود جمالك أو قبسا ... حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة ... يدها لو تبعث تشهده
جحدت عيناك زكى دمى ... أكذلك خدك يجحده؟
قد عز شهودى إذ رمتا ... فأشرت لخدك أشهده
وهممت بجيدك أشركه[1] ... فأبى واستكبر أصيده[2]
وهززت[3] قوامك أعطفه ... فنبا وتمنع أملده
سبب لرضاك أمهده ... ما بال الخصر يعقده
بيني فى الحب وبينك ما ... لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى ... باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجن به ... فأقول وأوشك أعبده
مولاى وروحى فى يده ... قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق له ... وحنايا الأضلع معبده
حمادى فيه أعذرهم ... وأحق بعذرى حسده
قسما بثنايا لؤلؤها ... قسم[4] الياقوت منضده
ورضاب يوعد كوثره ... مقتول العشق ومشهده[5]
وبخال كاد يحج له ... لو كان يقبل أسوده

---

(١) أشركه ، أشركه بفتح الهمزة وبضمها ، من شركه .

(٢) الأصيد : الذى يرفع رأسه كبرا ومنه قيل الملك أصيد لأنه لايلتفت يمينا أوشمالا والفعل صيد يصيد .

(٣) هززت قوامك : من هززت فلانا لخير فاهتز أى حركته فتحرك .

(٤) قسم : كفرح ومنضد اسم مفعول أواسم فاعل .

(٥) مشهده : أشهد الرجل إذا استشهد فى سبيل الله فهو مشهد ، ومنه : أنا أقول سأموت مشهدا .

وقوام يروى الغصن له ... نسبا والرمح تقشده
وبخصر أوهن من جلدى ... وعوادى الهجر تبدده
ما خنت هواك ولا خطرت ... سلوى بالقلب تبرده

حكمنا على القصيدتين :

هاتان القطعتان فى غرض واحد من الغزل ، وجاءتا على وزن واحد هو المتدارك ، وعلى روى واحد هو الدال الموصولة بالهاء .

وقد سبق الحصرى بالموضوع والوزن والروى وأغلب المعانى والصور والأخيلة ، وجاء شوقى فعارض الحصرى ، بالنظم فى الموضوع نفسه وعلى نفس الوزن والروى ، وتأثر فى أغلب قصيدته بمعانى الحصرى وأخيلته وصوره الشعرية .

ومثل ذلك الاحتذاء الفنى يسمى معارضة ، وللشاعر السابق فضيلة السبق ، ومع ذلك فنحن لا نجرد الشاعر الذى تلاه وعارضه من كل منقبة ومأثرة ، بل نحكم بين الشعرين ، ونوازن بين القصيدتين ، فإذا زاد الشاعر المتأخر فى معانيه وأخيلته ، أو حاز شرفا بأسلوبه وصياغته كان له من الفضل مثل ما للشاعر المتقدم ، وإن ساوى الشاعر الذى يعارضه أو قصر عنه ، حكمنا عليه بالقصور والتأخر والضعف وعدم القدرة على مجاراة الشاعر الذى عارضه .

وإذا أردنا أن نوازن بين القصيدتين ، وجب علينا أن نبحث عن مدى الاتفاق أو الاختلاف بين الشاعرين فى المعانى ، وعن مدى التقارب والتباعد بينهما فى الصور والأخيلة ، ومن أجل ذلك نقول :

١ — بدأ الحصرى قطعته بوصف طول الليل على المحب المتيم ، حتى كأن الليل عليه ليس له نهاية وليس له غد مشرق بضوء الصباح ، فكأن هذا الليل لطوله موصول بنهاية عمر الحياة وبقيام الساعة ، فلا يشرق له غد إلا بها ، وهذا المعنى مألوف للشعراء لاجدة فيه ولا ابتكار ، وامرؤ القيس هو السابق إليه بقوله :

ألا أيها الليل الطويل ، ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وإن كان بين بيت امرىء القيس وبين بيت الحصرى فرق شاسع ، هو الفرق بين الطبع والصنعة ، وبين البداوة والحضارة فى الشعر ، وبين السذاجة والعمق فى المعنى الشعرى ، فبيت الحصرى من أجل ذلك يمتاز على بيت امرىء القيس بالمبالغة والعمق والخيال المحلق ، فوق ما يمتاز به من عذوبة الأسلوب ، ورقة الألفاظ ، وهذا الاستفهام البليغ فى « متى غده ؟ » وفى الشطر الثانى كله . . . وهذا المعنى الذى يمثله البيت الأول من قصيدة الحصرى لا نظير له فى قصيدة شوقى

٢ ـ وفى البيت الثانى يصف الحصرى أرق المحب وسهره فى هذا الليل الطويل ، ويصور كيف نام السمار من حوله ، وبقى هو مؤرق الجفن ، موصول الذكر ، مشتت الفكر ، دائم الشجن ، يتذكر الفراق ، فيزداد أسفه ، وتهطل عبراته ، ويدوم أرقه ، من أجل ما هو فيه ،

وهذا المعنى ، وهو أرق المحب وسهره من أجل تذكره الفراق ، وبكائه لبين أحبابه ، معنى قديم نظم فيه الشعراء فى مختلف العصور ، وقال فيه المتنبى :

أرق على أرق ومثلى يأرق   وجوى يزيد وعبرة تترقرق

ولكن الحصرى أبلغ وألطف ، بهذا الطباق الجميل فى « رقد ، وأرق » فقد ذكر صورتين : صورة السمار وقد ناموا ، وصورة المتيم الغزل وقد سهر وأرق ، ثم لم يكتف الحصرى بذلك ، بل ذكر سبب الأرق وعلته ، وهو الأسف المردد من أجل الفراق وخطوته ، فكان أرفع معنى وأعمق فكرة ، وله فوق ذلك عذوبة الأسلوب ، وموسيقى الألفاظ وجمال الصور ، ويقابل هذا البيت بيت شوقى الأول « مضناك جفاه مرقده » ، وشوقى يكنى عن الأرق بهذه الكناية الجميلة « جفاه مرقده » ، ويزيد فى الصورة بلاغة بقوله : « مضناك » التى استعطف بها قلب محبوبه القاسى ، ثم يزيد فى المعنى كذلك بقوله : « وبكاه إلى آخر الشطر الثانى كله » ، من حيث زاد عليه الحصرى بقوله : « رقد السمار » وبذكره العلة فى هـــذا الأرق ، وإن كان شوقى قد أشار إلى بعض هذا بقوله : « مضناك » .

٣ ـ وفى البيت الثالث يذكر الحصرى أن هذا المحب لطول سهره صار صديق النجوم ، يرعاها وترعاه ، فهى تبكيه وترق له ، وترثى لحاله ، وهذا المعنى مألوف قديم ، ولكن الحصرى جوده واختصره وأداه فى اسلوب جميل ، وجاء شوقى فعبر عن هذا المعنى خير تعبير ، وصوره أجمل تصوير ، فى قوله :

يناجى النجم ويتعبـــه ويقيم الليـــل ويقعده

فبلغ فى عذوبة الأداء مبلغاً كبيراً وزاد على الحصرى بقوله الجميل «ويقيم الليل ويقعده» ، وإن كان الحصرى جعل النجم باكياً على حاله يرق لشأنه ، ويرحمه من أجل عذابه فى الحب .

ويزيد شوقى تفصيلا لذلك ، فيذكر بيتين هما : «يستهوى الورق الخ» ، «ويعلم كل مطوقة الخ» يصف فيهما المحب وطول أنينه وتأوهه وأن الطـــير يستهويها هذا الأنين والتأوه الذى يذيب الصخر ، فهى ترددهُ وتقتبس منه النغم تشدو به فى الدوح ، وتترنم به فوق الأفنان . وشوقى يفصل بين هـذين البيتين ببيت آخر هو قوله : «ويناجى النجم الخ» ، وهذا لا شك عيب يؤاخذ عليه شوقى ، إذ فصل بين معنيين متلازمين بمعنى آخر لاصلة له بهما ، مما يؤدى إلى عدم تسلسل معانيه وارتباطها واتصالها ، وإلى ضعف وحدة القصيدة ، ومع ذلك فلشوقى فضيلة العذوبة والرقة فى الأداء والتصوير فى بيته الرابع والخـامس والسادس ، والرقة والعذوبة ألزم شىء للشاعر فى مقام الغزل ، وموقف الحب والهيـــام .

٤ ـ ٦ ـ ويصف بعد ذلك الحصرى فى بيته الرابع هيامه وكلفه بحبيبه الجميل ، وبعد حبيبه عنه خوفا من الوشاة ، ويذكر فى بيته الخامس أنه أراد أن يتمتع بزيارة طيف الحبيب له فى النوم ، حين نامت عيناه ، وقامتا مقام الشرك الذى ينصب لاصطياد الطيف فى الأحلام ، وأنه مع ذلك كله لم يحظ بشىء ولا برؤية طيف حبيبته حتى فى المنام ، وفى البيت السادس يذكر أنه وقد فشل فى صيد طيف الحبيب ، وقع هو قنصاً وفريسة لهذا الأغيد الذى سباه وهو يسير فى سرب من أترابه وأقرانه العذارى الجميلات .

ثلاثة أبيات أتى بها الحصرى تمثل أجمل الصور ، وأرفع الخيالات ، وأدق المعانى ، وقد ألم شوقى ببعض هذه المعانى فى بيتيه «كم مـــد ، فسباك بمنعض» ،

ولكن شوقيا لايبلغ فى بيته مبلغ الحصرى فى الإحاطة بالمعنى وتفصيله وشموله ودقة إحكامه ، وإن ظهرت آثار الحضارة فى شعر شوقى ظهوراً أكثر منه فى شعر الحصرى ، وقد جعل شوقى السر فى عدم زيارة طيف حبيبه له فى الأحــــلام هو تأدب المحب مع محبوبه من حيث جعل الحصرى السر فى ذلك هو نفار الحبيب ودلاله ، فكان شوقى أبلغ وأكثر مجاراة للحضارة .

٧ — وفى البيت السابع يصف الحصرى حبيبه بأنه تمثال مجسم للفتنة والجمال ، ويقف هو أمام هذا التمثال محبا لاعابداً ــ والشطر الأخير احتراس فى نهاية البلاغة .

٨ - ١١ - وفى هذه الأبيات يصف الحصرى حبيبه بأوصاف شتى من أوصاف الجمال ، يصفه بعذوبة الريق ، وفتور اللحظ وعربدته ، وبسحر الطرف وسقمه حتى لكأنه سيف معرى من غمده يفتك بالمحبين ويريق دماءهم ، ولذلك فهو مطالب بهذه الأرواح ، أرواح محبيه التى سفك دمها ، ومن ثم فالويل لهذا الحبيب ممن يطلبون منه ثأرهم ، ثم استدرك الحصرى فقال : وعلام يطلبون الثأر منه فما عليه من جناح ، ولا ذنب لمن قتلت عيناه ولكن لم تقتل يده ، فلم يحمل سلاحا ، ولم يسفك بهذا السلاح دما ــ ثلاثة أبيات متصلة محكمة دقيقة المعنى أتى بها الحصرى فأجاد فيها ، وعمق فبلغ بهذا العمق غاية الروعة .

١٢ - ١٤ - ثم ينتقل الحصرى فى البيت العاشر والحادى عشر «يامن جحدت خداك» إلى تصوير حبيبه السافك لدم هذا المحب المتيم وقد جحدت عيناه دم من قتلت ، واعترف خداه بدم المقتول من أجل وردهما وحمرتهما وتملؤهما بالدم المسفوك ، ومع ذلك فالمحب المقتول يبالغ فى التأدب مع الحبيب القاتل ، فيعيذه من جريرة القتل ومن تعمده ، وذلك فى البيت الثانى عشر «إنى لأعيذك» .

معنى واحد متصل محكم دقيق عميق ، صوره الحصرى فى أرفع صورة وأروع خيال فى هذه الأبيات الثلاثة ، وقد أتى شوقى به فى أبياته : «جحدت عيناك» وما يليه ، وهذا الاستفهام الإنكارى عند شوقى وهو «أكذلك خدك يجحد» ؟ بليغ غاية البلاغة .

١٥ — ١٨ وفى هذه الأبيات يطلب الحصرى من حبيبه أن يهب له النوم ،

ليرى خياله فى الأحلام ، فقد يكون فى ذلك دواء لضناه ، وشفاء لسقمه ، الذى بلغ الغاية ، حتى أصبح شبحا مما أصابه فى الحب ، فعوده لاشك أنهم فى غدهم باكوه أو بعد غد ، وما ألطف أسلوب الحصرى فى هذه الأبيات ، ما أبلغ قوله « بالله هب المشتاق كرى » ، وقوله « ماضرك » ، وقوله «يدنيك وتبعده» ، وقوله « هل من نظر يتزوده ؟ » . . . صور جميلة ، وأخيلة عذبة ممتعة ، وفى قطعة شوقى شىء مما يناظر ذلك فى أبياته : « فصباك يغمض مسعفه » ، و « أودى حرقا » ، ولكن شوقيا متخلف عن الحصرى ، لا يبلغ مبلغه فى الجـودة والروعة والتصوير .

١٩ - ٢٢ أما هذه الأبيات الأخيرة فهى استعطاف وشكوى من الشاعر ، بعد أن بلغ الرمق الأخير .

وشوق ينفرد بأبياته الثلاثة عشرة الأخيرة من قوله :

سبب لرضاك أمهـــده ما بال الخصر يعقده ؟

وهى أبيات رائعة المعانى جميلة الأخيلة ، رفيعة الصور ، عذبة الأسلوب ، رقيقة الألفاظ ، تنم عن ذوق متحضر ، وملكة شاعرة ، ومحب متيم يعرف أدب الحب ، وبها يستحق شوقى الفضل ، ويبرز فى الميدان .

والخلاصة أن شوقيا فيما عارض فيه الحصرى من المعانى والأخيلة والصور : ضعيف بعض الضعف حيناً ، ومتخلف غاية التخلف حينا آخر ، ولكنه فيما أتى به فى قصيدته استقلالا من غير معارضة يكاد يبلغ غاية رفيعة من البـــلاغة . . ونظهر فى قطعة شوقى على أية حال صور من الثقافة الشعرية المهذبة ، وألوان من ترف الحضارة وجمالها الباهر ، وللحصرى بعد ذلك كله فضيلة السبق ، ولشوقى شرف المعارضة والوقوف فى الميدان مع شاعر متفوق مبرز بين الشعراء يقول فيه ابن بسام :

« بحر براعة ورأس صناعة وزعيم جماعة ، طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة ، بعد خراب وطنه القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق معمور الطريق ، فتهاداه ملوك الطوائف تهادى الرياض بالنسيم ،

وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم ، ولكنه لم يطمئن هناك بعد خلع ملوك الطوائف ، فعاد إلى مدينة طنجة وتوفى بها .

وقد قلد قصيدة الحصرى أيضا الشاعر إسماعيل صبرى . والشاعر ولى الدين يكن ، ومطلع قصيدة ولى الدين :

الحسن مكانك معبده والحظ فؤادي مغمده
ياسيدتى هذا حر لم يعرف قبلك سيده

ومنها :

للصبح سناؤك أبيضه لليل غرامى أسوده
أحببت قلاك فطلقه عندى عذب ومقيده
إن ضل حنانك عن قلبي فأنا بولوعى أرشده
قد بات دلالك يخذله وجمالك كان يؤيده
زيدى تيهاً أزدد كلفاً كلفى إن رث أجدده
(شوقى) إن بنت يضاعفه (صبرى) إن جرت يؤكده
خلان هما شمسا فلك طرفى مع طرفك يرصده
فصلى بالله ولو حلما (مضناك جفاه مرقده)
وعديه اليوم ولو كذبا الصب يماطله غده

رأى لشاعر القطرين فى شوقى :

قال عنه مطران : ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم ، وينظم فى المركبة وفى السكة الحديدية وفى المجتمع الرسمى وحين يشاء وحيث يشاء . ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتوترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة .

فإذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه : حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعادته فى الحديث .

ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد اليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهراً ما تم منه ، حافظا لبقية المعنى الذى يضمره .

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ، ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة .

يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبذهم(1) لايجهد فكره ، ولا يكد فى معنى أوفى مبنى .

فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده ، لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب فى لغات الأفرنج والإعراب فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استفادها من مطالعته فى صنوف الكتب واتخذها عن ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب .

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة تعدد مقامات القول . ترى فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبى تمام ومن وثبات المتنبى ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار .

وفى المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهى أنه نظم شوقى .

---

(1) بذه : غلبه .

حافظ إبراهيم شاعر النيل[1]

١٢٨٨ = ١٨٧٢ — ١٣٥١ = ١٩٣٢

— ١ —

عاش حافظ وكأنه كان يحس الحياة بأعصاب عارية ، وكان همه أن يتلق — بهذه الأعصاب الحساسة — وقع الحياة ثم ينقلها إلى الناس مصورة فى شعر جزل رصين ، سهل الورود على الأذن سريع النفاذ إلى القلب ، وكان يرسل نفسه على سجيتها بلا تكلف او تعمل ، فلا يذهب يتصيد النافر من المعانى ولا يحاول الإغراب فى لفظ أو فكرة ، وإنما دأبه أن يخاطب القلوب من أقرب طريق ، وكان إلى هذه البساطة التى امتاز بها فى العرض مخلصا صادق السريرة ، جم الإخلاص ، والنفوس معايير حساسة ، لايجوز عليها الزيف ، ولايدخل عليها التصنع والغش ، ولا يخدعها التزويق والدجل .

وقد اقترنت حياته الأدبية بالنهضة القومية ، وكان شعره من أقوى العوامل فى هذه النهضة ، ومن أسبق مقدماتها أيضا وأحقها بالذكر ، وقد عقد حافظ أخراه بأولاه فلم يكد يطلق من إسار الوظيفة حتى عاد يحث النفوس ويحفزها ويستثير شعورها بالكرامة والغيرة . ولحافظ فى هذا ميزة أيضا ، يجب أن تذكر ، فما كان قط فى حياته ساعيا لفرقة أو ماشيا بوقيعة ، وإنما كان أبدا داعية إلى التعاون والتآزر ، إذ كان مفطوراً على الخير عزوفا عن الشر نفوراً منه ، ولقد اختلف المصريون ما اختلفوا فى أحوال وظروف شتى ، فما دخل حافظ بينهم حين بدا له أن يدخل إلا ليؤلف بين القلوب ويجمع الكلمة ، ويوحد الصفوف ، وأحسب أن طبيعة الخير والعطف التى بنى عليها هى التى عدلت به عن السيف إلى القلم ،

---

(١) صدر عنه عدد ممتاز من أعداد مجلة أبولو — يوليو ١٩٣٣ ، وعدد خاص من مجلة السياسية الأسبوعية فى ٢ سبتمبر ١٩٣٢ ، وراجع : كتاب شوقى وحافظ لطه حسين ، وكتاب شوقى وحافظ للصيرفى ، وسوى ذلك من عشرات الكتب .

وبغضت إليه حياة الجندية وأغرته بالأدب .

وكانت حياته كشعره : بساطة تنفر من التكلف ، ووفاء للذين اتصلت أسبابه بأسبابهم ، وكرم عريض يصدر فيه عن مروءة فطرية ولا ينشد من ورائه غاية ، وأنس محضر ورقة حاشية وتواضع محبب وصراحة فى أدب جم وحلم وطيد وإيثار للصفاء ، وكان رحمه الله مليح الفكاهة سريع الخاطر حلو الحديث فياضا ، وقد أعانه على ذلك أنه كان قوى الذاكرة ، حافظا للمختار فى كل باب ، وكان إلى هذا حسن الإلقاء ، ومن حسن إلقائه أنه كان يقطع الكلام على المعانى فيبرزها ويؤكدها ولا يجريه على النظم وحده ، يساعده على ذلك صوت قوى ونبرات موافقة ، فالكلام جاريا على لسانه له ضعف مزاياه حين يسمعه المرء من سواه .

ولقد بدأ حافظ حياته جنديا ، وانصرف عن الجندية وزهد فى الحرب ورغب عن حياة كل ما فيها يذكر بهما ، ولكنه على هذا عاش ما عاش وأبرز مزاياه أنه جندى شهم — جاهد فى سبيل وطنه ، وجاهد فى سبيل لغته ، وجاهد فى سبيل الشرق كله ، وجاهد فى سبيل الخلق الكريم ، وكتب الله له التوفيق فى كل ما جاهد فيه ، فله على اللغة والأدب والوطن والشرق الفضل الذى لا يجحد .

— ٢ —

ولا نزال نذكر جنازة شاعر النيـــل ، واليوم الذى سبق وفاته بالتفصيل والذى قضاه مريضا فى منزله بشارع طومان باى بالزيتون ، وكان حافظ ليلة الحادى والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٣٢ فى مـنزله ومعه السيد على راتب يشكو حافظ إليه شعوره بالمرض ، وفى الصباح كان الدكتور عبد العزيز اسماعيل متوجها لمنزل حافظ ، فإذا هو يصل إلى المنزل وكان قضاء الله قد نزل فى شاعر النيل ، وشيعت جنازة حافظ فى الساعة السادسة عصر اليوم نفسه ، ووصل الجثمان إلى ميدان المحطة وبدأ سير الموكب الرهيب ؛ وكان البشرى يصيح «أهكذا تركتنا يا حافظ» ، وصلى على الجثمان فى مسجد الكيخيا ؛ ثم ووورى الجسد فى مقابر السيدة نفيسة ؛ ورثاه على القبر الحاج محمد الهراوى الشاعر . وعباس العقاد .

وقد ولد المغفور له حافظ بك إبراهيم فى ٤ فبراير سنة ١٨٧٢ ، ومات عن نحو ٦١ عاما .

— ٣ —

وكان الفقيد يقرض الشعر فى أوقات فراغه ويعرضه على أصدقائه المقربين ، فكانوا يجدون فى شعره ميلا إلى الطبيعة وعدم التكلف ورقة الشعور وبراعة التعبير ، وأحسوا أنه لم يخلق إلا ليكون شاعراً ، وكان هو يغذى هذه الروح فى نفسه بالاطلاع .

وعول على خدمة الأدب بالنظم والتأليف ، فترجم جزءين من كتاب البؤساء تأليف فيكتور هوجو ، واشترك مع خليـــل مطران فى ترجمة كتاب « الموجز فى الاقتصاد » وألف كتاب ليالى سطيح وديوانه فى أربعة أجزاء غير الكثير مما لم ينشر ، وأكثر قصائده سياسية وتاريخية واجتماعية وأدبية ودينية وخلقية ، وكان يعطف فى أكثر قصائده على الأمم الشرقية التى كان يحضها على التعاون ويحثها على التقدم بالأخذ بوسائل العلم الحديث .

وكان حافظ قوى الحافظة سريع البديهة حلو الفكاهة سريعها ، إذا قرأ حفظ ما قرأه حتى إنه كان يلقى قصائده المكونة من أكثر من مائة بيت بدون استعانة بورق أو مذكرة .

وكان محبوبا من الجميع محترما مهيبا ، وكان العظماء يأنسون بمجالسته ويرتاحون لى محضره ، وكان وثيق الصلة طول العهد بسعد زغلول والشيخ محمد عبده .

يقول البشرى :

حافظ إبراهيم شاعر ، يحب الجمال ويحتمع له ، ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقى فى القول ولا ينحرف ، وما إن طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه إلا قال له : يا فتى ، ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤد مهراً ! وإذا اطردت نظرية حافظ فلا شك فى أن المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية فلم « يدفع » مهراً بل هو الذى أخذ « الدوطة » .

جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنما قد من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة فى أن يكون إنسانا ، فكان « والسلام » . أما ما يدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقا ، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقا . وأما لون بشرته

والعياذ بالله ، فكأنما عهد به إلى « نقاش » مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان فداف أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجيها ، فخرج مزجا من هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب ، وإنك لو نضوت عنه ثيابه وألبسته دراعة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبة ضافية ، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين ! فاذا جردته كله وأطلقته فى البر حسبته فيلا . أو أرسلته فى البحر حسبته درفيلا ! . . ولكن ! . . ولكن أكشف بعد هذا عن نفسه التى يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية بعد السقام ، ولا الغنى بعد البؤس ، ولا إدراك المنى بعد طول اليأس ، بأشهى إليك . ولا أدخل للسرور عليك من هذا ، حافظ إبراهيم ! خفيف الظل، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة . إذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل إليك أنك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه وتألق ورده ، فأذكرك طلعة الحب : تانك عيناه وهذا خده ! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت ، والبدر فى ملكه بين المجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء فلا تدرى أأمست السماء فى الروض . أم أمسى الروض فى السماء ؟ .

ولم أر قط رجلا أسرع منه حفظا ولا أثبت حافظة ، ولقد تقرأ له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثبا حتى يأتى على غايتها ، وإذا هو قد استظهر أكثر جملها ، أو أبياتها إن كانت قصيدا . وإذا هى ثابتة على قلبه على تطاول السنين ، كذلك لم أر قط رجلا اجتمع له من متخير القول . ومصطفى الكلام مرسلا ومقفى مثل ما اجتمع لحافظ إبراهيم ، فكان حقا له من اسمه أوفر نصيب . وإذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق وهى ، لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب ، لصب على سمعك عصارة الشعر العربى ، وأبدع ما تفضحت به القرائح من عهد امرىء القيس إلى الآن ، ويمكنك أن تعد بحق حافظا أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربى عرف إلى اليوم .

وإذا أردت أن تتعرف لون شعره وإلى أى واد من أودية الكلام ينتسب فارجع إلى أكثر ما يهتف به ويردده من شعر من قبله من الشعراء ، وإنه فى هذا الباب ليؤمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، ومابعد هذا عنده ففضل . وهو يرى ، ولقد يرى معه كثير ، ان جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى وإن تزايلت من دونها الألفاظ ، وإن أدق المعانى وأجلها لقد تقع للدهماء فى حوارهم ومشارع كلامهم ، أما إشراق الديباجة وفصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يبهرك ويروعك ويشيع فيك كل الطرب قول البحترى مثلا :

ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا مقصراً فى ملامة أو مطيلا
لم يكن يومنا طويلا بنعما ن ولكن كان البكاء طويلا

وقوله :

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق

وقول الشاعر :

ياليت ماء الفرات يخبرنا أين تولت بأهلها السفن

وقول الشاعر العربى :

فسائل بنى جرم إذا ما لقيتهم وسعداً إذا حجت عليك بنو سعد
فإن يخبروك الحق عنى تجدهم يقولون أبلى صاحب الفرس الورد

وغير هذا من رائع الشعر مما لا يتناوله الحصر .

وبعد ، فأى معنى فى مثل هذا يرتفع على ما تبتذل به العامة فى أحاديثهم ، وأسمارهم وفنون منافلاتهم ! إنما خطره كله فى لطف الصياغة وشدة القول وقوة الأسلوب ، ولو قد ذهبت تؤدى بلغة أخرى أنفر ما نظم البحترى وأبو تمام وأضرابهما من أعيان الشعراء ما خرجت من ذاك بطائل ، بل لو أنك تعمدت أبلغ

ماقالوا فنقضت غزله ونثرت نظمه ، ما عدا أن يكون كلاما من أوسط ما اعتاده الناس من الكلام .

هذا رأى حافظ فى الشعر . وتلك أيضاً صورة من شعره ؛ مشرق الديباجة ، جزل اللفظ ، صافى القول ، محكم النسج ، رصين القافية ، ترى معناه فى ظاهر لفظه فإذا أقبل عليك ينشدك من شعره أبصرت البيت يستشرف وحده للقافية استشرافا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ إبراهيم .

وحافظ إبراهيم ، كما أسلفت عليك مؤمن كل الإيمان بالصنعة ، ولقد يسنح له المعنى الدقيق فيحاول أن يشكه بالقريض ، فإن أصابه فى غير قلق ولا إعنات للفظ أو إخلال بقوة النظم ، وإلا صرف لغيره وجه القريض . ولربما أصاب المعنى الرفيع فيسره للنظم تيسيرا ، حتى يخيل لك ، إذ تتلوه أنك فى كلام من جنس سائر الكلام .

وهو ، كما حدثتك ، حاضر البديهة رائع النكتة ، يتعلق فيها بأدق المعانى فى جميع فنون القول : فلا يحتويه مجلس إلا رأيته يتنزى نزيا من ضحك ومن طرب ومن إعجاب ، وهو كذلك شديد الفطنة حلو الملاحظة ، لا يكاد يعرض لسمعه أو لبصره شيء إلا وجه عليه رأيا طريفا يصوغه فى « نكتة » عجيبة قد تستقر على سطوح أشياء . وأحيانا تتغلغل إلى الصميم حتى تتكشف الأيام منها لا عن طرفة متطرف ولكن عن رأى حكيم ؟ وهو لا يتحامى فى تطرفه ولا يتحرج ، فتراه يقتحم عليك بتندره كل مداخلك أنى سنحت له اقتحاما ، فيصيب من خلقك ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك ، على أنه فى كل هذا مرضيك ومؤنسك وباسط أسارير وجهك إن لم يفرج بالضحك من ثناياك ، فأما إذا كنت رجلا ضيق العطن متزمت النفس فلا خير لك فى مجلس حافظ إبراهيم .

وما أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتا جهيراً حلو المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزا ورفع الترتيل حظ الكلام درجات على درجات .

ولا ننس لحافظ يدا جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر إنشاء وترجمة ، فلقد طالما استخرج من مجفوها صيغا طريفة بليغة أدت كثيراً من الأسباب الدائرة

بين الناس مما تتحرك معانيه فى الأنفس ويجرى أداؤه على الأقلام . وحافظ إبراهيم من مفاخر هذا العصر ومن مباهجه معا .

ويقول عنه إبراهيم المازنى :

نقدت شعر حافظ نقداً كله سخر وتهكم وقلة أدب ، أو قلة عقل لأنه صار فى رأيى ممثلا لمذهب قديم يجب هدمه . وغضب حشمت باشا صديقه وكان وناظراً للمعارف ، واضطهدنى ، وكنت مدرسا ، وأوصى بى الرؤساء شرا ، فكان هذا من أسباب استقالتى من وزارة المعارف .

ولست أرى أنى كنت مخطئا فى نقدى لشعره ، ولكنى ولا شك أخطأت فى أمرين : أولهما التطاول وسلاطة اللسان ، وثانيا ظنى أن نقدى يهدم رجلا بناه فضله فى زمانه ، وقد خدمت — إلى حد ما — مذهبنا الجديد بهذا النقد ، ولكنى لم أهدم حافظا ، لأن الزمن وحده هو الذى يجرد المرء من كل ما زاد على حقه ، وإن كان يخطىء أحيانا فيضيف اليه ويضفى عليه ما ليس من حقه . وهل الزمن إلا الناس والناس من تعرف ، فلا حاجة إلى إطالة !.

ومضت سنوات وأخرجنا — أنا والعقاد جزءين من كتاب « الديوان » فى النقد والتعريف بالمذهب الجديد فى الأدب ، وكنا نلتقى بحافظ من حين إلى حين ، فى مقهى أمام دار الكتب ، ونتحدث فى هذا المذهب الجديد ، وأن الأدب فرع من شجرة الحياة ، وأن التقليد يفسده ، وأن الأديب يجب أن ينظر بعينه ويفكر بعقله ، ويحس بقلبه ، وأن يكون — قبل كل شىء ، وفوق كل شىء — مخلصا إلى آخر هذا ، فيوافقنا حافظ . ويقول ببساطة عجيبة : « طيب يا واد انت وهوه إذا كان الأمر كذلك فأنا من المذهب الجديد » . وأشهد أن نقدى له على مرارته لم يترك فى نفسه مرارة .

وتوثقت صلتى به وأنا أعمل فى جريدة السياسة ، وكان صديقنا محمد محمود باشا . وكان محمد يكرمه ويعظمه ويسره ويبره ، ويتقبل مزحه بأرحب صدر . وكان حافظ قد ترك وظيفته فى دار الكتب ، فكان يزورنى ويلقى إلى بمقطوعات قصيرة فى الأحوال السياسية : ويقول لى : « إذا كان لك اعتراض على بيت أو كلمة فغير وبدل أو اعترض كما تشاء » ولا يغضب إذا فعلت ذلك . وسمعت منه فى تلك

الأيام خير شعره ، وأعنى به قصيدته في عهد صدق وهى في أكثر من ثلاثمائة بيت ، وقد بحثنا عنها بعد موته ، بين أوراقه ، وسألنا من كنا نعرف أنهم سمعوها منه ، وقيل لنا إنهم دونوا مقطوعات منها — مثل محمد محمود ، والشيخ المراغى — فلم نعثر على بيت واحد ، لأنه رحمه الله كان ينظم الشعر ويحفظه ولا يدونه .

وكان حافظ فذا في سخائه ، ومروءة قلبه ، وسماحة نفسه ، وسعة صدره ، وحيه ، هذا إلى ظرف نادر ، وفكاهة حلوة ، وشجاعة عظيمة في تقبل ما تجىء به الأيام — وما أكثر ما تقلبت به — في مرح . ولم يكن هذا منه عن استخفاف ، بل عن إباء واستنكاف أن يظهر ضعفا ، وعن حسن تقدير لقيم الحوادث — من خير وشر — ولم يكن هزالا ، على كثرة مرحه ، فقد كان يكرم نفسه ولا يهينها أو يسف بها ، ولا يصبر على مذلة ، ولست أعرف أن أحدا اجترأ عليه باهانة .

— ٤ —

ذلكم هو الشاعر الكاتب الأديب الفكه محمد حافظ إبراهيم بك ؛ ولد في ديروط ، حيث كان أبوه أحد المهندسين المشرفين على بناء قناطرها ، وفيها مات والده وسنه أربع سنين ، فانتقلت به أمه إلى القاهرة . وكفله خاله ، وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الخيرية بالقلعة ، ثم في مدرسة المبتديان ، ثم انتقل إلى المدرسة الخديوية ، ولكن بقاءه فيها لم يطل ، لانتقاله إلى طنطا مع خاله ، وكان إذ ذاك مهندس تنظيم بها ، فبقى حافظ بلا مدرسة ، وبلا عمل ، وظن نفسه لذلك عبئاً ثقيلا على خاله ، فغادر بيته ، وكتب إليه البيتين الآتيين :

ثقلت عليك مؤونتى   إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب   متوجه في داهيه

كتب هذين البيتين وسنه ست عشرة سنة ، وذلك مما يدل على أن روح الشعر متوثب فيه منذ نشأته ، ثم احترف المحاماة ، ولم تكن حينئذ وقفا على رجال القانون ، ولكنه لم يوفق فيها ، فتركها ودخل المدرسة الحربية ، ولما تخرج فيها عين ضابطاً بالسودان ، فلم يحتمل حرارة جوه والنأى عن مسقط رأسه ، ومازال يسعى ويستشفع حتى تحول إلى بوليس مصر . ثم أعيد إلى الجيش ، ثم أحيل إلى الاستيداع وبقى فيه أربع سنوات

براتب قدره أربعة جنيهات ، وفى سنة ١٩٠٣ أحيل إلى التقاعد ، وواصل رجال العلم والأدب السعي له حتى عين فى سنة ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، ثم رقى وكيلا لها ، وكان راتبه ثمانين جنيها ، وبلغ الستين فى أواخر سنة ١٩٣١ فأحيل إلى التقاعد ، ومات بعد قليل فى ٢١ يونيو سنة ١٩٣٢

— ٥ —

ولم يكن لحافظ من الثقافة المدرسية حظ كبير ، لأنه كما عرفت تعلم فى المدارس الابتدائية ، ثم فى المدرسة الحربية ، أما المدارس الثانوية فلم تطل بها إقامته ، على أن المناهج وقتئذ لم تكن مهذبة كفيلة بتخريج الرجل المثقف .

غير أنه كان يغشى مجالس العلماء والأدباء والشعراء من أمثال : محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وعبد العزيز البشرى ، وخليل مطران ، وعبد الوهاب النجار ، وغيرهم ، فكان يتلقى عنهم ، ويطارح شعراءهم الشعر .

وقد أكثر من قراءة الأدب القديم ، وحفظ كثيراً من روائعه .

وكان له بعض إلمام بالفرنسية فتمكن من الاطلاع على آدابها ، وترجم كتاب البؤساء لفكتور هوجو .

لحافظ فى الحقيقة عصامى فى ثقافته ، كون نفسه بنفسه ، يؤازره حافظة قوية ، وقريحة وقادة ، وطبيعة شاعرة .

— ٦ —

شاعريتـــــه وبواعثها :

نشأ حافظ يتيما فقيراً بائسا فصور البؤس فى أقسى مظاهره ، وعطف على البائسين ، ودعا إلى العطف عليهم والبر بهم ، فتراه يقول فى رعاية الطفل ، وفى الدعوة إلى الإحسان . وفى الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجمعية إعانة العميان ، وملجأ الحرية وأمثالها .

وخالط طبقات الشعب عامة ، جالس أولاد البلد فى المقاهى البلدية ، وأكابر الدولة فى أفخر الفنادق ، وجالس الأميين والأدباء ، وذاق حلو الحياة ومرها ، وتقلب فى بؤسها ونعيمها ، فجاء شعره فى أغراضه ومعانيه صورة لما تقلب

فيه ، فلا غرو إذا كان حافظ بحق شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع ، لم يجاره فى هذا شاعر من شعراء عصره .

وكان صادق الوطنية ، شديد الحرب على بنى وطنه ، فأكثر من الشعر فى الأحداث السياسية والمطالب القومية ، كما أكثر من لوم المصريين على تخاذلهم وانصرافهم إلى اللهو ، والعدو جاثم على صدورهم يتربص بهم الدوائر ، ويجد فى القضاء على حريتهم واستقلالهم .

بل لقد اتسعت دائرة وطنيته حتى شملت العرب جميعا ، بل لقد شملت الشرق كله ، ولعلك قرأت له قصيدته التى موضوعها « سورية ومصر » وكم قال فى علاقة مصر بالآستانة ، وتغنى نهضة الخلافة ، ودعا إلى وحدة الشرق وتعاونه .

وقد وهب الله لحافظ حافظة لاقطة واعية ، وحسا مرهفا ، وعاطفة نبيلة ، تختزن حافظته ما يستجيد من روائع الشعر والنثر ، وينثر منه على مجالس الأدب التى كان يغشاها ، حتى لايجاريه فى ذلك أحد ، واتخذ من البارودى قدوة له يجاريه فى جزالة اللفظ ، وروعة الأسلوب .

وكان يكره جداً أن يجد الناس فى شعره عيبا ؛ ولذا حرص كل الحرص على روعة أسلوبه ، وإشراق ديباجته ، وحسن وقعه وقوة تأثيره ، فلا يعلن قصيدته إلا بعد أن يهذبها . ويعرضها على أصحابه ، فاستوى بذلك نظمه ، واستقام قريضه ، وكان هذا مما دعاه إلى استخراج كثير من مهجور اللغة الذى كان يجهله رجال عصره ، فشاعت ألفاظها المشرقة على أقـــلام الأدباء ، وفى ذلك يقول على لسان اللغة العربية :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى؟

وقد عرفت أن حافظا كان محدود الثقافة ، ولذا تراه إذا عرض لبعض المشكلات الاجتماعية أو السياسية العويصة يكتفى بذكر ما يقال فيها ويتحرج من إبداء الرأى .

— ٧ —

ألوان شعره :

عاش حافظ عند نشأته فى الأغراض القديمة التى كان يخوض فيها شعراء عصره

فقاله فى : الغزل ، والمدح ، والهجاء ، والوصف ، وغيرها .

ثم قامت ثورة فى مصر من بعض الأدباء المثقفين ثقافة أجنبية على الشعراء ؛ ورموهم بأنهم مقلدون للسابقين فى الأغراض وفى الأوزان ، فثار حافظ أيضامع هؤلاء على الشعر القديم ثورة صارخة ، وقال فى ذلك قصيدته التى منها :

آن ياشعر أن نفك قيوداً　　قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا　　ودعونا نشم ريح الشمال

ولكنه حين أراد التجديد لم يجدد فى البحور والأوزان ، ولا فى الأسلوب والبيان ، ولافى التفكير والخيال ، وإنما جدد فيما هو أسمى من ذلك كله . جدد فى موضوعات الشعر وأغراضه .

فنظمه فى الأغراض الجديدة التى جعلها محور شعره وهى :

الشعر الوطنى . الشعر الاجتماعى . الشعر السياسى .

هذه الثلاثة هى النهر الذى تفجر منه ينابيع شعره ، أوهى الهدف الذى كان يرمى إليه فيما يقول من شعره ، حتى ولو كان موضوع قصيدته الأصلى لغيرها فلقد كان إذا رثا ، أومدح عاما جديداً . أووصف ، فتح لنفسه بابا ينفذ منه إلىالناحية الوطنية أو الاجتماعية أوالسياسية .

وقدكان حافظ شاعرالشعب ، فوصف آلام الدهماء من الشعب ، وصور وطنية الأمة وموقفه من المستعمر والحاكم ووصف حال مصر وما ترتكس فيه من فوضى واضطراب وما ترزح تحت نيره من أعباء ثقال ، وكأن شعره ديوان تاريخ لبنى وطنه ، وهذه الخصائص تجد لها صورة جلية فى قصائد كثيرة من شعره .

وقرأ حافظ إبراهيم أشعار القدامى واستظهر الجم الكثير منها وقلد بعض أصحابها وحاول أن يفوق فى ألفاظه وأسلوبه جزالة بشار ورقة مهيار وأناقة المتنبى وقوة حسان وجرس البارودى ، وظل شعره فى حلبة الصياغة والنسج على سباق مع الأقدمين حتى ليكاد شعره يعد من الشعر العباسى من حيث الجزالة والمتانة .

وقد وصفه الدكتور طه حسين هو وشوقى فقال : « هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبى وأبو العلاء من غير شك » .

وكان حافظ يعجب بالبارودى وإسماعيل صبرى وشوقى ويمدحهم فى شعره ويجعلهم طلائع النهضة فى زمانه ، وكان يرى للبارودى فضل التقدم ، فقد جدد الشعر ونقاه من التكلف وعاد به إلى عهود القوة والجزالة والرصانة وإحكام النسج قبل أن ينبس شاعرنا ببنت شفة ، ومن ثم فقد كان شعر البارودى جسراً عبر عليه شاعرنا إلى الشعر الحديث المصقول بصقال الفن الأدبى الرائع ، وكان الشعراء المعاصرون يكيلون لحافظ الثناء على جزالة ألفاظه ومتانة تركيبه وقوة أسلوبه ، فمن ذلك قول شوقى :

مازلت تهتف بالقديم وفضله	حتى حميت أمانة القدماء
جددت أسلوب الوليد ولفظه	وأتيت للدنيا بسحر الطائى

— ٨ —

ولحافظ ديوان مطبوع فى ثلاثة أجزاء ، وكتاب (ليالى سطيح) نحى فيه منحى المويلحى فى حديث عيسى بن هشام ، وترجم صدراً كبيراً من كتاب (البؤساء) لفيكتور هيجو ، وشارك فى ترجمة كتاب (الموجز فى الاقتصاد السياسى) لروا بوليبه .

وحافظ ممن يدينون أولا بالديباجة ، ويصرفون أجل همهم لها . أما المعانى فعنده فى المرتبة الثانية ، وإنه لير تفع فى طلبها على ألا تقلق لفظه أو تخل بنظمه . ولقد تصرف بالشعر كثيرا فى المسائل الاجتماعية ، كما نظمه فى السياسة والشكوى والوصف والقومية وغيرها من الأسباب الدائرة بين الناس ، وكان فى هذا من السابقين إلى تلوين فنون الشعر ، وعدم توفره على تلك الأغراض الهزيلة التى كان يدور فيها الزمن الذى تقدم عصره .

وقد أجدى كثيرا على الأدب والعلم جميعا بما استظهر من الصيغ الرائعة من جفو العربية ، فشاعت على أقلام الأدباء بقدر كبير ، وانتفع بها أصحاب العلم بقدر غير يسير .

وقد توفر حافظ على دراسة الأدب العربى ، والارتشاف من مناهله العذبة ، وقد وهب حافظة فذة ، يسرت له أن يحيط بمستجاد الأشعار من جميع العصور ، وأن يثرى من فصيح الألفاظ العربية . مع دقة ذوق ، مكنت له من نواصى الأساليب ، وقد ضم إلى ذلك ثقافة نضجها عليه اتصاله باللغة الأجنبية ، وقد كان حافظ يعنى بتتبع ما يقال من الشعر فى عهده عنايته بشعر السابقين ، فيدرسه دراسة نقد وروية ، وهو مع ذلك مهيمن على شعره ، قائم على تهذيبه ، فخرج شعره فخما رصينا نقيا من الخبث فى صفاء ديباجة ، ورقة وسهولة ، جعلت له أحلى وقع فى قلوب السامعين ، وتلك ميزة لشعره لا يزاحم فيها .

وقد امتاز على من سبقه من الشعراء ، بأنه خاض فى أغراض اجتماعية ، لم يخض غمارها الأولون ، فجاء شعره مرآة صافية لعصره الذى عاش فيه ، ولم يكن حافظ يعنى بالتجديد فى المعانى ، إنما كان يصور ما يدور بين الناس من المعانى ، فيرفعه بحسن سبكه وقوة ديباجته ، إلى حيث يظن أنه أبو عذرته ، وإنما هو السبك والرصف من شاعر النيل .

ولشعر حافظ فى تصوير مظاهر البؤس والبائسين أثر قوى ، لما مس به فى حياته من صنوف البلاء .

وشعره متداول سائر على الألسنة ، عالق بالأفئدة ، وقد أقيمت لتأبينه فى عام (١٩٣٧) حفلة جامعة فى دار « الأوبرا » اشترك فى إقامتها أعيان أهل الفضل والأدب ، وألقيت فيها الخطب والقصائد الواردة من جميع بلاد العالم العربى ، واستغرقت يومين متواليين .

— ٩ —

ويعد شعره فى الطليعة من شعر العصر الحاضر ، وقد قلد البارودى وتقيل طريقته منذ أن تفتحت أكمام شعره ، كما قلد كثيرا من الشعراء الغابرين ، وتأثر بما استظهره من الشعر الرصين ، ثم ابتكر فى شعره نهجا تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء ،

قوامه الأسلوب الرائق ، والمعنى الشائق ، وعذوبة الكلمات ورشاقة العبارات ، والتجاوب الوثيق بين اللفظ والمعنى . وكان شعره سجلا للأحداث والكوارث ومرآة لأحوال مصر خيرها وشرها حلوها ومرها ، ترى فيه صيحة الوطنية وصرخة الألم وصور المظاهرات والثورات ، فكان لذلك شاعر الشعب .

لقد كان كل من حافظ وشوقى شاعرا مطبوعا ، وكان حافظ فى الغالب شاعرا عاطفيا ورسولا معبرا عن أمته ، فى حين كان شوقى فى الراجح شاعر الذكاء المحض وصفا وتاريخا وتصويرا وسردا ، وكان حافظ مريضا بنقص فى الفيتامينات وبعض الهرمونات — كما يقول أبوشادى — فكانت تمر به نوبات من الخمول ، بعكس شوقى الذى كفل له غناء العافية إلى أن استهان بها مفرطا فى التدخين ، فذهب ضحية الالتهاب الرئوى ، وسيذكر الشعب المصرى على الدوام أن شاعر النيل كان منه وله ، وكان فى طبعه النبيل نادرا ، ولم يعهد له مثيلا من طبقته سوى محرم ومطران ، فى حين كان شوقى شاعر القصر يستمد شعره من وحى القصر ومن ذكائه الحاد فى الغالب ، حتى انه فى رثائه والدته يعارض المتنبى فى رثائه جدته . وكان فى ولوعه بالظهور وثقته بأدواته النظمية الفائقة أكثر ماحفزه على مواصلة النظم . وحارب شعراء الشباب بل وزملاءه الأوفياء ، كما حارب ذكرى أحمد عرابى زعيم الحركة الوطنية الأولى . والشعر عند شوقى غاية رياضية ذهنية ، وغذاء للذاتية المتعشقة البروز ، فى حين أن الشعر عند حافظ كان منبرا لرسالته كأحد أنبياء الشعب ، متأثرا بتعاليم أستاذه الإمام محمد عبده ، وليس وراء شعر حافظ إلا أشرف البواعث ، وشعر حافظ فى جملته هو شعر عاطفى مستمد من الأمة أو متجاوب معها ، فهو منها ولها ، أما شعر شوقى فهو شعر الذكاء المتقد ، والاطلاع . وبسبب هذه الحقيقة التى لاريب فيها كان حافظ يسمو ويهبط حسب المناسبات وتأثيرها فى الأمة التى كانت تكيف اتجاهاته ، وكان من لسانها يبين صادقا مخلصا . ولم يكن هذا بأى حال شأن شوقى الذى كان خادم القصر وخادم نفسه قبل كل اعتبار آخر ؛ على أن الطبع الشعرى عند حافظ كان أصيلا ؛ وبقى قويا إلى نهاية عمره ، ولو لم يظهر له شعر كثير ولم يدون فى أواخر حياته . وهو الذى ارتجل ارتجالا رثاء مصطفى كامل يوم وفاته ، وكان يسح بالشعر سحا فى جميع مجالسه الأدبية .

— ١٠ —

يقول العقاد عن مكانة حافظ فى الأدب المصرى الحديث :

ظهرت طلائع النهضة الشعرية فى مصر حين ظهرت فيها طلائع الثورة التى عرفت بعد باسم الثورة العرابية ولم تسبقها نهضة مذكورة بعد الركود الذى أصاب الشعر العربى كله فى أعقاب الدولة العباسية . ومن الأدباء من يعتبر الساعاتى طليعة هذه النهضة الحديثة وخاتمة الأدباء الناشئين على الطريقة التقليدية .

والساعاتى فى الحقيقة لم يهبط فى رديء شعره هبوط بعض النظامين الذين نقرأ قصائدهم فى الجبرتى أو فى دواوينهم المتروكة بين أيدينا ، ولكنه كذلك لم يرتفع فى أحسن شعره وأجوده إلى أعلى من الطبقة التى بلغها الشعراء فى عهده ، بل فى عهد محمد على والحملة الفرنسية .

فكثيراً مايعثر القارىء فى أقوال هؤلاء الشعراء بقصائد ومقطوعات تضارع محاسن الساعاتى وقد تفضلها فى جميع مزاياها . إلا أن الساعاتى جدير بحق أن يعتبر حلقة الاتصال بين الشعراء العروضيين والشعراء المحدثين . ونعنى بالعروضيين أولئك الذين كانوا ينظمون القصائد ويخوضون فى الشعر لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقاً أو واجبا على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع وما إليهما من أصول الصناعة . وهم كانوا يتعلمون هذه الأصول ويطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، فكانت دواوينهم أشبه شيء بكراسات التطبيق فى معاهد التعليم .

والساعاتى نفسه قد نظم قصيدة مطولة فى مدح النبي عليه السلام أتى فيها على مائة وخمسين نوعا من أنواع البديع واستهلها بقوله فيما سماه براعة استهلال :

سفح الدموع لذكر السفح والعلم   أبدى البراعة فى استهلاله بدم

وكان يكثر فى قصائده من التجنيس والتورية والمطابقة والمقابلة وما إليها من محاسن النظم فى أيامه ، ولكنه ظهر فى العهد الذى بدأ فيه الخلاف بين شعر الصنعة وشعر السليقة ، أو بين النحاة كما سماهم وبين الشعراء المطبوعين ، فقال ينعى على أولئك النحاة :

فدعنى من قول النحاة فإنهم   تعدوا (لصرف) النطق من غير لازم

إذا أنا أحكمت المعانى خفضتهم وأرفعها قهــراً بقــوة جازم
وما أنا إلا شاعر ذو طبيعــة ولست بسراق كبعض الأعاجم

فكان كما يرى القراء من هذه التوريات الكثيرة واحداً من جماعة النحاة يلبس أزياءهم ثم يخرج على صفوفهم ويقف فى عدوة الطريق بينهم وبين الطبقة التى جاءت بعدهم . . والتفريق الزمانى بين المتقدمين على الثورة العرابية واللاحقين بها ميسور ، ولكنه تفريق لا معنى له إن لم يكن مصحوبا بسمات فنية تميز بين الطائفتين .

فإذا عمدنا إلى هذه السمات الفنية فنحن لا نعرف سمة هى أدنى إلى الفصل بين تينك الطائفتين من تسمية الأولين بالعروضيين وتسمية الآخرين بالمطبوعين أو غير العروضيين . لجميع الشعراء المتقدمين على الثورة العرابية — إلا من شذ منهم — كانوا يتعلمون العروض ويحسبون الناظم على غير علم به داخلا فيما لا يعنيه ، بطلا على غير فنه ، وجميع الشعراء اللاحقين بالثورة العرابية — إلا من شذ منهم — يجهلون العروض أو يعرفونه ولا يعتمدون عليه . وليست المسألة هنا مسألة مصادفة أو تفرقة جزافية خالية من الدلالة . بل هى فى الحقيقة تفرقة واحدة تشمل جميع الفروق العامة بين شعر التقليد والجمود وشعر الفطرة والابتكار ، ومغزاها أن البواعث الحقيقية لصوغ الشعر قد ظهرت بعد أن كانت مفقودة أو محجوبة ، وأن الأذواق الحيــة قد أخذت تحل محل القواعد الدراسية ، ولا يحدث ذلك إلا بعد أن تحدث فى الأمة أمور كثيرة متشابكة مختلفة ، تتناول عناصر الحياة فيها من جميع الأنحاء .

وإنما ظهرت هذه الأذواق الحية فى عهد الثورة العرابية لأنه العهد الذى زالت فيه موانع النهضة بعض الزوال ونشأت فيه بواعثها بعض النشوء ، وقد كانت موانع النهضة كثيرة تتلخص فى مانع واحد كبير ، وهو فتور الحياة القومية فى عهد من الزمن طويل .

ويدخل فى هذا المانع الكبير سائر الموانع الأخرى من سلطان الأجنبى ، وغلبة الأعاجم على البلاد ، وقلة العلم بالأساليب الفصيحة ، وندرة الكتب القيمة فى أيدى المتعلمين على نزارة عددهم ، وانقطاع الصلة النفسية بينهم وبين شعبهم .

وكثيراً ما يتفق أن يضعف الروح القومى فى أمة من الأمم فتخلقه الحماسة

الدينية أو العصبية الحزبية . أما فى مصر فلم يتفق هذا ، لأن الشعب لم ينظر قط إلى حكامه فى عصور الجمود والضعف نظرته إلى زعماء فى الدين أو رؤساء للشيع والأحزاب ، وإنما كان يحسبهم عدوا مسلطا عليه لايفخر بنصره ، ولا يبتئس لخذلانه ، فهيهات أن يستمد من أعمالهم حماسة الوطنى أو غيرة صاحب الدين .

فلما أخذت موانع النهضة فى الزوال بزغت طوالع الحياة القومية ، ونشأ الشعراء فى الأمة على نمط حديث .

نشأوا بعد أن شاعت كتب الأدب القديم فى بيئة المتعلمين ، واتصلت الأمة بالثقافة الأوربية من ناحية الحضارة المنقولة وناحية الإطلاع والدراسة ، ودبت فى نفوس المصريين أريحية الشعور الوطنى وثقة العارف بحقه ، المنكر لما هو فيه من بخس وإهمال . أو هم قد نشأوا بعد أن تضعضع المانع الأكبر الذى تنطوى فيه جميع الموانع للنبوغ فى الأدب وغير الأدب على السواء .

وإمام الشعراء فى هذا الطور الحديث هو بلا ريب ولا خلاف « محمود سامى البارودى » صاحب الفضل الأول فى تجديد أسلوب الشعر وإنقاذه من الصناعة والتكلف العقيم ، ورده إلى صدق الفطرة ، وسلامة التعبير .

فهذا الإمام المتقدم ذو أثر عظيم فيمن لحق به من الشعراء المحدثين ، ولا سيما حافظ ابراهيم الذى نحن بصدد الكلام عليه الآن .

وهناك بواعث كثيرة قربت بين حافظ والبارودى فى الطريقة ، وما زالت بهما حتى جمعت بينهما بعد ذلك بجامعة الألفة والمودة . فحافظ قد اختار حياة الجندية كما اختارها البارودى من قبله ، وحافظ كان مفطوراً كصاحبه على إيثار الجزالة والإعجاب بالصياغة والفحولة فى العبارة ، وكان كصاحبه أيضا من حزب التمرد والثورة لا من حزب التسليم والاستكانة ، وكان الشيخ حسين المرصفى أستاذ الشاعرين وقدوتهما فى الرأى والنقد وتذوق الكلام .

قال الشيخ حسين المرصفى فى كتابه الوسيلة الأدبية : « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد فى طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيآت التراكيب

العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن» . فالبارودى من ثم كان إمام المدرسة الشعرية التى خلفت مدرسة العروضيين المقلدين ، وندر بعده بين مشاهير الشعراء من درس العروض وقواعد البلاغة دراسة من سلف من أولئك العروضيين . فإذا استثنينا حفنى بك ناصف فكل من عداه فطريون تلقوا فصاحة الأساليب من الشعراء والكتاب لا من دروس الصناعة التى تعطى الرسم والقاعدة ولا تعطى النموذج والمثال .

على أننا لم نعن بإمامة البارودى إلا معنى السبق والابتداء القوى الفائق فى هذا النمط الحديث ، أما إنه كان ممثلا لعصره جامعاً لنواحيه الأدبية أو الفكرية فذلك معنى من الإمامة لم يكن من حظه ولا نظنه كان من همه . بل هو لم يكن ممثلا حتى للثورة العرابية التى كان زعيما من زعمائها وبطلا معدوداً بين أشهر أبطالها . إذ كانت مشاركته فى الثورة مشاركة الوزير السياسى والقائد الحربى لا مشاركة الشاعر الذى يصف شعور الجمهور أو يذكيه بقصائده وأناشيده ، وتلاه شعراء آخرون كان حظهم فى هذه الناحية مثل حظه وحكمهم فى تمثيل أيامهم مثل حكمه ، فاسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحفنى ناصف ومن ضارعهم من أبناء عصرهم يعدون فى طليعة المدرسة الجديدة التى خلفت مدرسة العروضيين ، ولكنهم لم يعرضوا لنا فى شعرهم إلا قليلا من معارض الشعور فى الحياة الشعرية ودرجات الانتقال من تفكير إلى تفكير ، وعلة ذلك فيما نرى أنهم عاشوا فى حيز الوظائف ولم يعيشوا فى غمرة الأمة بين دوافع المد والجزر وعوامل الشدة والرخاء . وهنا يبدو لنا الفرق بينهم وبين حافظ ابراهيم ، ويختلف سبيله وسبيلهم ، كما اختلف بينه وبين البارودى فى هذا الاعتبار . .

فحافظ ابراهيم حلقة متوسطة بين من سبقوه وجاءوا بعده فى جميع درجات التطور والانتقال . فهو « أولا » وسط بين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى وما بعدها وبين الشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين .

فالشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى وما بعدها نديم يلقى جميع سامعيه ويعاشرهم فى المجلس ويطيب خواطرهم بالملح والأحاديث ، فكانت صفات النديم لازمة له أشد اللزوم . والشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين رجل يخاطب قراءه من وراء المطبعة أو ستار التمثيل ، فلا تلزمه صفة من صفات النديم ، ولا هو

محتاج إلى مزاجه وأساليب تفكيره ، وقد يقضي حياته كلها دون أن يرى قراءه أو يروه .

لحافظ كان وسطا بين شاعر المجلس وشاعر المطبعة ، ولعله استفاد من صفات المنادمة فوق ما استفاد من معاني الشعر الصميم ، والمحقق على كل حال أن صوته في الإلقاء ولباقته في الإيماء كان لها شأن في جذب الأسماع إليه ، وإعجاب الناس به ليس بالشأن اليسير ، وكنت أداعبه فأقول له « إنك بأن تملأ قوالب الحساكي أحرى منك بطبع صفحات الدواوين . . . » فكان يقول : وتكون أنت « عقادي » على تخت الغناء !! ..

وهو « ثانيا » وسط بين شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية ، فإن نشوء الشاعر الحر في التعبير عن ذات نفسه والاعراب عن ميوله وميول زمنه يستلزم خطوتين اثنتين من خطوات التقدم لا خطوة واحدة .

ففي بادىء الامر تسري دعوة الحرية القومية إذ يحس الشعراء بالمطالب الاجتماعية لأنها تكون شغل كل إنسان في هذه الفترة ، وإذ تراهم في روح شعرهم المحمل أمثلة متشابهة قلما يتميز منهم شخص عن شخص بدخيلة نفس أو وجهة شعور أو نزعة تفكير ، وقلما يختلفون إلا في أدوات الصناعة ومبلغ العلم والثقافة . حتى إذا تمهدت مقدمات هذا الدور نجمت الحريات الشخصية أو نجم الافراد الذين يعرفون لهم استقلالا عن الجماعة وأطوارا غير الاطوار المصطلح عليها في سواد الأمة ، فيتفاوت الشعراء في الاذواق والموضوعات وطرائق التناول والاحساس بالطبيعة والحياة ، وترى منهم من يغرم بوصف البحر أو بوصف الغياض أو بوصف النجوم أو بغرائب الطباع أو ما شابه ذلك من ضروب التفاوت ، التي يرى المطلع عليها كأنه يطلع على نسخ شتى من الكون قد طبع كل منها على مرآة تختلف عن سائر المرايا في التصوير والتلوين ، لحافظ ابراهيم قد كان وسطا بين شعراء الحرية القومية وشعراء الحرية الشخصية ، لم يهمل الناحيتين ، ولم يبلغ في إحداهما مبلغ الكمال . فهو شاعر الحياة القومية في كلامه عن اللغة الفصحى وعن السفور والحجاب وعن فاجعة دنشواي وعن أزمات المال والسياسة وعن مضاربات الأغنياء في سوق القطن وأضرار الشركات بالبلاد ، ثم هو شاعر الحياة الشخصية في شكواه وهزله وخمرياته ومساجلاته وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات

طبعه ، فليس له فى أبناء جيله نظير فى الجمع بين الخصلتين والظهور بحالة قومه وحالة نفسه معاً على صفحات ديوانه .

وهو ، ثالثاً ، وسط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها والمتوسعين فى قراءة الآداب الأوربية ، فلا تجد بين العارفين باللغة الأجنبية أحداً أشبه منه بمن يجهلونها ولا تجد بين جاهليها أحداً أشبه منه بمن يعرفونها . فلو أننا أردنا أن نختار شاعراً يصافح بيديه الاثنتين هؤلاء وهؤلاء لما كان هذا الشاعر أحداً غير حافظ إبراهيم .

وهو ، رابعاً ، وسط بين مبالغة الأقدمين وقصد المحدثين ولا سيما فى المديح ، فقد بالغ فى جزئه الأول حتى قال فى مدح بعض الوجهاء :

إذا سرت يوما حذر النمل بعضه ... مخافة جيش من مواليك يغشاه
وإن كنت فى روض تغنت طيوره ... وصاحت على الأفنان : يحرسك الله
وكان ابن داود له الريح خادم ... وتخدمك الأيام والسعد والجاه
تحل بحيث المجـــد ألقى رحاله ... فطاهرة والبيت والقدس أشباه

هذا كان فى أول عهده بالشعر أما فى أخريات أيامه فقد ثاب إلى قصد فى القول يقرب من قصد المحدثين حين قال فى رثاء سعد زغلول :

شـاع فى نفسه اليقين فوقا ... ه به الله عـــثرة وتبـابا
عجزت حيلة الشباك وكان الشر ... ق للصـيد مغنما مستطابا
كلما أحكموا بأرضك فخا ... من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
أو أطاروا الحمام يوما لزجل ... قابلوا منك فى السماء عقابا
تقتل الدس بالصراحة قتلا ... وتسوق منافق القوم صـابا
وترى الصدق والصراحة دينا ... لا يراه المخالفون صـوابا
تمشق الجو صافى اللون صحوا ... والمضلون يمشقون الضبابا
أنت أوردتنا من الماء عذبا ... وأراهم قد أوردونا السرابا
قد جمعت الأحزاب خلفك صفا ... ونظمت الشيوخ والنوابا

وهذا مدح مقدر لا مشابهة بينه فى هذه الصفة وبين أسلوبه القديم فى المديح .

وشعر المديح من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأدب فى وقت واحد . فيخطىء من يظن أن الامم المترقية لا تمدح أو لا تقبل المدح من

شعرائها . إذ المديح جائز فى كل أمة ومن كل شاعر ، فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد فى مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ، ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التى يعرفها الغربيون أو الشرقيون . وإنما الخلاف فى نوع المديح لا فى موضوعه على إطلاقه . فديح الأمم المتعلمة غير مديح الأمم الجاهلة ، والشاعر الذى يملك أمره يتبع فى مدحه أسلوبا غير الذى يتبعه غيره ، ومكانة الأديب فى الأمة تظهر أتم الظهور من أساليب الشعراء فى هاتين الحالتين ، فلن يقال إن للأدب مكانا فى الأمة والشاعر مضطر فيها إلى إذلال عقله وتسخير كرامته فى مديح لا تسيغه العقول ولا يليق بالرجل الحر المريد لما يقول ، ولن يقال إن الأمة متعلمة والمبالغات الشعرية فيها تؤخذ مأخذ الجد والوقار وهى أقرب إلى الهزل والهجاء المستور ، أو لن يقال إن الأمة حرة تشعر بوجودها وأنت تقرأ مدائح شعرائها فلا ترى فيها ذكراً لغير الرؤساء ، ولا ترى فى الصفات التى يمدحون بها صفة ترجع إلى الأمة وتعتمد على تقديرها أو تستفاد من خدمتها والعمل بمشيئتها .

لحافظ يمثل أمته فى مديحه كما يمثلها فى قصائده الاجتماعية ، فهو مديح يدل على مراحل الأدب والحرية القومية فى الأمة المصرية مرحلة بعد مرحلة ، وفى هذه الخصلة أيضا كان حافظ منفرداً بين شعراء جيله قليل النظير .

وهذه هى فى رأينا مكانته فى الأدب المصرى الحديث ، فقد كان حلقة وسطى بين من تقدموه ومن تلوه ، وأنه حمل بين طيات شعره أثراً من كل طريق سلكته بلاده أثناء حياته ، فكان أقرب إلى تمثيلها من جميع زملائه .

ولسنا نعنى أننا نرجح حافظا على جميع أولئك الزملاء فى جوهر أدبه ومعدن شعره ، إذ المزية كما يقول المناطقة لا تقتضى الأفضلية . ولكننا نعنى أن أسباب عيشه وملابسات أيامه ، كانت أدعى إلى توجيهه هذه الوجهة وأدنى إلى إقامته فى هذا المقام .

كان الساعاتى حلقة وسطى بين مدرسة العروضيين ومدرسة الفطريين ، وكان حافظ حلقة وسطى بين النمط الذى سنه البارودى فى إبان النهضة القومية وبين الأنماط المبتدعة التى يدعو إليها الشعور بالحرية الشخصية والمزايا الفردية ، فهو رجل يدل بشعره على زمنه وعلى نفسه ، وهو فصل من الفصول المبينة لمكانه البارز فى كتاب الأدب المصرى الحديث .

— ١١ —

رأى لشاعر القطرين فى شاعريته :

يقول مطران فى حافظ :

يقول الشعر فى كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه ومن عادته دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طلبا لتلك الخلوة ، ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به . يتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره ، يؤثر الجزالة وله فيها آيات .

يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه ، آمنا أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك ، علما أن الكلام لابد أن يأتيه فى أى مقام طيعا ولو بعد حين . وهو حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها ، إذا صب البيت فى قالب من العروض أعاده نغما على سمعه مستشيرا بذلك ذوقه عن طريق أذنه ، وطالما صدقته الأذن بنصيحتها . أما تغنيه فبدوى أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمى ، وطريقته أن ينطق بالكلمات ملحنة تلحينا ساذجا من إطالة فى الحروف المعتلة ورجفة فى القرار كرة أربعة أنفاس وتقتضب ، له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفى أقصى ضميره يؤثر البيت الجاد لفظا على الجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حينا فى التصور لم يفته الابتكار فى التصوير . أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ماشاء . كبير الآمال عاثر الجد ، تجد على أكثر منظومه أثرا من ألم النفس أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار الكامنة فى غير متقد .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربى فى مصر لهذا العصر ، ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد . أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحرا .

صور من شعر حافظ :

من شعره الوطنى قصيدته فى مظاهرة السيدات المصريات عام ١٩١٩ ، ويقول منها

فإذا بهن تخذن من … سود الثياب شعارهنه(١)
فطلعن مثل كواكب … يسطعن فى وسط الدجنه(٢)
وأخذن يجتزن الطريـــق ، ودار سعد قصدهنه
يمشين فى وسط الظلا … م ، وقد أبن شعورهنه(٣)
وإذا بجيش مقبـــل … والخيـــل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفها … قد صوبت لنحورهنه
وإذا المـــدافع والبنا … دق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد … ضربت نطاقا حولهنه
والورد والريحان فى … ذاك النهار سلاحهنه

ومن الشعر الاجتماعى عند حافظ قوله فى الحث على معاضدة مشروع الجامعة المصرية ، وكانت نفقاتها إذ ذاك من أيدى الأغنياء وذوى الغيرة الوطنية ، لأن الاستعمار الإنجليزى لم يكن يريد أن يظهر هذا النوع من التعليم فى مصر ، ولذا أكثروا من الكتاتيب وحاربوا التعليم الجامعى :

إن كنتم تبذلون المال عن رهب … فنحن ندعوكم للبذل عن رغب(٤)
ذر الكتاتيب منشيها بلا عـــدد … ذر الرماد بعين الحاذق الأرب(٥)

---

(١) الشعار : ما لاصق البدن من الثياب ، والشعار : العلامة فى الحرب .

(٢) الدجنة : الظلام .

(٣) الشعور : ما يشعر به المرء من فرح أو حزن ، والشعور أيضا جمع شعر .

(٤) عن رهب : عن خوف ويقصد به مال الضرائب ، وعن رغب : عن محبة فى البذل ويقصد به المال الذى يجمع للجامعة .

(٥) ذر الكتاتيب : فرقها ونشرها ، الأرب الفطن الذكى ، ويريد أن الإنجليز نشروا الكتاتيب ليلهوا المصريين عن التفكير فى الجامعة ، ولكن ذلك لا يخفى ، فشأن الانجليز مع المصريين كشأن من يذر الرماد فى عين الذكى ليعميه عن رؤية ما يريد أن يفعل به ، فلا يمنعه ذلك من الحذر و الحرص .

فأنشئوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبوا الأجير أو الحرات قد بلغا ... حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ما علة عرضت ... من المدافع عن عرض وعن نشب؟ (١)

ويقول فى جمعية الطفل :

شاع بؤس الأطفال والبؤس داء ... لو أتيح الطبيب ، غير عضال
أيدوا كل مجمع قام للبر ... بجاه يظله أو بمال.
كم يتيم كادت به البأساء ... لولا (رعاية الأطفال)

ومن الشعر السياسى قوله فى حادثة « دنشواى » يخاطب اللورد كرومر فى سفر له . وكان جماعة من جيوش الإنجليز صادوا حماماً للأهالى بها ، ومات أحدهم بضربة الشمس ، فاتهموا أهل البلدة بقتله ، ونصبوا المشنقة فى ساحتها ، فشنقوا أربعة ، وجلدوا آخرين:

رفقاً عبيد الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
جلدوا ، ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا(٢)
شنقوا ، ولو منحوا الخيار لأهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب

وقوله فى الشكوى من الاحتلال :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلما منظما(٣)

---

(١) النشب : المال والمتاع .

(٢) معنى هذا البيت والذى بعده أن من جلد كان يتمنى لشدة الألم أن يكون هو المشنوق ، وأن المشنوق كان يتمنى لألم فراقه أهله وولده أن يكون هو المجلود .

(٣) حواشيه : نواحيه ، هذبت : أصلحت . يقول : إن الانجليز لم ينشروا لواء العدل كما يدعون ، ولكنهم نظموا الظلم القديم ، وما أزالوه .

حملتم على عز الجماد وذلنا　　فأغليتم طينا وأرخصتم دما(١)
إذا خصبت أرض وأجدب أهلها　　فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما(٢)

وقال فى استقبال (السير) غورست العميد الإنجليزى بعد اللورد كرومر:

إلى من نشتكى عنت الليالى　　إلى (العباس) أم (عبد الحميد)؟ (٣)
ودون حماها قامت رجال　　تروعنا بأصناف الوعيد(٤)
فما جئنا نطاولكم بجاه　　يطولكم ولا ركن شديد(٥)
ولكنا نطالبكم بحق　　أضر بأهله نقض العهود(٦)

ومن شعره القصصى وصفه مقابلة رسول كسرى لعمر :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا　　بين الرعية عطلا وهو راعيها(٧)
رآه مستغرقا فى نومه فرأى　　فيه المهابة فى أسمى معانيها

---

(١) هذه القصيدة قيلت سنة ١٩٠٧، وحادثة دنشواى كانت سنة ١٩٠٦ ، والشاعر فى هذا البيت يشير إلى أن الانجليز قد رفعوا ثمن الأرض ، ولكنهم أرخصوا دماء الناس بقتلهم على قوارع الطرق فى دنشواى ظلما وعدوانا .

(٢) ولا جادها السما : أى ولا نزل عليها المطر ، يقول: بئست الأرض التى تخصب ، وأهلها فى ذل واستعباد ، فلا كانت هذه الأرض ولاسقاها المطر .

(٣) عنت الليالى : ظلمها وقسوتها ، والعباس : الخديو عباس ، وعبدالحميد : الخليفة العثمانى . وكانت مصر تابعة له سياسيا .

(٤) تروعنا : تخيفنا وتفزعنا .

(٥) نطاولكم بالجاه : نفاخركم به ، يطولكم أى يغلبكم . وركن شديد : أى عزة ومنعة .

(٦) يقصد بنقض العهود : عدم تنفيذ الإنجليز وعودهم بالجلاء عن مصر .

(٧) راعه : أدهشه ، عطلا : يقصد خاليا من الحرس.

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ... ببردة كاد طول العهد يبليها(١)
فهان فى عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها(٢)

ومن نماذج شعر حافظ قوله :

لى فيك حين بدا سناك وأشرقا ... أمل سألت الله أن يتحققا(٣)
أشرق علينا بالسعود ولا تكن ... كأخيك مشئوم المنازل أخرقا(٤)
قد كان جراح النفوس فداوها ... مما بها ، وكن الطبيب موفقا(٥)
هللت حين لمحت نور جبينه ... ورجوت فيه الخير حين تألقا(٦)
وهززته بقصيدة لو أنها تليت ... على الصخر الأصم لأغدقا(٧)
فنأى بجانبه وخص بنحسه ... مصراً وأسرف فى النحوس وأغرقا(٨)
لو كنت أعلم ما يخبئه لنا ... لسألت ربى ضارعا أن يمحقا(٩)
أولى الأعاجم منة مذكورة ... وأعاد للأتراك ذاك الرونقا(١٠)
وتغيرت فيه الخطوب بفارس ... حتى رأيت الشاه يخشى البيدقا(١١)

---

(١) الدوح : الشجر الكثير الملتف .
(٢) الأكاسر : ملوك الفرس .
(٣ – ٤) السنا : الضوء ، ويريد بقوله « أخيك » هلال العام الذى قبله ، والمنازل : البروج التى يتنقل فيها القمر ، والأخرق : من الخرق بضم الخاء والخرق بفتح الخاء والراء وهو القسوة والحق .
(٥ – ٧) تألق : أضاء وأشرق ، وهزه إلى المعروف : حركه إليه وشوقه إلى عمله ، وأغدق : تفجر بالماء الكثير .
(٨ – ١١) ضارعا : متذللا ، وأولى : أعطى ، والخطوب : الشئون ، الواحد خطب بفتح الخاء ، والشاه : ملك العجم ، والبيدق : الجندى ويشير إلى الشاه والبيدق من قطع الشطرنج ، وأدال الله لك من فلان : إذا جعل الكرة والنصر لك عليه . وأخفق : لم ينجح ، والفيلق : الجيش العظيم .

وأدال من (عبد الحميد) لشعبه ... فهوى وحاول أن يعود فأخفقا
أمسى يبالى حارسا من جنده ... ولقد يكون وما يبالى الفيلقا
ورمى على أرض الكنانة جرمه ... بالنازلات السود حتى أرهقا (١)
حصدت مناجله غراس رجائنا ... ولو انها أبقت عليه لأورقا (٢)
فتقيدت فيه الصحافة عنوة ... ومشى الهوى بين الرعية مطلقا (٣)
وأتى يساوم فى القناة خديعة ... ولو انها تمت لتم بها الشقا (٤)
إن البلية أن تباع وتشترى ... (مصر) وما فيها وأن لا تنطقا (٥)
كانت تواسينا على آلامنا ... صحف إذا نزل البلاء وأطبقا (٦)
فاذا دعوت الدمع فاستعصى بكت ... عنا أسى حتى تغص وتشرقا (٧)
كانت لنا يوم الشدائد أسهما ... نرمى بها وسوابقا يوم اللقا (٨)
كانت صماما للنفوس إذا غلت ... فيها الهموم وأوشكت أن تزهقا (٩)
كم نفست عن صدر حر واجد ... لولا الصمام من الأسى لتمزقا (١٠)
مالى أنوح على الصحافة جازعا ... ماذا ألم بها وماذا أحدقا ؟
قصوا حواشيها ، وظنوا أنهم ... أمنوا صواعقها ، فكانت أصعقا

(١ — ٢) الكنانة : مصر ، وأرهق : أنزل على أهلها العسر والظلم ، والمناجل : جمع منجل ، وهو آلة يحصد بها الزرع .

(٣ — ٥) العنوة : القهر ، والهوى يراد به هنا الحكم بما يشتهيه الحاكم لا بما يقتضيه العدل ، ومطلقا : لا قيد عليه ، والمساومة : المغالاة من قبل البائع ، والمناقصة من قبل المشترى .

(٦ — ٨) أطبق عليهم البلاء : غشيهم وغطاهم ، والسوابق : الخيول ، واللقا : الاصطدام مع العدو .

(٩ — ١٠) صماما : سدادا بكسر السين ، ونفست : خففت ، والواجد : الحزين ، والأسى : الحزن .

وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما ... يثنى عزائمها فكانت أحدقا (١)
أهلا بنابتة البلاد ومرحبا ... جددتم العهد الذى قد أخلقا (٢)
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم ... فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى (٣)
مدت له الآمال من أفلاكها ... خيط الرجاء إلى العلا فتسلقا (٤)
فتجشموا للمجد كل عظيمة ... إنى رأيت المجد صعب المرتقى (٥)
من رام وصل الشمس حاك خيوطها ... سببا الى آماله وتعلقا (٦)
عار على ابن النيل سباق الورى ... مهما تقلب دهره أن يسبقا (٧)
أو كلما قالوا تجمع شملهم ... لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا (٨)
فتدفقوا حججا وحوطوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكم وتدفقا (٩)
حلوا علينا بالزمان وصرفه ... فتأنقوا فى سلبنا وتأنقا (١٠)
هزوا مغاربها فهابت بأسهم ... ياويلكم إن لم تهزوا المشرقا (١١)
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا ... لم يبق بابا للسعادة مغلقا (١٢)
ثم استمدوا منه كل قواكم ... إن القوى بكل أرض يتقى (١٣)
وابنوا حوالى حوضكم من يقظة ... سورا وخطوا من حذار خندقا (١٤)
وزنوا الكلام وسددوه فإنهم ... خبأوا لكم فى كل حرف مزلقا (١٥)
وامشوا على حذر فإن طريقكم ... وعر، أطاف به الهلاك وحلقا (١٦)

---

(١) ألم : نزل ، وأحدق : أحاط ، والمراد بحاذقهم : بطرس غالى رئيس الوزارة حينئذ.

(٢ - ٤) نابتة البلاد : نشؤها وشبانها ، وأخلق : بلى ورث ، وتسلق : صعد.

(٥ - ٦) تجشموا : تكلفوا وتحملوا ، وحاك : نسج ، والسبب : الحبل.

(٧ - ٩) الشقاق : الخلاف والعداوة ، وحوطوا : صونوا واحفظوا .

(١٠ - ١٦) حلوا علينا بالزمان : حاربنا المحتلون بنوائب الزمان ، وتأنق فى الأمر : بالغ فيه ، والحوض : يراد به هنا الحى ، والمزلق : مكان الانزلاق أي الزلل والسقوط ، والوعر : الصعب ، وحلق : ارتفع .

نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا   للسالكين بكل فج موبقا (١)
الموت فى غشيانه وطروقه   والموت كل الموت ألا يطرقا (٢)
فتحينوا فرص الحياة كثيرة   وتعجلوها بالعزائم والرقى (٣)
أو فاخلقوها قادرين فإنما   فرص الحياة خليقة أن تخلقا (٤)
وتفيئوا ظل الأريكة واقصدوا   ملكا بأمته أبر وأرفقا (٥)
لا زال تاج الملك فوق جبينه   تحت الهلال يزين ذاك المفرقا (٦)

ومن شعره كذلك قوله فى وصف القطار الحديدى :

لا يبالى السرى إذا اعتكر الليل   وخانت مواقع الأقدام
يقطع البيد والفيافى وحيدا   لم تضعضعه وحشة الإظلام
ليس يثنيه ما يذيب دماغ الضب   يوم الهجير بين الموامى
لا، ولا يعتريه ما يخرس الشا   بع فى الزمهرير بين الخيام
هائما كالظليم أزعجه الصيد   وراعته طائشات السهام

ومن شعره الاجتماعى قوله فى القصيدة التى أولها :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى   فى حب مصر كثيرة العشاق
ما البابلية فى صفاء مزاجها   والشرب بين تنافس وسباق
والشمس تبدو فى الكئوس وتختفى   والبدر يشرق فى جبين الساقى
بألذ من خلق كريم طاهر   قد مازجته سلامة الأذواق

وفيها يقول :

---

(١) الفج : الطريق ، والموبق : المهلك .
(٢) غشيانه : دخوله والسير فيه .
(٣ - ٤) تعجل الأمر طلبه عاجلا ، والرقى : جمع رقية وهى ما يرقى به المريض .
(٥ - ٦) الأريكة : سرير الملك ، ومفرق الرأس : وسطه ، وهو حيث يفرق الشعر .

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الإعراق

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن فى الأسواق

يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبته ، ولا من واق

كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق

ومن قصائده الاجتماعية ، قوله يخاطب الأغنياء لمعاونة المنكوبين فى حريق ميت غمر ، سنة ١٩٠٥ م :

سائلوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟ (١)

كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... م وكيف اصطلى مع القوم نارا ؟ (٢)

كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى ؟ (٣)

رب ، إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب ، واحجب الأقدارا ! (٤)

ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا (٥)

ومن قصيدة له دعاها « غادة اليابان » ضمنها غرامه بغادة يابانية ، وأشاد بالشجاعة التى ظهرت بها أمة اليابان فى الحرب بينها وبين روسيا :

لا تلم كفى إذا السيف نبا ... صح منى العزم والدهر أبى (٦)

رب ساع مبصر فى سعيه ... أخطأ التوفيق فيما طلبا

---

(١) عذارى : جمع عذراء ، وهى البكر .

(٢) اصطلى نارا : احترق بها .

(٣) طاح : هلك وسقط . يتداعى : يتساقط جزءا لجزءا ، أسقف : المراد بها جمع سقف ، ولم نجد هذا الجمع فى كتب اللغة ، تتجارى : تتسابق .

(٤) أنحى : مال .

(٥) الغيث : المطر ، انهمارا : انصبابا .

(٦) نبا السيف : كل وارتد .

مرحبا بالخطب يبلونى إذا ... كانت العلياء فيه السببا (١)
عقنى الدهـر ولولا أننى ... أوثر الحسنى عققت الأدبا (٢)
إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى ... لا أرى برقك إلا خلبا (٣)
أنا لـولا أن لى من أمتى ... خاذلا مابت أشكو النوبا
أمة قد فت فى ساعدها ... بغضها الأهل وحب الغربا (٤)
تعشق الألقاب فى غير العلا ... وتفـدى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا (٥)
لا تبالى لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالى لعبا (٦)
ليتها تسمع منى قصة ... ذات شجو وحديثا عجبا : (٧)
كنت أهوى فى زمانى غادة ... وهب الله لها ما وهبا (٨)
ذات وجه مزج الحسن به ... صفرة تنسى اليهود الذهبا
حملت لى ذات يوم نبأ ... لا رعاك الله ياذاك النبا
وأتت تخطر والليل فتى ... وهلال الأفق فى الأفق حبا (٩)

---

(١) يبلونى : يختبرنى .
(٢) عقه : ترك الإحسان إليه ولم يبر به ؛ يقول : إن الدهر لم ينصفنى ، والجانى علىّ هو أدبى ، ولولا أنى أوثر الإحسان لهجرت الأدب الذى كان سببا فى شقائى .
(٣) البرق الخلب : الذى يطمع الناس فى مطره ويخلفهم .
(٤) فت فى ساعدها : عبارة يكنى بها عن الإضعاف وإيهان القوى .
(٥) والأحداث تستهدفها : أى أن حوادث الدهر تجعلها هدفا لها ترميه .
(٦) يريد « بالقوم » : الإنجليز ، وصروف الليالى : غيرها ونوائبها ، أى أنها لا تعبأ بحوادث الزمان تصيبها من المحتلين أو من الدهر .
(٧) يقال شجاه شجوا ، إذا هيج أحزانه وشوقه .
(٨) الغادة : المرأة الناعمة اللينة .
(٩) والليل فتى : أى فى أوله . وشبه الهلال فى أول طلوعه بالطفل الذى يحبو فى مهده .

ثم قالت لى بثغر باسم ... نظم الدر به والحببا : (١)
نبئونى برحيل عاجل ... لا أرى لى بعده منقلبا (٢)
ودعانى موطنى أن أغتدى ... علنى أقضى له ما وجبا (٣)
نذبح الدب ونفرى جلده ... أيظن الدب ألا يغلبا ؟ (٤)
قلت والآلام تفرى مهجتى ... ويك ! ما تصنع فى الحرب الظبا ؟ (٥)
ما عهدناها لظبى مسرحا ... يبتغى ملهى به أو ملعبا
ليست الحرب نفوسا تشترى ... بالتمنى أو عقولا تستبى (٦)
أحسبت القد من عدتها ... أم ظننت اللحظ فيها كالشبا ؟ (٧)
فسلينى ، إننى مارستها ... وركبت الهول فيها مركبا (٨)
وتقحمت الردى فى غارة ... أسدل النقع عليها هيدبا (٩)

---

(١) الحبب : الفقاقيع التى تعلو سطح الماء ، شبه بها الأسنان فى بياضها .

(٢) المنقلب : العودة والرجوع .

(٣) أغتدى : أى أبادر مبكرة للدفاع عنه .

(٤) الدب : رمز تعرف به روسيا ، كما تعرف انجلترا بالأسد ، واليابان بالتنين ، وألمانيا بالنسر ، ونفرى : نشق ، ويشير بهذا البيت إلى الحرب التى نشبت بين اليابان وروسيا فى ليلة ٩ فبراير سنة ١٩٠٤ م ، وانتهت بالصلح فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٠٥ م بعد هزيمة روسيا .

(٥) الظبا : الظباء ، وقصر للشعر .

(٦) تستبى : تؤسر بالحب .

(٧) القد : القامة ، والشبا : جمع شباة ، وهى حد السنان .

(٨) مارستها : أى اشتركت فيها .

(٩) تقحمت الردى : رميت بنفسى فى غمرته . والنقع : الغبار . والهيدب : السحاب المتدلى من أسافله ، وإثارة الغبار وكثرته وارتفاعه فى الحرب ، كناية عن شدتها وكثرة الكر والفر فيها .

قطبت ما بين عينيها لنا   فرأيت الموت فيها قطبا (١)
جال عزرائيل في أنحائها   تحت ذاك النقع يمشي الهيدبى (٢)
فدعيها للذي يعرفها   والزمي يا ظبية البان الخبا (٣)
فأجابتني بصوت راعني   وأرتني الظبي ليثاً أغلبا : (٤)
إن قومي استعذبوا ورد الردى   كيف تدعوني ألا أشربا ؟
أنا يابانية لا أنثني   عن مرادي أو أذوق العطبا (٥)
أنا إن لم أحسن الرمي ولم   تستطع كفاي تقليب الظبا (٦)
أخدم الجرحى وأقضي حقهم   وأواسي في الوغى من نكبا (٧)
هكذا (الميكاد) قد علمنا   أن نرى الأوطان أماً وأبا (٨)
ملك يكفيك منه أنه   أنهض الشرق فهز المغربا

---

(١) التقطيب : العبوس ، والضمير في (قطب) للغارة .

(٢) الهيذبى (بالمعجمة والمهملة) : نوع من المشي فيه جد ، ويشير بهذا البيت إلى كثرة ما تخطفه عزرائيل من الأرواح في هذه الحرب .

(٣) البان : شجر سبط القوام لين ، ورقه كورق الصفصاف ، تألفه الظباء . والخبا (بالقصر) : الخباء (بالمد) وقصر للشعر ، وهو في الأصل : البيت من وبر أو صوف ، ويريد به البيت عامة .

(٤) راعني : أفزعني ، والأغلب من السباع : الغليظ الرقبة ، وهي علامة القوة ، يقول : إنها غضبت من تنقصه لها ، وأنها لا تصلح للحرب ، فأجابته بصوت أفزعه لشدته وقسوته ، واستحالت من ظبي وادع إلى أسد قوي .

(٥) العطب : الهلاك .

(٦) الظبا : جمع ظبة (بضم الأول) وهي حد السيف أو السنان .

(٧) الوغى : الحرب ، لما فيها من الصوت والجلبة .

(٨) الميكادو : لقب ملك اليابان .

وإذا مارسته ألفيته حولا فى كل أمر قلبا(١)
كان والتاج صغيرين معا وجلال الملك فى مهد الصبا
فغدا هذا سماء للعلا وغدا ذلك فيها كوكبا
بعث الأمة من مرقدها ودعاها للعلا أن تدأبا(٢)
فسمت للمجد تبغى شأوه وقضت من كل شىء مأربا(٣)

---

(١) الحول : الشديد الاحتيال ، لا تؤخذ عليه طريق إلا نفذ فى أخرى . والقلب : البصير بتقلب الأمور .

(٢) تدأب : تجد فى طلبها .

(٣) المأرب : الغاية .

الشيخ عبد المطلب

كان الشيخ عبد المطلب وافر الصلاح ، محافظاً شديد المحافظة على القديم . فقد كان من أصل عربى ، وكانت نشأته دينية . وفوق هذا وهذا فلقد كانت فى فطرته شدة ، وفى طبعه شىء من الخشونة ، برغم ما طبع عليه من أدب وتواضع وكرم نفس . فهو بهذا ، وبتوقره على الأقدمين ، كان متعصباً شديد التعصب للشعر القديم ، يفضله ، ويحافظ عليه ، ويدعو بكل جهده إليه . فإذا قرض الشعر تتبع آثار الجاهليين ، ومن نحا من الشعراء نحوهم ، وتكلف مثل صنعتهم ، وشبه كما كانوا يشبهون ، وتخيل كما كانوا يتخيلون . وربما أكثر ، بسبب ذلك ، من الألفاظ الغريبة التى تحتاج إلى الشرح والبيان . وكان شعره حلا ، ولفظه جزلا ، ومعانيه بدوية لم يكد يطريها لين الحضر .

وعبد المطلب هو العالم الشاعر الأديب الشيخ محمد بن عبد المطلب بن واصل . ولد ببلدة باصونة من أعمال مديرية جرجا من أبوين عربيين . وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم ، جىء به إلى الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين . ثم ذهب إلى دار العلوم ، فكان فيها طالباً متقدما ، معروفا بين أقرانه بالجد والاستقامة والغيرة على الدين الحنيف ، ولما أحرز إجازتها قام بالتدريس فى مدارس الحكومة ، ومنها مدرسة القضاء الشرعى ، ثم مدارس الأوقاف الملكية ، ثم دار العلوم . وظل يدرس فيها إلى أن بلغ الستين ، فأحيل إلى المعاش . وقد توفى عام ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م

وعبد المطلب أحد شعراء العربية الذين خلفوا لنا تراثاً ممتازاً يضاف إلى تراثى المرحومين « شوقى » و « حافظ » ، وأن كان قد عاش مغبوناً ، ومات مغبوناً ، شأنه شأن « حافظ » بعد موته ، فلم يفز ديواناهما بما كان ينبغى من عناية وتقدير .

وقد كان رحمه الله شخصية عربية صميمة ، تنبىء مظاهره الخلقية أنه من سكان نجد أو الحجاز ، فى ضآلة من الجسم ، وقليل من القصر المتزن ، تنطوى هذه الضآلة على قوة الأسد فى عرينه ، تبدو بها عيناه الواسعتان البراقتان اللتان تفيضان قوة وثقة واعتزازا ، وكان ذا نفس أبية ، وضمير حى ، وشعور متقد ، وإحساس صادق ، يهيج لأتفه أسباب الخلاعة أو اللهو ، فينفجر بأشد ما تكون الخلاعة .

قسوة وإيلاما ، وكان رجلا بأسمى ما تكون الرجولة صفاء ونبلا ، رجلا جم العطف ، وافر الرحمة فياض الحنان .

فشخصيته على ما كان فيها من خشونة البداوة كانت تذوب رقة وحنانا ، وتفيض عطفا ووداعة ، وديوانه حافل بصور من هذه العاطفة . وما أشبه الثلاثة بعضهم ببعض : « حافظ والمنفلوطي وعبد المطلب » في هذا المجهود ! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه ، وذوب من فؤاده ، في قصيدته العصماء التي استهلها بقوله :

أسألت باكية الدياجي ما لها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعا ... غلب الأسى عبراتها فأسالها

وفيها يقول :

حتى إذا رقد الأسى بجفونها ... وهفا النعاس برأسها فأمالها
غلب الطوى أحشاءها فتفزعت ... حيرى تعاني سهدها وملالها

وله وطنيات حارة ، ووصف رائع لمشاهد القومية المصرية ، وله علويته المشهورة التي أنشدها على « جمل » متشبها بالشعراء في « عكاظ » .

وكان من أسبق الشعراء إلى تأليف الروايات ، فلدى دار الكتب من عشرين سنة مضت روايتا « المهلهل » و « امرىء القيس » ، وله أيضا عدة روايات وضعها للمدرسة السعيدية وقت أن كان مدرسا بها ، وكأنه شعر بحاجة المسرح المصري إلى روايات عربية سليمة التفكير رقيقة التعبير ، فوضع له في سنة ١٩٠٩ رواية « ليلى المفيفة » ، ولكن حظ المسرح التعس حال دون ذلك ، لأن الأستاذ لكثرة أعماله في مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي لم يستطع إتمام القصة ، وحاول في أواخر أيامه أن يتمها ولكن الموت القاسي عاجله ، فحرمنا من تراث أدبي نافع . وسنعرض للجزء الذي كتب من « ليلى المفيفة » بنت لكيز ، وهي التي حاربها الزمن على يد أبيها بضع سنوات ، فأذاقها مر الحياة وشقاء العيش ، وذل الأسر . . . ولكن الله جلت قدرته أنالها سعادتها مضاعفة ، ورد عليها فتى قلبها وبطل أحلامها جزاء وفائها وإخلاصها . . .

وكانت ليلى بنت لكيز مخطوبة لابن عمها البراق ، وكان الحب يجمعهما برباطه المقدس ، فرأى لكيز بعقله الأخرق ، وحماقته المجنونة أن يفسد هذه

الخطبة ، وأن يقبل خطبة عمرو بن ذى صهبان لابنته طمعا فى ماله وشجاعته ! . فانظر اليه وقد زاره أحد بنى كليب لينهاه عما فعل حرصاً على البراق ورحمة بابنته التى تحبه وتهواه :

كليب : ما لأبى ليلى حزينا مطرقا ؟

لكيز :

أرقنى شغل بليل أرقا — جمع من همى ما تفرقا
عمرو بن ذى صهبان لما حققا — أن لها فى الحسن جدا صدقا
وفى المعالى غاية لن تلحقا — بادر فى خطبتها مستبقا

كليب :

راما بن ذى صهبان صعب المرتقى — إن سمع البراق أو تحققا
بأن عمرا باب ليلى طرقا — أرعد كالليث لنا وأبرقا
وطبق الأرض علينا طبقا

لكيز :

لكن عمراً بالأيادى سبقا — قلدنا نعماءه وطوقا
يجود كالغيث علينا غدقا — إذا بنا صرف الليالى أحدقا

كليب :

لكنه ليس من البراق — أحق بالطاهرة النطاق
نقية الأعراض والأعراق — وهو فتى الجيش لدى التلاق
وما لبكر غيره من واق — إذ تأخذ الخطوب بالخناق
وتلعب الأرواح بالتراق — فى يوم هول مظلم الآفاق

حتى إذا يئس كليب هدده بقوله :

إياك يا ابن العم أن تجيبا — فإن فيه اللوم والتأنيبا
وإن ليلى — إن تكن أريبا — تأبى سوى ابن عمها خطيبا
وهو وإن كان لها حبيباً — فما أتت نكراً ولا عجيبا
فلا يزال السيد الأريبا — فى قومها والبطل المهيبا .

يكفيهم البأساء والكروبا

فيغضب لكيز من قول كليب ويستأسد قائلا :

ويحك ! هل ليلى ترد أمرى   برد هـذا وقبـول عمرو ؟
رضيت عمرا أن يكون صهرى   ما حجتى فى رده ؟ ما عذرى ؟
أليس فى منعيه عين الغـدر   ولو أبى البراق إلا مجرى ؟

فليجر فى قطيعتى ما يجرى

وقد أنصف كليب كل الإنصاف حينما ذكره بأنه غدر بابن أخيه فقال له :

يا أبا ليلى كفى . فالحقوق . أنكرتها . ذلك الغـدر
وأحاديث الجفا . والعقوق . كررتها . حـلوها مـر
غضب البراق . مر لا يطاق . وله العـذر

ولكن أترى لكيزاً يأبه لهذا ويهتم به ؟ كلا وإنما يمعن فى قسوته ، ويسترسل فى شدته ، ويأبى إلا تنفيذ ما رآه . ولو كان ما رآه هو الخطل بعينه ، فاسمع إلى ابنته ليلى وقد عرفت من أمرها ما عرفته ، فأخذت تشكو إلى الله ظلم أبيها ، وتعدد مناقب ابن عمها ، وتبثه لواعج غرامها . ثم تعرج على خطيبها المكروه فتتمنى من الله أن يقبض روحها قبل أن تزف اليه . فتواسيها صديقتها سلمى فلا تستمع إليها ولا تزداد إلا أنينا ، وإلا حسرة على بعاد براقها .

ليلى :

رب ! كم تبلو وتمتحن   إن قلبى شفه الحزن
كلما قلت انجلت محن   عاودتنى بعدها محن

سلمى :

هل أتى على ركبنا نبأ   محزن ، من بعدما ظعنوا ؟

ليلى :

لا ولكنى أرى جللا   عاجلا يسعى به الزمن
يا ابن عمى إن لى كبداً   قد براها بعدك الشجن

إنما البراق خير فتى   فيه بنت العم تفتتن
صده عن أبي سفها   وأبي في رأيه أفن
وأتى عمرو ليخطبني   فأذلتهم له المنن
ليت شعري ما الذي خبأت   لي من أحداثها اليمن
ليتني يوم أزف له   يحتويني قبله الكفن

سلمى :

إن في الأيام معتبراً   والليالي بيعها غبن
اصبري ليلى ! ولا تهني   إن عزم الحر لا يهن

ليلى :

ارحمي يا سلم والهة   غلقت من قلبها الرهن
وارحمي البراق فهو بنا   قد جفا أجفانه الوسن

وكما قلنا من قبل إن أرواح العاشقين متجاوبة تشعر بشعور واحد ، وتحس بإحساس واحد وفي وقت واحد . فإننا نستطيع أن نقول هنا إن البراق أحس ما أحسته ليلى ، وشكا مما شكت منه ، فقال لصديقه عقيل :

براق :

ياعقيلا ، ياعقيلا   ما ترى الليل طويلا ؟
ما لنجم الليل لا يبغي عن الأفق أفولا ؟

عقيل :

طال ليلى وهو أولى   بعد ليلى أن يطولا .

براق :

بالأسى قد عيل صبري

عقيل :

أي نعم، صبرك عيلا
يا ابن روحان رويداً   واصبر الصبر الجميلا

براق :

إن يحـــل دونى فإنى عن هواها لن أحولا
يرتضى مثل ابن ذى صهبـــان من ليـــلى حليلا
إن ليـــلى ياعقيل لاترى منى بديلا
خذلونى خذلـــوها أغضبوا السيف الصقيلا
أنا إن لم أسق عمى بالردى كأسا وبيلا

فيخاف عقيل من هذا التهديد ويخشى عاقبته . . ويشفق للكيز أن يقتله ابن أخيه فيقول لصديقه بخبث :

عقيل :

أو ترضى يتم ليلى ؟

فيستفيق براق حينا يسمع اسم ليلى ، وتأخذه عليها الشفقة والرحمة ، ويخاف إن هو نفذ تهديده . . فيكرر صديقه الخبيث قوله :

عقيل :

أو ترضى يتم ليلى ؟

براق :

لا ولا ، حسبي ذهولا
قطع السيف يمينـــا تترك العم قتيـــلا
والفتى من كان للأهلـــين مياحا وصـــولا

غير أن براق يرى أن من المستحيل عليه معاشرة أهله ، وقد حطموا قلبه ، وفتتوا كبده فيقول :

غير أنى لا أرى عن أرضكم إلا الرحيلا
يا لقومى للنوى زمـــوا عن الحى الحمولا
وإلى البـــحرين فى صبح غد ، حثوا الرعيلا

فلما كان الصباح رحل براق إلى اليمامة ليأسو جرحه ، وينسى ما هو فيه من عذاب وألم . فهل ترى الأقدار ساعدته ؟ أم كانت تعد له من مخبآتها ما أثار شهوته واستفز رجولته وألهب حميته ، وهو العربي الصميم ؟

هذه الأقدار قد حاربته وعذبته ، فانه ما كاد يستقر فى اليمامة حتى علم أن قومه فى حرب ضروس مع طىء وخزاعة . فماذا يعمل ؟ أيذهب ويحارب معهم حتى ينتصروا وهم هم الذين عذبوه ومزقوا قلبه . . ؟؟ أم يتركهم لأعدائهم يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ؟ إنه إن فعل هذا فقد لحقه العار ، وركبه الذل ، وناهيك بعار العرب وذلهم ، على أنه مع هذا وذاك لم ينس أن يتهكم ويعد بقوته فيقول :

أتانى أن قومى جد فيهم　　　من الحدثين شر مستطير
أناخت بينهم حرب عوان　　　ضروس للردى فيها زئير
وما أدرى أيذكرنى لكيز　　　إذا استعرت وطارلها زفير ؟
وهل هو يابن ذى صهيان يغنى　　　إذا عميت على القوم الأمور ؟

وما إن ينتهى براق من قوله حتى يخبره خادمه بضيوف يطلبونه ، وسنرى الآن من أخلاق براق ما يدهشنا ، وما يثير إعجابنا .

الضيوف : نزلنا بأبى نصر　　　سلام يا أبا نصر
دعوناك إلى أمر　　　فهل تصغى إلى الأمر ؟
بنو عمك قد جاروا　　　ومـــدوا سبب الشر
وقد خانوك من قبـل　　　بمحض البغى والغدر
فخالفنا وأيدنا عليهـــم واسع فى النصر
نحالفه على من شئـ　　　ـت فى بر وفى بحر

براق : ذرونى لست أترك آل قومى　　　وأرحل عن فنائى أو أسير
بهم ذلى إذا ما كنت فيهم　　　ولكن لى بهم شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسر　　　وأرحل إن ألم بهم عسير ؟

وفى إثر هـــذا القول الذى خيب ظن القول يخرجون وهم يتميزون غيظاً ويحترقون ألماً . بل وفى إثره أيضاً يعلم براق بموت أخيه وانكسار قومه ، وأسر أغلبهم ، وفيهم « ليلى » فيطير عقله ، وينخلع قلبه ، ويسافر تواً إلى قومه ويجمع شملهم وينظم عقدهم . ويشاء الله أن ينتصر انتصارا حاسما ، وأن يشقع

أعداءه ، ويمزقهم شر ممزق ثم يرجع إلى ليلى ليستأنفا سعادتهما وحبهما ، وهو يقـول :

يا ليل قومك عنك قد نكلوا   يا خجلتى يا بئس ما فعلوا
أفأسلموك وأمعنوا هربا   وتخطفتهم دونك السبل ؟
أم كانت الجسلى فما ثبتوا   وعن الحريم لهولها ذهلوا ؟
أهلوك لا ميل ولا كشف   عند اللقاء ، إذا هم نزلوا
إن يخذلوك قرب معـترك   عميت به النجدات والحيل

وقال عبد المطلب فى احتفال الأمة المصرية بعيد النيروز سنة ١٩١٩ م ، يفخر بمصر ويعدد مآثرها من قصيدة طويلة :

لنا ذروة المجد الذى تحت ظله   تناسلت الأحقاب واعتمل الدهر (١)
لنا آية الأهرام يتلو قديمها   حديث الليالى فهى فى فمها ذكر
ملأنا بها لوح الوجود مناقبا   إذا ما خلا عصر تلاه بها عصر (٢)
وللعلم من آثارنا فى جبالنا   على الدهر آيات بها ينطق الصخر
وللملك منا كل أروع نظمت   على تاجه الأفلاك والأنجم الزهر (٣)
ومنا الذى ساق الأساطيل شرعاً   على البحر يستحيى لصولتها البحر (٤)
لنا كل ما فى الأرض من مدنيـة   بها تعمر الأمصار والبلد القفر (٥)
لنا فى الورى حق المعلم لو رعوا   لنا ذمة والدهر شيمته الغـدر
إذا اعتز قوم بالحديد سمت بنا   مكارم فى طى الزمان لها نشر (٦)

---

(١) اعتمل الدهر : اضطرب

(٢) مناقب : جمع منقبة أى مفخرة .

(٣) الأروع : السيد الشهم .

(٤) شرعا : ضاربات بأشرعتها فى الجو . الصولة : البطش .

(٥) البلد القفر : الخالى من النبات .

(٦) يريد أن لنا تاريخا مجيدا مطويا فى السنين الخالية تنشر أخباره على الأيام وهو مبعث العزة فينا كما يعتز غيرنا بالمخترعات الحديثة .

بنينـا على آداب عيسى وأحمـد	منازل عز دونها يقع النسر (١)
كلانا على دين به هـو مؤمن	ولـكن خذلان البلاد هو الـكفر
فلا يحسبن النـاس أنا تزلزلت	بنـا قدم أو مس وحدتنا الضر

ومن شعره قصيدته فى تكريم شوقى ، التى نحر فيها بقديمه قال :

تأوبنى والليـل بالصبح مزعج	خيال له فى حندس الهم منهج
يكلف جفنى الغـرار لعـــله	إلى النفس فى طى الكرى يتدرج
وما شغلت عينى عن النوم صبوة	بها شاقنى طرف من العين أبرج
ولا بات يغرينى بمعسولة اللمى	إذا ابتسمت ذاك الجمان المفلج
ولا ذرفت عينى لركب يشوقنى	غداة النوى فيـــه خباء وهودج
لويت زمام النفس عن سنن الهوى	وخليت أتراب الهوى حيث عرجوا
ورحت الى ما يبتنى المجـــد للفتى	وأدلجت فى ركب العلا يوم أدلجوا
وما المجد إلا حيث حلت رباعنا	له فى نواحيهـا ظلال وسجسج
إذا أجديت أحساب قوم سما بنا	على الناس جياش الغوارب مرتج
لنـا الباذخات الشم تعلو قلالهـا	على كل ما شاد الأنام وبرجوا
سلوا الدهر عنا فى القديم فانمـا	بأسلافنا يذكو قـــديما ويأرج
لهم فى نواحى كل جيل مناقب	تجــد إذا أهل المناقب أنهجوا
إذا عرض الدنيـا بنى مجد معشر	زهاهم من الدنيـا رواء وبهرج
فشادوا على زيف المظاهر قوة	يصول بها سيف من البغى أعوج
رفعنا منـار الحق فى مدنيـــة	سنا الحق من آفاقها يتبلج !!!
حياة ورثناها بيانا مفصـــلا	بها ينطق الذكر الحكيم ، ويفلج
فنحن إذا الأقلام جالت جيادها	أولو السبق تجرى حيث شئنا ونهمج

ولعبد المطلب عدة مسرحيات منها (ليلى العفيفة) ظهر فيها طابعه فى الشعر ، ونحا كاتبه لأسلوب الأقدمين .

---

(١) النسر : طائر جارح لا يقع إلا على القمم العالية .

ومن شعره البدوى الجزل :

أسألت باكية الدياجى ما لها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعا ... غلب الأسى عبراتها فأسالها
تطوى على الآلام مهجة صابر ... قطع الزمان بريبة آمالها
فالنجم يخفق عن فؤاد كريمة ... رحم السحاب جفونها فبكى لها
تبكى إذ انقطع الأنيس لصبية ... يتضورون يمينها وشمالها
من كل ناعمة الحياة ومترف ... ورد الحياة معينها وزلالها
يشكو الطوى فتفيض مهجة أمه ... شفقاً عليه وليس يدرى حالها
ولأخته عين تحدث أمها ... وحيا وقد حبس الحياء مقالها
كلب الشتاء بجسمها فتعطفت ... تطوى على خاوى الحشا أوصالها
حتى إذا رقد الأسى بجفونها ... وهفا النعاس برأسها فأمالها
غلب الطوى أحشاءها فتفرغت ... حيرى تعانى سهدها وملالها
يا ليت شعرى هل يقيل عثارها ... دهر تولى خربها ونكالها
منذا يجير على الليالى أسرة ... خطف المنون غياثها وثمالها؟
أم من يمد يداً لنصر مصونة ... بذل الزمان قناعها فأذالها؟
قذف الصباح بها سبيل بنى الندى ... لتجير من غول الخطوب عيالها
ويتيمة شهد الزمان بيتمها ... فى الحسن لم تلد الحسان مثالها
خرجت من الإسكندرية غدوة ... تزجى إلى أكناف مصر رحالها
حتى إذا وقف القطار بها على ... باب الحديد تلفتت أسمالها
وسعت تقلب مقلة محزونة ... فى الذاهبين يمينها وشمالها
تقتاد فى الطرقات فانية القوى ... محنية صبغ المشيب قذالها
حمى النهار عليهما فكأنه ... ظل تمدد على الطريق سدالها
لولا فتى جم المروءة أقبلت ... تشكو إليه عثارها فأقالها
من معشر عقدوا ضمائرهم على ... حب المروءة يخطبون جمالها
مدوا لنجدتها أكفاً أرخصت ... فى سوم غالية المحامد مالها

شعراء هاجروا إلى مصر

وقد هاجر إلى مصر كثير من الشعراء العرب ، فى مقدمتهم خليل مطران شاعر القطرين : مصر — ولبنان — والشاعر العراق الكاظمى ، وقد جمع الشيخ عبد المحسن الكاظمى الأدب والرواية ، وكان الكاظمى الحديث يطارح بالأدب ويسابق إلى قرض الشعر ، وكان أحيانا يجيد إجادة يعجب بها القوم . والكاظمى ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة ، من حيث متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ ، وربما امتاز عن كثيرين منهم بخلو شعره من المماظلة والتعقيد والاغراب . وكما أنه تفوق على شعراء زمانه بهـــذه الطريقة الفحلة تراه امتاز عنهم أيضا بأنه يرتجل الشعر ارتجالا غاية فى السلاسة لاجمجمة فيه ولا تلكؤ ، وإذا ارتجله وقع شعره المرتجل فى قالب طريقته الشعرية المطبوعة ، أى أنه مهما طال نفسه فى الارتجال جاء شعره المرتجل موسوما بطابعه الشخصى ، متقاودا مستوى المتون ، لاتباين فيه ولا تفاوت ، لايخذل آخره أوله ، ولا ينوء عجزه بكلكله ، وهذا موضع الغرابة فى ارتجاله . وربما لا يجاريه فى هذه المزية إلا القليل من الشعراء الأقدمين ، بله المتأخرين من شعراء هذه الأيام .

وقد ولد الكاظمى فى بغداد عام ١٢٨٣ هـ ، ومال إلى الأدب ، واتصل بجمال الدين الأفغانى حين كان فى بغداد ، وهاجر من وطنه مشردا فى البلاد العربية حتى استقر به المقام فى مصر ، خوفا من بطش الباطشين . وله ديوان شعر كبير مطبوع ، وكتب أخرى(١) . ومن شعره من قصيدة « الحرية » :

يكفى جمالك أنت فيه يوسف ... وكفى محبك أنه يعقوب
أمنية الشعبين أنت فضيلة ... تاقت إليك قبائل وشعوب
حرية الأمصار أنت حبيبة ... فى حبها يستعذب التعذيب
حتام نحتمل المذلة طوعا ... ولنا بآفاق البلاد وثوب

---

(١) راجع ترجمته فى صـ ٩٧ وما بعدها من « الأدب العصرى فى العراق » .

ومن شعره قوله :

أى فخر للناعين بعيش لم تجلله عزة قعساء ؟
وكفى المرء بعد موت حياة أن ذكراه حلوة حسناء
قد قضى الكاظمى وهو جدير أن تعزى فى موته الشعراء
ذكرته نعاته بنعوت قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان ما يقولون حقا إنهم بالذى نسوا لؤماء
كيف ينسون فى الحياة أديبا عبقريا عنت له الأدباء
أفينسى حيا ويذكر ميتا إن هذا ما تنكر العقلاء
إن هذا أمر يتيه ضلالا فى بوادى تفسيره الحكماء
ضحكوا منه فى الحياة ومذ ما ت تعالى نحيبهم والبكاء
يكرم الميت بالثناء وتحيا عندكم فى المهانة الأحياء
كل من يخبر الأناسى خبرى لا يبالى أأحسنوا أم أساءوا
أنا جربتهم إلى أن تساوى الـ يوم عندى سبابهم والثناء
قد تمادى فى القائلين غلو وتوالى فى الفاعلين رياء
أيها الكاظمى نم مستريحا حيث لا مبغض ولا إيذاء
عشت فى مصر باحترام يؤديـ ـه إليك الأماثل الفضلاء
أى حر فى الشرق عاش سعيداً لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئا إن لم تعش فى العراقيـ ـن مضاعا تنتابك الأرزاء
من شقاء العراق أن ذوى النعـ ـمة فيه أجانب غرباء
إن جفتنا بلادنا فهى حب ومن الحب يستلذ الجفاء
لم نحل عن عهودها مذ جفتنا بل لها الود عندنا والوفاء
قد بكينا شجوا عليها ومنها وعنانا سقامها والشقاء
كم أردنا سخطا عليها ولكن غلب السخط فى القلوب الرضاء
إنما هذه المواطن أم مستحق لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاء ومن الأم هل يراد جزاء ؟
إنما نحن مصلحون وما إن غاية المصلحين إلا الوفاء
نحن كالشمع حين ذاب اشتعالا فهدى المظلمين منه الضياء

محمد إمام العبد

كان أبوه – كما يقول بعض من كتبوا عنه – حارس الباب ، فى أحد القصور « الخديوية » فى ذلك الزمن . وكان فى هذا القصر مدرسة خاصة لتعليم أولاد الموظفين . فانتظم « إمام » فى سلك تلاميذها وتلقى فيها مبادىء القراءة والكتابة . ثم أكمل دراسته فى المدرسة الناصرية ، مع أولاد الأعيان والذوات .

ومال « إمام » إلى الأدب ، فبرز فى الأندية الأدبية ، كزجال موهوب ، وقد اتجه فى أول عهده إلى نظم الشعر فى فنون الرياضة التى أصبح رائدا فيها عام ١٩٠٠ ثم دعى إلى الجندية ، ولم يكد يصل إلى حلفا حتى صدر الأمر بتسريحه فوراً وإعادته إلى القاهرة .

اشتهر « إمام العبد » بشعره الجيد . شهرته بلونه الأبنوسى الفريد ويقول الكثيرون ممن عاصروه إن لونه كان آفته ! وإن كان لم يغض من محاسن شعره . !

ولقد نظم « إمام » أكثر شعره فى الشكوى من الزمن الخؤون . والظروف القاسية ، وحقا لقد جارت عليه الأيام . وكان أنينه من جورها مشجيا . وكان لهذا الأنين صدى تجاوب فى قلوب أولئك الذين خلب ألبابهم بدائع شعره ، وروائع زجله وأدبه ، ولكنه كان إلى جانب ذلك ساخراً بآلامه ، غير مبال بما يلقاه منها . فقد كان أظرف أدباء عصره بارع النكتة يرتجلها ارتجالا فى خفة وذوق ، وبراعة .. ولذلك كان من يراه ، يرى فيه الطلاقة والبشر ، وعذوبة النفس . مع أن قلبه كان حافلا بالأسى والشجون ، ومن أصدق شعره ، قصيدته التى نظمها عن نفسه قبل وفاته بأيام قليلة . ويقول فيها :

جرى دمعه من قومه فتألما فصلى على المجد القديم وسلما
عذابان : هذا فى الفؤاد محله وذياك فات الجسم نهباً مقسما

وكان «إمام العبد» من الشعراء الذين يجيدون تصوير مايخالجهم من المشاعر . وكان حاضر البديهة ، وكأن الدهر رأى ماينطوى عليه قلبه من الاحساس الدافق والشعور المرهف فساعده على إبرازها .

اسمه يصف شابا فى نضارة العمر ، وعنفوان الصبا وقد وقع صريع السل :

عشق الموت مكرها فى شبابه   رب موت تعار فى أسبابه
قبل أن يدفنوه فى الرمس ميتا   دفنته الأيام ، فى جلبابه !
فإذا رمت أن تراه بعين   لا ترى غير أنه فى ثيابه

وهذه قطعة أخرى من أجمل شعره وأصدقه تعبيراً ، وعنوانها « القطة القافزة » :

ولما التقينا والأسنة شرع   ونادى المنادى لانجاة من الحتف
حطفت على سيف المنية فانجلت   صفوف ، وكان الصف ألصق بالصف
فرحت وفى وجهى وجوه عبوسة   وعدت وأشلاء الفوارس من خلفى
فلم أر قلبا غير قلبى بجانبى   ولم أر سيفا غير سيفى فى كفى

وكان سواد لون إمام العبد مدعاة لتندر أصدقائه ومعارفه ، وكان يقابل هذا التندر منهم بكثير من رحابة الصدر ، ورحابة الابتسام ، وها هو ذا يتغزل فى غادة بيضاء أحبها فعيرته بأنه « عبد » ، فلم يشأ أن ينفى التهمة عنه ، ولكن راح يؤكدها بقوله :

هى : أنت عبد والهوى أخبرنى   أن وصل العبد فى الحب حرام
هو : قلت : يا هذى أعبد فى الهوى   والهوى يحكم ما بين الأنام
وإذا ما كنت عبداً أسوداً   فاعلمى أنى فتى حر الكلام

وقد كان الاشتغال بالأدب فى العصر الذى ظهر فيه « إمام العبد » مجازفة خطيرة ، ولذلك أطلقوا عليه لقب « إمام البؤساء » . لفرط ما كان يلقى من عذاب وشقاء فى دنياه ، وليس فى البؤس عار ، إذ طالما لصق بأهل الأدب وذوى المواهب وأصحاب العبقريات ، إن بؤس الفنانين يصهرهم ويطهرهم من أدران المادة ، ومن هنا حكمة القدر ، فى بعث النبوغ ، من أحط درجات الحياة الفقيرة ، وهكذا انبعثت الشاعرية فى صدر هذا الشاعر الموهوب ! ومع ذلك فقد كان خفيف الروح ضاحك النفس ذلك لأن بؤسه كان من تهاويل خياله ! كما يقول كاتب

وتوفى إمام العبد بعد جهاد طويل عام ١٩١٥ .

صور من الشعر المصرى

فى عصر حافظ وشوقى

— ١ —

قال شوقى من قصيدة « شهيد الحق »[1]:

إلام الخلف بينكمو إلاما ؟ … وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكمو لبعض … وتبدون العداوة والخصاما ؟
وأينا الأمر حزبا بعد حزب … فلم نك مصلحين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا … ولم نعد الجزاء والانتقاما
وسسنا الأمر حين خلا إلينا … بأهواء النفوس فما استقاما
شهيد الحق ! قم تره يتيما … بأرض ضيعت فيها اليتامى
بك الوطنية اعتدلت وكانت … حديثا من خرافة أو مناما
بنيت قضية الأوطان منها … وصيرت الجلاء لها دعاما
هززت بنى الزمان به صبيا … وروعت به بنى الدنيا غلاما
جمعت الناس حول العرش علما … بأن لمصر فى العرش اعتصاما
إذا طافوا ببيت الملك يوما … سبقتهمو إلى الركن استلاما
يضائل شخصك الضاحى وقارا … وتخفض رأسك العالى احتشاما
وكان العرش هامة كل قوم … وإن كانوا أجل الناس هاما
هو العلم الذى تفديه مصر … ونحن الجند فى العلم انتظاما
أرى وطنا تحير ناشئوه … فما يجدون من عمل قواما
فلا أسس التجارة فيه قرت … ولا ركن الصناعة فيه قاما
مدارس لم تهيئهم لكسب … ولم تبن الحياة ولا النظاما

---

(١) ألقيت بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا ، وقد تناول فيها وصف ما أصاب البلاد فى سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتأخر

— ٢ —

ولأحمد شوقى على لسان كليوباترا حينما عزمت على الانتحار بعضة أفعى :

هلمى الآن منقذتى هلمى ... وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شربت السم من فيك المفدى ... بسلطان وزدت عليه مالى
على نابيك من زرق المنايا ... شفاء النفس من سود الليالى
وبعض السم ترياق لبعض ... وقد يشفى العضال من العضال
دعوت الراحة الكبرى فلبت ... فيعدأ للحياة وللنضال
هلمى عانق أفعى قصور ... بها شوق إلى أفعى التلال
سطت روما على ملكى ولصت ... جواهر أسرتى وحلى آلى
فرمت الموت لم أجبن ولكن ... لعل جلاله يحمى جلالى
فلا تمشى على تاجى ولكن ... على جسد ببطن الأرض بال
وقد علم البرية أن تاجى ... نمته الشمس والأسر العوالى
يطالبنى به وطن عزيز ... وآباء وداتعهم غوالى
أأدخل فى ثياب الذل روما ... وأعرض كالسبي على الرجال
وأحدج بالشماتة عن يمينى ... ويعرض لى التهكم عن شمالى
وألقى فى الندى شيوخ (روما) ... مكان التاج من فرقى خالى
وأغشى السجن تاركة ورائى ... قصور العز والغرف الخوالى ؟
وتحكم فى (روما) وهى خصمى ... وتسرف فى العقوبة والنكال
يرانى فى الحبائل مترفوها ... وقد كان القياصر فى حبالى
إذن غير الملوك أبى وجدى ... وغير طرازهم عمى وخالى
سأنزل غير هائبة إذا ما ... تلفتت المنية للنزال
أموت ، كما حييت ، لعرش مصر ... وأبذل دونه عرش الجمال
حياة الذل تدفع بالمنايا ... تعالى حية الوادى تعالى

— ٣ —

وهذه القصيدة واحدة من الشوقيات الكثيرة التى لم ترد فى دواوين شوقى الأربعة ، وقد رثى بها أستاذه وصديقه وجاره ، العالم الأثرى والمحقق اللغوى المرحوم الأستاذ على بهجت ، قال :

أحق أنهم دفنوا عليا   وواروا فى الثرى المرء الزكيا ؟

فما تركوا من الأخلاق سمحا   على وجه التراب ولا رضيا

مضوا بالضاحك الماضى وألقوا   إلى الحفر الخفيف السمهريا

فمن عون اللغات على ملم   أصاب فصيحها والأعجميا ؟

تلفتت الفنون وقد تولى   فلم تجد النصير ولا الوليا

سلوا الآثار من يغدو يغالى   بها ويروح محتفظا حفيا

ويتزلها الرفوف كجوهرى   يصفف فى خزائنه الحليا

وما جهل العتيق الحر منها   ولا غبى المقلد والدعيا

فتى عاف المشارب من دنايا   وصان عن القذى ماء المحيا

أبى النفس فى زمن إذا ما   بلوت بنيه لم تجد الأبيا

تعود أن يراه الناس رأسا   وليس يرونه الذنب الدنيا

غدير أترع الأوطان خيراً   وإن لم تمتلىء منه دويا

وقد تأتى الجداول فى خشوع   بما قد يعجز السيل الأتيا

حياة معلم طفئت وكانت   سراجا يعجب السارى وضيا

سبقت القابسين إلى سناها   ورحت بنورها أحبو صبيا

أخذت على أريب ألمعى   ومن لك بالمعلم ألمعيا !!

ورب معلم تلقاه فظا   غليظ القلب أو فدما غبيا

إذا انتدب البنون له سيوفا   من الميلاد ردهمو عصيا

ورب معلمين خلوا وفاتوا   إلى الحرية انساقوا هديا

أناروا ظلمة الدنيا وكانوا   لنار الظالمين بها صليا

إذا رشد المعلم كان موسى وإن هو ضل كان السامريا

أرقت وما نسيت بنات يوم على المطرية اندفعت بكيا

بكت وتأوهت فوهمت شرا وقبلى داخل الوهم الذكيا

قلبت لها الحذى وكان منى ضلالا أن قلبت لها الحذيا

زعمت الغيب خلف لسان طير جهلت لسانه فزعمت غيا

أصاب الغيب عند الطير قوم وصار اليوم يتهمو نبيا

إذا غناهمو وجدوا سطيحا على فمه وأفعى الجرهميا

رمى الغربان شيخ تنوخ قبلى وراش من الطويل لها رويا

لها من ناجذيه كل لحم وغودر لحمهن به شقيا

نعست فما وجدت الغمض حتى نفضت عن المناحة مقلتيا

فقلت نذيرة وبلاغ صدق وحق لم يفاجىء مسمعيا

ولكن الذى بكت البواكى خليل عز مصرعه عليا

ومن يفجع بحر عبقرى يجد ظلم المنية عبقريا

ومن تتراخ مدته فيكثر من الأحباب لا يحصى النعيا

أخى أقبل على من المنايا وهات حديثك العذب الشهيا

فلم أعدم إذا ما الدور نامت سميرا بالمقابر أو نجيا

فذكرنى الدجى لدة حميا هنالك بات أو خلا وفيا

تهددك بالمنية وهى حق ألم يك زخرف الدنيا فريا ! ؟

أتاك من الحياة الموت فانظر أكنت تموت لولم تلف حيا !!

وللاشياء أضداد ، اليها تصير إذا صبرت لها مليا

ومنقلب النجوم إلى سكون من الدوران يطوبهن طيا

تخبرنى عن الماضين إنى شددت الرحل أنتظر المضيا

وصف لى منزلا حلوا إليه فما لحوا الطريق ولا المضيا

وكيف أتى الغنى له فقيرا وكيف ثوى الفقير به غنيا

لقد لبسوا له الأزياء شتى فلم يقبل سوى التجريد زيا

سواء فيه من وافى نهارا ومن قذف اليهود به عشيا

ومن قطع الحياة صدى وجوعا ومن مرت به شبعا وريا

وميت ضجت الدنيا عليه وآخر ما تحس له نعيا !

— ٤ —

وقال أحمد شوقي يتحدث عن النيل :

من أي عهد في القرى تتدفق   وبأي كف في المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق ؟
وبأي نول أنت ناسج بردة   للضفتين جديدها لا يخلق ؟
أنت الدهور عليك مهدك مترع   وحياضك الشرق الشهية دفق
تسقي وتطعم ، لا إناؤك ضائق   بالواردين ، ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجداً   والأرض تغرقها فيحيا المغرق
تعيي منابعك العقول ويستوي   متخبط في علمها ومحقق
دين الأوائل فيك دين مروءة   لم لا يؤله من يقوت ويرزق ؟
لو أن مخلوقاً يؤله لم تكن   لسواك مرتبة الألوهة تخلق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة   إن العبادة خشية وتعلق
دانوا ببحر بالمكارم زاخر   عذب المشارع مده لا يلحق
متقيد بعهوده ووعوده   يجري على سنن القضاء ويصدق
يتقبل الوادي الحياة كريمة   من راحتيك عميمة تتدفق
ونجيبة بين الطفولة والصبا   عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف إليك غاية حظها   والحظ إن بلغ النهاية موبق
في كل عام درة تلقى بلا   ثمن إليك وحرة لا تصدق
حول تسائل فيه كل نجيبة   سبقت إليك متى يحول فتلحق ؟
والمجد عند الغانيات رغيبة   يبغى كما يبغى الجمال ويعشق
زفت إلى ملك الملوك يحثها   دين ويدفعها هوى وتشوق
مجلوة في الفلك يحدو فلكها   بالشاطئين مزغرد ومصفق
في مهرجان هزت الدنيا به   أعطافها واختال فيه المشرق
ألقت إليك بنفسها ونفيسها   وأتتك شيقة حواها شيق
خلعت عليك حياءها وحياتها   أأعز من هذين شيء ينفق ؟
وإذا تناهى الحب واتفق الفدا   فالروح في باب الضحية أليق

— ٥ —

وهذا هو النشيد الوطني لمصطفى صادق الرافعي :

حماة الحمى ، ياحماة الحمى   هلموا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما :   نموت ، نموت ، ويحيا الوطن
هلموا ، هلموا

لتبدو السماوات في رعدها   لترم الصواعق نيرانها
إلى عز مصر ، إلى مجدها   رجال البلاد وفتيانها
فلا عاش من ليس من جندها   ولا عاش في مصر من خانها
نموت ونحيا على عهدها   حياة الكرام وموت الكرام
حماة الحمى ، ياحماة الحمى   ... ...

بلادي احكمي واملكي واسعدي   ولا عاش من لم يعش سيداً
بحر دمي ، وبما في يدي   أنا لبلادي ونيلي فدا
لك المجد يامصر فاستمجدي   بعزة شعبك طول المدى
ونحن أسود الوغى ، فاشهدي   وثوب أسودك يوم الصدام
حماة الحمى ، ياحماة الحمى   ... ...

ورثنا سواعد باني الهرم   صخوراً ، صخوراً ، كهذا البنا
سواعد يهتز فيها العلم   نباهي به ويباهي بنا
وفيها كفاء العلى والهمم   وفيها ضمان لنيل المنى
وفيها لأعداء مصر النقم   وفيها لمن سالموه السلام
حماة الحمى ، ياحماة الحمى   هلموا ، هلموا ، لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما   نموت ، نموت ، ويحيا الوطن
هلموا ، هلموا

— ٦ —

وهذا هو النشيد القومي للشاعر المرحوم مصطفى صادق عنبر :

بلادي بلادي فداك دمي   وهبت حياتي فدى فاسلمي

غرامك أول ماقى الفؤاد ونجواك آخر ماقى فمى
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

حياتك يامصر فوق الحياة وصوتك يامصر وحى الإله
تعاليت يامصر من موطن على الدهر يبقى وتفنى عداه
سأهتف باسمك ماقد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

أيا مصر هذا لواء الهرم على النيل يخفق منذ القدم
تمر عليه جيوش الزمان تحيى اللواء تحيى العلم
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

لك الشرق ألقى زمام القياد فنعم الزعامة بين البلاد
فيوماً حملت لواء الفنون ويوماً حملت لواء الجهاد
سأهتف باسمك ماقد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

يظلك ماض عزيز كريم وترعاك عين العلى العظيم
ألست الكنانة فى أرضه وموعد جنته والنعيم
سأهتف باسمك ماقد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

بلادى بلادى إذا اليوم جاء ودوى النداء وحق الفداء
فحيى فتاك شهيد هواك وقولى سلاما على الأوفياء
سأهتف باسمك ماقد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

— ٧ —

وللشاعر يوسف حمدى يكن يرثى عدلى باشا :

سلام على ابن العم منى ومن أهلى　　سلام على السراء بعدك «ياعدلى»
لئن صدعت شمل الكرام بدالردى　　لحسب المنايا : أنها صدعت شملى
ليالى : طال الحرب بينى وبينها　　وما سالمت أمثالها شاعراً مثلى
وكنت أرجى سبق عدلى إلى الثرى　　ولكن مضى قبلى ، كما جاء من قبلى
لقد ثكلت مصر ابنها ، فمصابها　　جليل ، وما ألقى : أشد من الثكل
سيحصى لك التاريخ فى كل مشرق　　مناقب تترى ، دونها عدد الرمل

— ٨ —

وقال شوقى فى مشروع القرش يخاطب الشباب :

لا يقيمن على الضيم الأسد　　نزع الشبل من الغاب الوتد
كبر الشبل وشبت نابه　　وتغطى منكباه باللبد
اتركوه يمش فى آجامه　　ودعوه عن حمى الغاب يذد
واعرضوا الدنيا على أظفاره　　وابعثوه فى صحاراها يصد
فتية الوادى عرفنا صوتكم　　مرحبا بطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق لم يبغ ولم　　يحمل الحقد ولم يخف الحسد
تلك مصر الغد تبنى ملكها　　نادت البانى وجاءت بالعدد
وعلى المال بنت سلطانها　　ثابت الأساس مرفوع العمد
وأصارت بنك مصر كهفها　　حبذا الركن وأعظم بالسند
مثل من همة قد بعدت　　ومداها فى المعالى قد بعد
ردها العصر إلى أسلوبه　　كل عصر بأساليب جدد
البنون استنهضوا آباءهم　　ودعا الشبل من الوادى الأسد
أصبحت مصر وأضحى مجدها　　همة الوالد أو شغل الولد
هذه الهمة بالأمس جرت　　لحوت فى طلب الحق الأمد
أيها الجيل الذى نرجو لغد　　غدك العز ودنياك الرغد
أنت فى مدرجة السيل وقد　　ضل من فى مدرج السيل رقد
قمت فى الحق فقد فى مثله　　من نواحى القصد أو سبل الرشد
علم الآباء واهتف قائلا :　　«أيها الشعب تعاون واقتصد»

رب عام أنت فيه واجد   فادخر فيه لعام لا تجد
جمع القرش إلى القرش يكن   لك من جمعهما مال لبد
اطلب القطن وزاول غيره   واتخذ سوقا إذا سوق كسد
نحن قبل القطن كنا أمة   تهبط الوادى وترعى وترد
قد أخذنا فى الصناعات المدى   وبنينا فى الأوالى ما خلد
وغزلنا قبل إدريس الكسا   ونسجنا قبل داود الزرد
لن تك اليوم لواء قائداً   كم لواء لك بالأمس انعقد

— ٩ —

ومن قصيدة لأحمد شوقى :

ويا «سعد» أنت أمين البلا   د قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تقد القنا   ة ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصبا   ح وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها   عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه   وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه   كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه   عشيرة مصر وجيرانها
وأما الشريك فملاته   هى الشركات وأقطانها
وحرب مضت نحن أوزارها   وخيل خلت نحن فرسانها
وكم من أتاك بمجموعة   من الباطل ، الحق عنوانها
فأين من «الملش» «بحر الغزا   ل» وفيض «نيانزا» وتهتانها ؟
وأين التماسيح من لجة   يموت من البرد حيتانها
ولكن رءوس لأموالهم   يحرك قرنيه شيطانها
ودعوى القوى كدعوى السباع   من الناب والظفر برهانها

— ١٠ —

ولأحد شوق فى الوطن :

عصفورتان بالحجا ز حلتا على فنن
فى خامل من الريا ض لاند ولا حسن
بينا هما تنتجيا ن سحرآ على الغصن
مر على غصنيهما ريح سرى من اليمن
حيا وقال : درتا ن فى وعاء ممتهن
لقد رأيت حول صنعا ء وفى ظل عدن
خمائلا كأنها بقية من ذى يزن
الحب فيها سكر والماء شهد ولبن
لم يرها الطير ولم يسمع بها إلا افتتن
هيا اركبانى نأتها فى ساعة من الزمن
قالت له إحداهما — والطير منهن الفطن —
« يا ريح أنت ابن السبيـ ـل ما عرفت ما السكن ؟
هب جنة الخلد اليمن لا شىء يعدل الوطن »

— ١١ —

مصر — لحافظ ابراهيم :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهـ ـر كفونى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشر ق ودراته فرائد عقدى
أى شىء فى الغرب قد بهر النا س جمالا ولم يكن منه عندى ؟
ورجال لو أنصفوهم لسادوا من كهول ملء العيون ومرد

إنهم كالظبا ألح عليها ... صدأ الدهر من ثواء وغمد

فإذا صيقل القضاء جلاها ... كن كالموت ماله من مرد

قل لمن أنكروا مفاخر قومى ... مثل ما أنكروا مآثر ولدى

هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ ... ـبر يوما فريتم بعض جهدى ؟

هل رأيتم تلك النقوش اللواتى ... أعجزت طوق صنعة المتحدى ؟

هل فهمتم أسرار ماكان عندى ... من علوم مخبوءة طى بردى ؟

ذاك فن التحنيط قد غلب الدهـ ... ـر وأبلى البلى وأعجز ندى

أنا أم التشريع قد أخذ الرو ... مان عنى الأصول فى كل حد

ورصدت النجوم منذ أضاءت ... فى سماء الدجى فأحكمت رصدى

وشدا (بنتاءور) فوق ربوعى ... قبل عهد اليونان أو عهد نجد

وقديما بنى الأساطيل قومى ... ففرقن البحار يحملن بندى

فسلوا البحر عن بلاء سفينى ... وسلوا البر عن مواقع جردى

أى شعب أحق منى بعيش ... وارف الظل أخضر اللون رغد ؟

فردوا بى مناهل العز حتى ... يخطب النجم فى المجرة ودى

وارفعوا دولتى على العلم والأخـ ... ـلاق فالعلم وحده ليس يجدى

إن فى الغرب أعينا راصدات ... كحلتها الأطماع فيكم بسهد

فاتقوها بجنة من وئام ... غير رث العرا وسعى وكد

واصفحوا عن هنات من كان منكم ... رب هاف هفا على غير عمد

نحن نجتاز موقفا تعثر الآ ... راء فيه . وعثرة الرأى تردى

فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا ... جانبيه بعزمة المستعد

إننا عند فجر ليل طويل ... قد قطعناه بين سهد ووجد

وتجلى ضياؤه بعد لأى ... وهو رمز لعهدى المسترد

فاستبينوا قصد السبيل وجدوا ... فالمعالى مخطوبة للمجد

— ١٣ —

ومن قصيدة للبكرى[1] يصف فيها مصر ، ويحن إلى رؤيتها :

هل هب من مصر صبا   أو طار برق أشقر
أو قد ذكرت بطاحها   وهى البساط الأخضر
والنيل فى لبـــاتها   عقد يلوح بجوهر
والجو صحو مشرق   وكأنما هو عطر
والظل من خلل الشمو   س مدرهم ومدنر
فكأنه جلد من النـ   ـمر المرقش ينشر
وغصونها لدن تميـ   ـل بما تقل وتثمر
فكأنهـن ولائد   فى حليها تتكسر
هى وشى نسج ، نيلها   فيه الطراز الأحمر
هى مثل لوح صور الفـ   ـردوس فيه مصور
يا جنة يجنى الجنى   فيها ، ويجرى الكوثر
أنا شاعر فى وصفها   لكنها هى أشعر

— ١٤ —

وللسيد توفيق البكرى قصيدة « الرتب والأوسمة » الشهيرة ، التى نظمها أيام كان شوقى منهمكا فى الرياء بشعره . قال رحمه الله :

يا (رتب) المجد اسمعى وانظرى   أصبحت للبائع والمشترى
ويا (نياشين) العـــلى هذه   بيضت صدر العبد والبربرى
ويا (معالى) أنت مسكينة   ضعت على الجهال والقصر

---

(١) هو : السيد توفيق البكرى . أحد السادة الأشراف المعدودين من أئمة البيان العربى ، وله فى شعره مذهب خاص . قال هذه القصيدة يتغنى بمصر ، ويتشوق إليها حين كان غائبا عنها . وتوفى سنة ١٩٣٢ م .

وأنت يا (ألقاب) هيا ابرقى   من معشر الفضل منهم برى
لا تسمعى للصحف فى نعتها   هذا بمفضال وذا بالسرى
فلو تأملت تصاريفهـا   آمنت بالله وبالأصفر
فما (فضيلتلو) لواشى الحقى   ولا (رشادتلو) لذاك الزرى
وما (سعادتلو) على جاهل   كانت له بالبـــال لم تخطر
ويا ملوك العصر ضنوا بها   كما يضن الطفـــل بالسكر
ألم تروها اليوم من تأت لا   يكبر ، ومن لاتأت لايصغر

— ١٥ —

مصر وسوريا — حافظ ابراهيم :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب   هنا العلا وهناك المجد والحسب
أم اللغات غـداة الفخر أمهما   وإن سألت عن الآباء فالعرب
أيرغبان عن الحسنى وبينهمـا   فى رائعـات المعـالى ذلك النسب
ولا يمتـان بالقربى وبينهمـا   تلك القرابة لم يقطع لهـا سبب
إذا ألمت بوادى النيـــل نازلة   باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم   أجابه فى ذرا لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأردن ودهما   تصالحت منهما الأمواه والعشب
بالواديين تمشى الفخر مشيتـه   يحف ناحيتيه الجود والدأب
فسال هـــذا سخاء دونه ديم   وسال هـذا سخاء دونه القضب
نسيم لبنان كم جاءتك عاطرة   من الرياض وكم حياك منسكب
فى الشرق والغرب أنفاس مسعرة   تهفو إليك وأكباد بها لهب
لولا طلاب العـلا لم يبتغوا بدلا   من طيب رياك لكن العلا تعب
رادوا المناهل فى الدنيا ولو وجدوا   إلى المجـرة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل فى الشمس للراجين منتجع   مدوا لها سبباً فى الجو وانتدبوا
سعوا إلى الكسب محموداً ومافتئت   أم اللغات بذاك السعى تكتسب

فأين كان الشآميون كان لهـــا   عيش جديد وفضل ليس يحتجب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العرب

— ١٦ —

وقال حافظ ابراهيم من قصيدة عنوانها «وداع الشباب» ، وكان حافظ يقيم سنى صباه بدار منعزلة قائمة بين المزارع بناحية الجيزة . ثم تحول عنها إلى دار غيرها فى حى غـــير حيها ، ولبث أعواما لا يراها ، ثم مر بعد ذلك العهد الطويل بها فتنكرت له معالمها وقامت حولها دور شاهقة ، وقصور باذخة ، وذهب عنها رواء البساطة الذى كان سر أنسها وحلاوة بهجتها ، والروح الذى يصل بينها وبين نضارة الحقول التى كانت محيطة بها ، والتى ازورت عنها . فاسند الشاعر ظهره إلى جدار مسجد أمامها ومرت به ذكريات الصبا الذى قضاه فيها . فلبث طويلا وهو يبكى وينشد ماجاشت به فى هذا الموقف الرهيب شاعريته القوية المتحركة ، قال حافظ :

كم مر بى فيك عيش لست أذكره   ومر بى فيك عيش لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علقت به   من الشباب وما ودعت ذكراه
أهفو إليه على ما أقرحت كبدى   من التباريح أولاه واخـــراه
لبسته ودموع العين طيعـــة   والنفس جياشة والقلب أواه
فكان عونى على وجد أكابده   ومر عيش على العلات ألقـــاه
إن خان ودى صديق كنت أصحبه   أو خان عهدى حبيب كنت أهواه
قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به   والهفتى ونضوب الشيب أغلاه
كم روح الدمع عن قلبى وكم غسلت   منه السوابق حزنا فى حناياه
لم أدر ما بده حتى ترشفـــه   فم المشيب على رغمى فأفنـــاه
قالوا تحررت من قيد الملاح فعش   حراً ففى الاسر ذل كنت تأباه
فقلت ياليته دامت صرامتــــه   ماكان أرفقـــه عندى وأحناه
بدلت منه بقيد لست أفلتـــه   وكيف أفلت قيداً صاغـــه الله
أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا   أما المشيب ففى الأموات أسراه

تم الكتاب بحمد الله وعونه

فهرست الجزء الخامس

ص	الموضوع
٣	أعلام الكتاب بعد الثورة العرابية
٣	المنفلوطى
١٦	ابراهيم المويلحى
٢١	محمد المويلحى
٣٣	باحثة البادية
٣٨	البشرى
٦٢	جاويش
٧١	الرافعى
٨٩	نهضة الشعر فى هذا العصر
٩٨	البارودى
١٢٦	عائشة التيمورية
١٢٣	مصطفى نجيب
١٣٨	اسماعيل صبرى
١٤٨	ولى الدين يكن
١٥٣	حفنى ناصف
١٦٠	شوقى
٢١٨	حافظ
٢٥٣	الشيخ محمد عبد المطلب
٢٦٢	شعراء هاجروا إلى مصر
٢٦٤	محمد إمام العبد
٢٦٦	صور من الشعر المصرى